هاجس

obeikandl.com

الطبعة الاولى اكتوبر2013
الطبعة الثانية ابريل 2014

اسم الكتاب: هاجس
المؤلف: هدى عبد المنعم
تصميم الغلاف : أحمد مراد
مراجعة لغوية : أحمد يحيى
تحرير : محمد عبد السميع
رقم الإيداع: 2013\11693
الترقيم الدولي: 978-977-6376-41-0

***

إشراف عام:
محمد جميل صبري
نيفين التهامي

© جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ. وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبعٍ أو نشرٍ في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعيةٍ أو بصريةٍ دون إذن كتابي من المؤلف؛ يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

داركيان للنشروالتوزيع – 22 ش الشهيد الحي بجوارمترو أم المصريين – الهرم
محمول: 01005248794 – 01001872290 – أرضي: 0235688678
www.kayanpublishing.com - info@kayanpublishing.com

obeikandl.com

هدى عبد المنعم

هاجس

رواية

obeikandl.com

obeikandl.com

إهداء

إلى أبي وأمي.. المنبت والنور.
إلى رائف حياتي ومالِكــها .

obeikandl.com

obeikandl.com

-1-

قلم رصاص لا يفارق "ناير"، يحركه دائمًا بشرود على أى ورقة بيضاء مُخلِّفًا بضع خربشات دقيقة، ثم يكمش الورقة البيضاء النازحة من فن تجريدي للألم كلما تمرق الذاكرة عليه، يمزقها بسخط لم يعتد تفريغه في سواها، يرسم ويشطب ويكمش ويمزق تمامًا كما حل على أحلامه وأصاب نفسه.لا يفتأ يستحضر تاريخًا قديمًا عصيًا على النسيان؛ يصفع جراح نفسه، ويفك خياطتها مهما طال زمن مُحكَم الاعتياد عليها !

يلاحقه عمه في كل حيواته، مرتكبًا من الذنب المزيد حتى في غيابه، أليس ذنبه كليًا تغربه النسي هذا في مدينة مرسى مطروح التي انتقل إليها مؤخرًا، عملًا في منطقة تحت الإنشاء تابعة لمشروع ضخم موكل إليه من قبل الشركة الهندسية الكبرى لأعمال البناء! وألم تكن نية مفضوحة من ذاك الرجل منذ البداية أن يخرس ألسنتهم تمامًا إلا إن نطقت بما يأمر به! ذاك القانون الذي طبقه عليهم، يأمر فيطاع، الطاعة واجبة مع الكثير من الصمت وإلا كان التأديب لزامًا، نخاسٌ يبيع ويشتري مشاعر إنسانية! يتاجر بالرقيق اليتامى!

- أيها الأحمق، أي فكرة مجنونة تلك تتحكم بعقلك الغبي؟!

تُلجم يومها لسانه لبرهة وجيزة، فإن كان هادئًا بطبيعته، فقد أضحى

منذئذ صامتًا بطبيعة الحال، يُهجِع ما يمور في كُلِيَّته من حضور متحفز لتلك الإهانة، يتجاوز مرغمًا شَطَط عمه، ويحتذي الرفق في جوابه:

- كلية الفنون الجميلة ممتازة، ليست كما تظنها.

- "ناير"، أخرج هذه الفكرة تمامًا من رأسك، الفنون الجميلة تلك لن تطأها قدمك مطلقًا، إنها للنصابين والمخنثين، أيهما تريد أن تكون يا ابن أخي؟

مط "ناير" شفتيه بضيق وقال بعد هنيهة من الصمت: ما أعرفه أني أريد أن أوظف موهبتي في مكانها الصحيح.

هدر عمه بقسوة: ما أعرفه أنا أن تنسى تمامًا موهبتك المخنثة تلك وتدعك من الرسومات والألوان وتلك الشخابيط الخاصة بالأطفال وتلتفت إلى مستقبلك، ستلتحق بكلية الهندسة ولا مزيد من النقاش في هذا الموضوع.

- دعه يدرس ما يشاء يا "يسري"، لا تتحكم به.

التفت "يسرى" إلي أرملة أخية بدهشة، وبلمعة غضب في عينيه هتف: اصمتي أيتها المرأة، "يوسف" قد مات، فدعيني أنا أنشئ رجلًا حقًّا طالما لا تقوين على فعلها.

انفلتت من "كوثر" آهة منزعجة، فتقدمت ابنتها "ضحى" نحو عمها دون إرادة منها، وقفت بمواجهته بحدة دفعته للتطلع إلى الغضب المحفور على قسمات وجهها، متسائلًا بنزق: لماذا تقفين هكذا أيتها الفتاة؟ ماذا تريدين؟

- لا تتحدث إلى أمي بهذه الطريقة.

قالتها بحقد، فلم تكن المرة الأولى التي يسيء فيها الحديث إلى والدتها. حسبت برعونة سنها الصغير أنها يمكن أن تجأر وترون عليه، لكنها كانت مخطئة في ظنها، تمامًا كما غفلت عن توقع رد فعله الذي جاء على هيئة صفعة مدوية. هوى بغلظة كفه على وجهها: اخرسي أيتها الوقحة.

شهقت أمها بجزع، وتحرك "ناير" ناحيتهما بسرعة. وقف بينهما مَوْبِقًا منيعًا، فزجر "يسري" أمهما بغضبٍ أعمى: ما شاء الله! ابنة الاثني عشر عامًا تقف ندًّا بند لعمها، يبدو أنكِ لا تستطيعين تنشئة الفتاة كذلك يا أم "ناير"!

غمغم "ناير" بتحذير: عمي.

- قدم أوراقك في كلية الهندسة، أتفهم؟

ومضى يقطع خطواته بعيدًا بسرعة وثقة، عندها رفعت "ضحى" عينيها المغرورقتين بالدموع، تعرفت على مثيلاتها في عيني أمها وشبيهاتها في عيني شقيقها.

عندما تمتد يد منه أو لسان على أحدهم فكأنها نالت من كلهم، يفرغ شحنة ضيقه ويصب جام غضبه عليهم، وبعدما تذهب ثورته وكأنها لم تجئ، ويهدأ وكأنه لم ينفعل، ويبتسم وكأنه لم يُبكهم. يعجب لأفواه مكتومة وأعين مكسورة، وبتهديد واضح يفرض الانصياع له فرمانًا ويَصُكُّ التنازل عن أي رد فعل منهم لا يرضيه! فغضبته عليهم في نظره رياح ثائرة مرت بسلام! قانون الطبيعة.. وليس من نصرة لأحدهم في

مواجهتها! يتجبر عليهم لأنه قادر وبما له من سلطة عليهم، لم يعِ أن ذات التجبر عليه كان ينمو بداخلهم نحوه ويثور عَجزهم عن تفريغه في وجهه! ويفور حتى ينطفئ صمتًا غير مقدور إلا عليه.

***

كان الهوى يدعو "ضحى" إلى الاستزادة من الأدب العربي بدراسته، لكن عائلتها ومجموعها العالي دفعاها إلى دراسة الاقتصاد، لم يرق لها كثيرًا رغم تفوقها فيه الذي كان أمرًا محتومًا، وإلا نالها ما لا تحب من شقيقها الحريص على العناية بها جيدًا. تلف حول نفسها والعالم للبحث في الكتب والمراجع فتلعن اليوم الذي فكرت فيه الحصول على شهادة الماجيستير، يوم استضاف صالون منزلها طبيبًا شابًا متقدمًا لطلب يدها، العريس الأول الذي تستقبله عائلتها.

نامت ليلتها يراود خيالاتها حلم أسطوري، هي فيه أميرة نائمة في غيبوبة أبدية أو محتجزة في علية قلعة منيعة، في انتظار فارس يتجنى على طول استيطانها القحط مُبددًا إياه شراذِم مبعثرات، يجرها إلى عالم آخر، يماثلها فيه العمر والحلم.

فارس بدائي على صهوة جواد جامح لا تدري من منهما يروض الآخر! يرتقي السهول البرية مفتتًا الرمال القاحلة، يعتلي سطوة فرس ثائر، مُحكِمًا لجامه العابث بذراعين مشدودتين ومنكبين أنيقين وصدر مفتوح على مصراعيه، تتدلى منه فحولة شعيراته القصيرة الغائصة بشقرة الشمس الذهبية، عنقه طويل تنفر عروقه وتغرق بينهم تفاحة

آدم المغوية، عيناه داكنتان تجعدتا بأسًا جذابًا، يظللهما حاجبان كثان، يخترق التحامهما أنفًا حازمًا مستقيمًا، يزينه شموخ شفتين رقيقتين مزمومتين بإحكام قاهر، ويسحق كماله الرجولي شعرًا فاحمًا قصيرًا تتساقط بمجون خصلاته المتلاعبة على جبينه الضيق!

صحت على الليلة الموعودة بفرحة ودَعَة، ارتدت فستانًا قطنيًّا طويلًا متشابك اللونين الأسود والأحمر وحجابًا أحمر تورد له وجهها، وضعت زينة بسيطة حتى لا يبدو طلاء شفتها الأحمر مبالغًا فيه، وخرجت إليهم ببنية حياء واضحة فاخترق أذنيها صوت مدوٍّ لتهشم منامها، لم يطرأ على بالها أن ترى بأم عينيها أضغاث أحلامها! تدرك أنها لم تره من قبل ولا تعلم عنه شيئًا، لكن لم يكن ذاك الحلم الذي راود فراشها بحال! كان طويلًا يزيد عن المترين وضخمًا بحيث بدا شقيقها"ناير" إلى جانبه عصفورة هشة! تراجع شعره إلى الخلف واستكانت عويناته على وجنتيه المكتنزتين.

صافحته دون مبادلته النظرة واتخذت مجلسها في عد الدقائق التي مرت برتابة، تطلعت إليه خلسة مفكرة أنه حتى "ناير" إلى جواره لو كان عروسه لكانت الناس أشارت إلى نحولها، اصطدمت عيناها بعيني شقيقها اللتين غرقتا في ابتسامة نادرة فأشاحت نظراتها عنه بتوتر، وزفرت بارتياح بعدما أُغلق الباب على مغادرته، فيما تناهت إلى مسامعها مزحات أمها وخالها ودعابات شقيقها غير المعهودة حول العريس الكومبو، يبدو أنها الوحيدة التي لم ترَ ما حدث أمراً مضحكًا!

كان ذلك بعدما تخرجت من الجامعة، وصمدت شهور الصيف كاملة

في منزلها بلا حراك فورما شَق عليها مجالات العمل فيما تخصصت في دراسته، فأدارت له ظهرها سريعًا ولم تجتهد في فتح أبوابه في وجهها، مكتفية كمن سبقنها من بنات العائلة وكما أنشأها عليه أولو الأمر منهم بصالون المنزل، مكرسة وقتها وأحلامها بين أثاثه، معلقة عليه آمالًا عريضة في الاهتداء إلى شريك الحياة، فاللقاء برجل خارج المنزل محظور على من هن على شاكلتها من بنات العائلات، ولطالما خُيِّل إليها أن نصيبها الذي ستهنأ به ستجده بكل بساطة في صالون منزلها! فلم تفكر قبلًا في البحث عنه خارجًا خاصة عندما تحينت لها الفرصة بإغراء كادت ألا تقوى علي التصدى له فى وقت ما!!

لكنها منذ ذاك اليوم لم تعد تولي ذلك المعتقد اهتمامًا طائلًا، وعقدت آنذاك العزم على ألا تُعرض نفسها لهكذا موقف مرة ثانية. كأنما أفاقت فجأة على واقع آخر، تمامًا كما أبصرت فجأة سوء الأوضاع في بلدها، ألم تظن دومًا أن ذاك رزق شعبها الذي قُسِّم له ويُحتَسب لهم الصبر عليه! لم تعِ قبل كشف المستور أن العهد القديم لم يكن نصيبًا قُدِّر لوطنها، كل ذاك الغلط كان فعلًا وافتعالًا وليس بنصيب أبدًا، مغيبة كانت عن هذه الحقيقة حتى أدركها غيرها وثار عليها، فأفاقها وآخرون مثلها فاتعظت وقررت أن تفعل بدورها، وألا ترضى بفعل ملتَبس بالنصيب ومُدَعِى عليه، ألا ترابض في البيت ككلب حراسة كى لا ينتهي بها الأمر مجرد عروس في صالون منزلها تنتظر العريس المرتقب الذي قد لا يأتي حتى في محله، كان من الضروري أن تخالط الحياة وتندمج في مجالاتها حتى تلتقي بحبيبها كما هو مرسوم في الحلم، وهكذا التحقت

بصف التمهيدي في الجامعة لتعد رسالة الماجيستير في مجال دراستها، وقد كان لديها كل الوقت لتفعل، وكل الوقت لتندم!

***

سمراء متناسقة القوام في منتصف العشرينات، تلف وجهها النحيل شواهق متدرجة من الليل الأسود، تنضح ببشرة بيضاء مشربة بالحمرة، عيونها كحيلة مسحوبة مكللة بأهداب غزيرة، والشفاه ممتلئة كفراولتين طازجتين. أوقفت سيارتها بحي يمتاز بهدوئه في الساعات الأولى من الصباح، دفعة هواء باردة تليق بشتاء ديسمبر لا تني تطيح بخصلة طويلة من شعرها على وجهها، أرجعتها خلف أذنها بتأفف وأغلقت زجاج نافذتها، وقبعت في وضع انتظار اعتادت عليه طويلًا كل صباح تحت مسكن خالتها، بناية مُسَيَّجة بمجموعة متنوعة من الأشجار والنخيل، تطل على النيل بصفاء ورقرقة مياهه التي تلعب بالأضواء تحت شمس الظهيرة، وتتهادى بغموض تحت بياض القمر كغيمة فضية.

تنفست «سلمى» الصعداء لانتظار لم يطل أكثر على غير العادة، وهي ترقب فتاة ضئيلة الحجم تعتلي المقعد الأمامي إلى جوارها، لتنطلق بالسيارة تَعُبُّ معمعة الطرقات المزدحمة المتكدسة بالسيارات، إلى الجامعة، حيث ترتاد عملها بطاقم تدريس كلية العلوم وتوصل ابنة خالتها «ضحى» لكليتها لتلحق بمحاضرتها الصباحية.

تعدت قرابة الفتاتين حدود الرحم واقتربت الواحدة من الأخرى لتكن لها الأخت التي لم تلدها أمها، فيما تعدت علاقة «سلمى» بخالتها

معناها التقليدي بحق وفاقت صلة القرابة بينهما، إذ لا يمكن لأي شخص يراهما سويًا أن يخمن أن الصديقتين الحميمتين يجمعهما رجل، هو ابن لواحدة وخطيب الأخرى! ذلك أن أشارت خالتها منذ فترة على ابنها بأنه في عمر مناسب لبدء التفكير في عروس، ورشحت له حينها ابنة أختها «سلمى»، فلم يخب تدبيرها لعروس ولدها ونالت استحسانه سريعًا، فقد كانت على قدر كبير من الذكاء أهَّلها لتكون الأولى على دفعتها في كلية العلوم ويتم تعيينها كمعيدة بها، مرصودة بأناقتها وبشاشة وجهها، معروفة بهدوئها وحضورها وخفة ظلها.

فاجأها «ناير» بطلبه قربها بعد تحريض والدته وشبه إعجاب متبادل، وباتت «ضحى» تتلصص بشقاوة على شقيقها وهو يتحدث مع عروسه على الهاتف، وتقضي الساعات مع ابنة خالتها تحكي لها فيم كانا يتهامسان. تجرأت وسألته مرة: «هل تحبها؟». إيماءة خفيفة من رأسه وشبه ابتسامة، هكذا كان «ناير» دائمًا، انفعالاته محدودة لكنها تفي بالغرض لمن اعتادها، فيما تمحورت كل أحاديث «سلمى» حوله، أو بالأحرى منذ خطبتها لم تتحدث عن غيره! محظوظة كانت بصداقتها، فلولا أنه أخوها لما احتملت أن تصب كل أحاديثهما في ذات القالب! خاصة أن ذاك الشغف العشقي المنبلج له بالغ الأثر على رهيف حسها، فبدون سابق احتياط أصبح قلبها مغويًا، محمومًا، يفتش بدوره عن نصفه الثاني، وينتظر قدومه بمخزون هائل من الأماني والرجاءات العاطفية.

وفي جلسة معتادة من الفتاتين في وقت راحتهما على مقعد خشبي

يتوسط حديقة الحرم الجامعي، تحادثه «سلمى» فينهي معها المكالمة سريعًا متعللًا بأن لديه عملاً وسيهاتفها فيما بعد. أي عمل وقد حرصت على الاتصال به في فترة راحته! لا تفهم فارسها الغامض تمامًا بعد، أو ربما هو يجد أن الوقت لا يزال مبكرًا للخروج من شرنقته. لم يتفوه أمامها بعد بحرف عن سنوات عمره الأولى وما ألمَّ بهما بعد وفاة والدهما! كل ما تعرفه عن تلك الأيام خرج من فم شقيقته!

لمحته «ضحى» يسيروحيدًا، يحمل في يده لوح شيكولاتة داكنًا يقتطع منه قطعًا صغيرة ويقذفها إلى فمه بمهارة. قامت مسرعة إليه بفرحة واضحة، قطعت طريقه لاهثة بنداء طائش، لم يبدُ الشاب أن لمرآها تأثير عليه، منتحلًا ابتسامة ليست له في مواجهتها. تساءلت عن حاله فأشار بيده بأن الأمور بين هذا وذاك.

استرعى وجوده في الحرم الجامعى استغرابها لوقوع كليته خارج أسواره! فأخبرها أنه عضو بلجنة تنظيمية لنشاط جامعي يطرح دورات تدريبية للطلبة، موضوعها هذا العام الدراسي هو «إدارة الأعمال»، كالدورة التدريبية في «الاقتصاد» التي التحقتْ بها الصيف الفائت. قالها بابتسامته المعهودة التي قلما تفارق شفتيه وهو يشير إلى صندوق خشبي قريب، مفرغ هائل الحجم مفتوح من الأمام ومغطى بأوشحة بيضاء، يقف داخله ذاك الشاب الأسمر صديقه الذي التقته من قبل، وإلى جواره فريق عمل يلقون كلمات سريعة على مسامع بعض الأشخاص الذين يتساءلون عن كنه هذا الصندوق.

أبدت ترحيبًا لينضم إلى جلستها و«سلمى» لتعرفه عليها، فلحق

بسرعة خطواتها وهي تخبره بأمر دراستها العليا. جلس إلى جوارها حيث توسطت هي المجلس على المقعد الخشبي بينه وبين ابنة خالتها، التي رحبت به وأخبرته أن أواخر الربيع موعد زفافها. بارك لها فشكرته، ثم ودعتهما وغادرت لتلحق بالأسواق لشراء بعض احتياجات زفافها.

قرب الشاب وجهه من «ضحى» مُفلِتًا عتابًا كان ينوي ألا يبديه: لم تهاتفيني كما تواعدنا.

ولحسن حظها أعتقها من إجابة تحار في البحث عنها بهنائه بقربها واكتفائه بكونها الآن بين ناظريه. شعت عيناه ببريق إعجاب متزايد وهو يجيل نظره في بلوزتها بيضاء اللون من النايلون، وتنورتها الناعمة باللون الأخضر الباهت، وحزامها العريض من الجلد المشغول بالمعدن الذي أمسك خصرها بشدة. تضرجت وجنتاها بحمرة، فبادرها بحنين: اشتقت إليكِ.

وصارحها بما يعتمل في نفسه: أتعلمين! لازالت أفكر في أمرنا، النصيب سيجمعنا يا «ضحى»، أشعر بذلك.

- لم تقل لي ماذا تفعل الآن يا "محمود". هل من جديد في حياتك؟!

لم ينتبه لمحاولتها المتعمدة قطع حديثه بفضول مصطنع، ربما لأن السؤال جاء في محله، إذ حرك خصلات شعره لتتساقط بعفوية جذابة على جبينه الضيق وهو يُقبل على الإجابة بحماس: جيد أنكِ سألتِ حتى أبرهن لكِ خطأ ظنونك فيّ، فأنا وثلاثة من أصدقائي نخطط لافتتاح متجر ملابس رجالي.

خاب أملها بعد مقدمته العريضة. هل ترتضي أسرة أي فتاة أن تزوجها لشاب مهنته ربع متجر ملابس؟!

اقترب منهما صديقه الأسمر محييًا بمودة: "ضحى"، كيف حالك؟ جميل أن أراكِ مرة أخرى.

ابتسمت بمودة مماثلة: "علي"، مرحبًا، كيف حالك؟

صاح فجأة بحماس: ما رأيك بنشاطنا؟

- رائع، أحييكم عليه.

تساءل بترغيب: هل تنضمين إلى اللجنة التنظيمية؟ ألم تعرض عليها يا "محمود" الانضمام!

راقت لها الفكرة فأومأت باندفاع: حسن، يمكنني هذا لكن لا أدرى ماذا أفعل! "محمود"، هل يمكنك أن تشرح لي!

- ليس اليوم لأني سأنصرف مبكرًا للحاق بمباراة كرة القدم، سأحضرها في الملعب.

زجره "علي" فور انسحاب "ضحى" من بينهما: يا أخي جِد شيئًا آخر تنفع به نفسك.

احتد عليه "محمود" متهكمًا: لا تقلل من شأن الرياضة يا "علي" فقط لأنك لا تجيد تشجيعها، أو لأنها حاشا لله لا ترقى إلى معاييرك السياسية.

- يا بني أنت أصلًا لا تشجع الرياضة، وإلا لما كنت لتهتم فقط باللعبة الشعبية لبلدك دون سواها، وكان سيشفع لك لو أنك تحرص ولو قليلًا على مصلحة بلدك وتقف في صفها من باب التشجيع يا أخي الذي

تجيده، إنما أنت لا تفعل أيًّا من هذا.

لم يُلقِ "محمود" بالًا طويلًا لثورة "علي" عليه. لا تجمعهما غير صحبة عمل، ولم يصدف لمرة أن اتفقا معًا، فليس خلافهما هذه المرة بأمر يعول عليه. ماذا ينتظر منه ذاك المتبجح بنشاطه السياسي؟ أن يتزل الميادين يهتف مثله، باسم من؟! إن كان مستغنيًا عن نفسه أو عن عين منه فهو ليس كذلك، كفاه أن فاز فريق كرة القدم الذي يشجعه تلك الليلة، سجل هدفين في مرمى منافسه مقابل لا شيء!

***

شفاه ترتعش ونظرات منها موالية لشاشة تلفاز يعرض لقطة أسرية هانئة، شردت "كوثر" مرغمة عن حاضرها الفارغ، تجتر ماضٍ قصفها نصفين ومنذئذ لم يستقم ظهرها، قبل اثني عشر عامًا، كم مرت وقتها من ساعات النهار وتعاقب عليها الليل، بين الغداة والعشي هي هنا وهناك، بين ولديها وحولهما غارقة حتى أذنيها في أعمال تبدو كالبحر لا تنفد أمواجه، بدون كلل أو ملل كأنها نحلة عاملة متنقلة من زهرة لأخرى، حتى كانت الليلة التي وجدتها طفلتها تبكي أرضًا، بخوف أسرعت "ضحى" إليها وجهرت بقلقها، لم تجب "كوثر" وإنما دفعتها إلى أحضانها وربتت على ظهر صغيرتها بقوة، ثم استجمعت قواها ونهضت فجأة بعزم لتأدية صلاة العشاء بمصلى النساء بالمسجد المجاور.

ومضت تطرق أبواب مناجاة وحدتها وتدخل عم ولديها السافر في أمور حياتهم، فارضًا وصايته بما له من سلطة عليهم، حل محل رب

الأسرة، تلبس هذا الدور وأبى إلا أن يقوم به، ربما لم يكن يفترض به أن يفعل لأنه لم يكن يجيد فعله، كان يظن أن هذا الدور يتيح له فعل ما يشاء بولديها كما الأب، لكنه لم يكن يعرف أي أب حظيا به قبله ليدرك الفرق! أين هو من والدهما! بكت وشكت وتوسلت شفقته الميتة سلفًا، صمتت بقلة حيلة عن الإهانة والأذى اللذين واصل توقيعهما عليها، طمرت نفسها بين العمل المنزلي ومراعاة ولديها، لكن، عندما تنفد طاقة الاحتمال عن آخرها وتخور القوى، فكيف لمشوار غائبةٍ معالمه من انتهاءٍ!

كانت تسكن مع زوجها بحي راقٍ في الإسكندرية، بعيدًا بآلاف الأميال عن مسقط رأسها الذي ارتأت أن تنزح إليه بولديها فور وفاة عائلهم، لكن حالما اشتم "يسري" رغبتها تلك وقف لها بالمرصاد بتوحش: تعقلي يا أم "ناير" والزمي منزل زوجك.

- زوجي رحل يا "يسري" ولم يعد البقاء هنا ضروريًّا!

- هل جننتِ يا امرأة! أتظنين أنك برحيله ستفعلين ما تشاءين؟؟

تساءلت بدهشة متأذية من هجومه عليها: ماذا تقصد يا "يسري"!!

تطلع إليها باحتقار وزمجر بشراسة: لا تظني أنكِ ستخدعيني بتلك البراءة التي تلبسينها كثوبك، أنا لست أحمق، أنتِ تريدين الهرب إلى ديارك للزواج من آخر، أليس كذلك!

- ماذا تقول!!!

- خائفة أنتِ على شبابك أن يذوي إلى جوارولديكِ، أليس كذلك؟!

هزت رأسها بعنف نافية بلوعة: لم يدر الأمر بخلدي حتى، كيف تقول هذا؟ كل ما أريده العودة إلى أهلي بعدما راح من كان يؤنس غربتي ويصبرني على الغياب عنهم، كيف تمكنت من قول هذا؟ لم يفت على وفاة "يوسف" شهران حتى!

لمعت عيناه بانتصار وحشي وصاح بإزدراء: شهران، هكذا تفكرين! ستتجاوزين وفاته إذن مع الوقت وستفعلينها بعيدًا عن أعيننا، انسي، لا تحلمي بذلك، ستبقين هنا حتى يوم مماتك وإلا سينالك أنتِ وولديك ما لا ترضين، يقتضي عُرفنا إن مات الرجل أن تتعفف أرملته حتى تلحق به، أتفهمين!

وقتها جاءها والدها، كل خلجة من خلجاته هتفت بأن شيئًا خطيرًا سيبوح به، وأنه ما قطع تلك المسافة البعيدة إلا لأن هناك دافع قوي وخفي حتى هذه اللحظة، فسألته بتوجس: كيف؟!

كلمة واحدة حملت كل ما يعتمل في نفسها وكأن ما يدور بخلدهما يسير على موجة واحدة، فهمت ما يقصده وفهم مغزى سؤالها فأجابها: "يسري" أخبرني، هاتفي لأتدخل في الأمر.

صرت على أسنانها بضيق: لمَ لا يدعني وشأني؟! ماذا له عندي؟!

- أولاد أخيه، يريدهما بقربه ليقوم بدوره نحوهما، لن يدعك تغيبهما عن ناظريه وإلا أخذ الصبي منكِ ولربما الفتاة كذلك، وأنتِ تعلمين أنه بقادر على فعلها، فضلًا عن أنه هددني بميراثهما الذي تحت يديه.

التاعت من ملوحة عينيها اللتين أدركتا قرب نفاذ الأمر: لمَ أتيت يا

أبي؟ فقط لتجبرني على البقاء! ألا تحمل إلي حلًا بين طيات حكمتك؟ لا أريد أن تدفع أمومتي الثمن، أقسم بالله إني لا أسعى لحياة جديدة مع رجل آخر، ليس بعد "يوسف"، رغم أنه يحق لي، لكني لن أفعلها، فقط أريد أن أكون إلى جوار طفليَّ وأهلي، أهذا مبالغ فيه لهذه الدرجة!

ربت على ظهرها كاتمًا أبوته بتعقل: هذا باب لا يمكنك طرقه يا "كوثر" بمواجهة جبروت "يسري"، لا تنسي أنه ضابط في الداخلية ولا يمكننا الوقوف بوجه نفوذه ومعارفه، أنا آسف يا ابنتي إنما ليس لنا قِبل به، وقد أكد علي إخبارك بأنه يجب أن تغلقي الباب عليكِ مع طفليكِ وتحتملي ما يدور خلف الباب أو تغادري المكان وحدك.

خبطت على فخذيها بعنف صارخة بدموع مهزومة: هذا ظلم، لا يحق له.

احتضنها بقوة ليخفي تأثر عينيه: أعلم، لكنه ما كتبه الله عليكِ، هذا قدرك الذي رسمه لكِ، فلا تعاندي القدر حتى لا تخسري ثواب الصبر على البلاء، "كوثر"، استعيذي بالله من الشيطان الرجيم واقبلي بقضاء الله، فكري في طفليكِ ومصيركم أحدكم دون الآخر.

تشبثت بأحضانه: لطالما فعلت!!

- طالما أنتِ إلى جوارهما، لا يهم أي شيء آخر إذن.

لم تفكر للحظة في مدى استطاعتها أن تحيا دونهما، تطلعت يومها إلى المرآة طويلًا ومسحت دمعتين انحدرتا لترثيان حظًّا عاثرًا، ألهمني الصبر يارب، تقدمت من "يسري" بخطوات بطيئة مترددة تعلم أنها تبدأ بها

غربة ووحدة، تتسارع الحروف إلى لسانها وتقفز الكلمات بين شفتيها قبل أن تغتم سحنته ويرتفع صوته ويأتي على البقية الباقية من عزة نفس توارت خلف الإهانة، رفع إليها عينين ناريتين ووجه مغبر بالغضب فأطرقت برأسها حتى لا تُخرِسها نظراته: أريدك أن تعلم أني لا أسعى خلف الزواج، ولأبرهن لك، سأبقى، سأبقى هنا.

التوت شفتاه بابتسامة منتصرة وقال بقوة: جيد أنكِ عرفتِ خطأك وعدتِ إلى رشدك فلم أكن لأسمح لكِ بغير ذلك.

تحاملت، وكتمت حنقها وقهرها منه، وتملقته، كلمات واهية كانت كنقاط بلا معنى على سطور عديدة الغرض منها ليس أكثر من اغتصاب ورقة بيضاء بحبر أحمر ينزف ألمًا ولوعة، تنصلت من التهمة التي ألصقها بها، تهمة الهرب إلى مسقط رأسها للزواج، مرافعة كانت أمام قضائه، أمام من يرى المخطئ حتى وإن فسر شبهة الخطأ بمقياسه الخاص مجرمًا يستحق العقاب! أما إن وقع هو في الخطأ سواءً أقربه في قرارة نفسه أو أدركه صوابًا فيحلو له أن يُنظَر إليه بعين الرأفة!

قاضٍ يتاح له توقيع قانون العقوبات على المتهمين أمثاله! إن كنتَ متهمًا فقد يُغفَر لك إجرامك، لكن إن كنتَ قاضيًا مُشتَبهًا بالإجرام فلن يسامحك أحد لأنك بعيد عن نزاهة القضاء التي تُرضِخ المتهم للحكم وتطأطئ رأسه للعدل، أما وكفتا الميزان غير متساويتين، فالإحساس بالظلم يجعل المتهم ناقضًا للحكم الواقع عليه ومؤمنًا بالبراءة، إلا تلك المرة!

تلك المرة ودت "كوثر" ألا يحكم ببراءتها من التهمة المنسوبة إليها، ودت ألا يصدق دفاعها وألا يطلق سراحها من أسر الاتهام "سجن الحرية"، أليس غريبًا أن تكون الحرية سجنًا!! تصبح كذلك عندما تحيطها الأسوار من كل جانب، جدران أربعة تحيط بحريتها التي لو ربحتها كما أرادت لسجنت في المقابل أمومتها! لتصبح البراءة من تهمة الهرب إلى مسقط رأسها سجنًا لم تفلح في الفكاك منه! والفرار من قبضة "يسري" سجنًا من نوع آخر لا تقوى على احتمال قضاء العقوبة داخله!

في كلتا الحالتين كانت سجينة بلا أمل أن تتنفس يومًا مطلق عبير الحرية، فعصافير البراري وإن كانت تنتشى بالحرية لكنها تدفع مقابلها ثمنًا فادحًا، إذ لا تنعم أبدًا بدفء وأمان عش تسكن إليه! و"كوثر" لم تكن لتتحمل ذلك الثمن! فاختارت ألا تكون من عصافير البراري، لكن رغم الخيار كان القرار أشبه بوضع اليد! فمن لا يملك قوت يومه لا يملك حريته، وربما أيضًا لا يملك نفسه.

ترددت أيامها يومًا بعد الآخر على المسجد المجاور للمنزل، تفض شكواها إلى سيدة مسنة "ليس بيدى شيء، لقد احتسبت أجري عند الله، هو حسبي ونعم الوكيل، هو وحده بقادر على أن يقف بوجهه، لم أعد أرغب في الدنيا من شيء سوى أن أؤدى رسالتي تجاه ولدىّ وأخفف عنهما". فتُربت على يديها السيدة المسنة وتمنحها ابتسامة مطمئنة "سيخلفك الله خيرًا في الدنيا ولدًا وبنتًا صالحين يا "كوثر"، وفى الآخرة جزاءًا عظيمًا، احتملي ساعات الدنيا المعدودة ليرزقك الله بأخير منها إلى الأبد".

واحتملت فرزقها الله، ومنذ لجوئها إليه أضحت أكثر قناعة ورضوانًا، باتت تصعد إلى سطح منزل الإسكندرية قبيل غروب الشمس بساعة، وتجلس متطلعة إلى القرص الأحمر يخفت حتى يغيب في البحر، ويرتفع صوت المؤذن لتؤدي الفرض بلا حاجز بينها وبين اتساع السماوات، بتلك الفترة لم تبدُ الدَعَة والصفاء على وجهها إلا تلك الساعة التي تسترخي فيها مستسلمة لنسمات الهواء مطبقة الجفنين، وكأنها كانت تغمض عينيها لتحلم أنها تتبختر بدلال فوق السحاب!

انسابت عبراتها مُغرِقة الذكرى، فلم تملك "ضحى" دموعها عندما رأت مثلها في عيني والدتها، هي هواء تتنفسه وتخشى أن تفقده فتموت من الاختناق، مشاعر طفلة تعلقت بأمها علقت بها رغم كل السنين التي مرت عليها، لذا تهاوى ثِقل جَزع على صدرها عندما اقتنصت دموع غاليتها تهمي بهدوء على وجنتها، احتوت "ضحى" بعينيها قلبًا شاخ قبل أوانه يتفصد وجعًا للحظات أصبحت خارج نطاق الزمن ولم تعد لمتمنيها من حق فيها! استطاعت أن تنفذ إلى مخيلة والدتها مستشعرة دواخلها، كاشفة الستار عن أفكار مترددة بدوي مقهور بخواطرها، تدرك حجم افتقادها إلى زوجها وحبيب عمرها، وبعده والدها الذي لحق به بفترة وجيزة فلم يستطع أن يملأ فراغه، وولدها الذي لم يمكنه لسبب ما أن يُكَفيها من العاطفة ما حُرِمَت منه في عمر مبكر!

- لكِ الجنة يا أمي، هي أفضل من كل نفحاتها على الأرض.

طالعتها "كوثر" بامتنان قوي، كل ما تملكه في دنياها هاتان البندقيتان اللتان تحدقان بها بفهم عميق وسند عاطفي امتدت جذوره لسابع

أرض: أصبحتِ عروسًا يا "ضحى" وسيحين دورك حتمًا.

قالتها وتنهدت تنهيدة مريرة لتنبؤ كعلقم سام سيسلبها بقايا أنفاسها عندما يتحقق، فدست "ضحى" نفسها بقوة بين أحضانها: اطمئني يا أمي، لن يمكنني الابتعاد عنكِ أبدًا يا حبيبتي، ليس لي أحد سواكِ.

بللت قطرات أحزانها وجه ابنتها الغارق في صدرها الدافئ وهى تمسح على شعرها بحنان: وأنتِ يا "ضحى" كل شيء في حياتي، أقرب لي من نفسي يا غاليتي.

ارتعشت شفتا "ضحى" لاحتياجهما الواضح، فاستنكرت انعزال "ناير" عنهما بايماءة مستنفرة من رأسها المدفون في عبق أمومتها، شقيقها أحجية معقدة، يصعب فك شفرتها، تتوهان في دهاليزه فتعلقا بمتاهة لا مخرج منها.

***

تهيأت "ضحى" لملاقاة اللجنة التنظيمية للنشاط بصحبته، ثُلَّة من الفتيات والشباب سبق خطاها إلى مجموعة صغيرة منهم وقدمها إليهم، فوجئت بأحدهم يتغنى بترحيبه بها، ضحك الجميع و"محمود" يعرفها على صديقه الحميم صاحب الفقرة الغنائية "باسم"، قفز حاجز منتصف العشرينات ولا زال طالبًا بكلية الآداب في السنة الثانية، تنقل بين ثلاث كليات قبلها ولم يفلح في إحداها، ويتمنى أن يتخرج من الجامعة قبل أن يبلغ الثلاثين!

همهم "باسم" باستحياء مصطنع ثم أفسح مكانًا لها وأشار إليها

بتهذيب: صباحك سكريا "ضحى".

اتخذت مجلسها في حين أشار "محمود" إلى فتاة محجبة تبدو أكبر سنًا وتطل من ملامحها جدية مفرطة: أعرفك على رئيسة اللجنة أستاذة "ندى"، معيدة في كلية التجارة.

أشار أخيرًا إلى الشاب الأسمر حاد القسمات عريض المنكبين قائلًا: -طبعًا تعرفين "علي".

أومأت ملوحة له بيدها مرحبة فلوح لها بدوره بهدوء يميزه، وقال: مرحبا بكِ يا "ضحى" بيننا في عمل تطوعي لنا فيه ولاء مذ كنا أغلبنا طلابًا في الجامعة، رؤساء اللجنة التنظيمية للنشاط ومشرفوها هم معيدو الكلية صاحبة التخصص الدراسي المطروح في الدورة التدريبية المقامة، وفي هذه الحالة هم معيدو كلية التجارة وعلى رأسهم ضيفتنا أستاذة "ندى" بما إن تخصص هذه الدورة في "إدارة الأعمال"، ونحن كمنظمين دورنا هو تحضير قاعات الصفوف والاتفاق مع الأساتذة الذين سيقومون بالتدريس والترويج للدورات التدريبية واجتذاب الطلبة للالتحاق بصفوفها، أما الطالبات فهن اختصاص "محمود"، هو يجيد اجتذابهن جيدًا.

ضحك الجميع عداها وخبأ "محمود" وجهه بين كفيه مصطنعًا شيئًا من الخجل، فيما قامت هي من مكانها لتجاور الأخير على أحد الأرصفة الحجرية بعدما انتهى حديث المجموعة، أطلعها في دقائق معدودة على كيفية سير العمل بالنشاط، ولم يمهلها رنين هاتفه بنغمة أجنبية مزبدًا

من الاستفسار، أشار إليها معتذرًا وأجاب على الهاتف بهمس لم تستطع فك شفرته، وما إن انتهى حتى سألته بفضول عن هذه النغمة المميزة، كانت مقطعًا من أغنيته المفضلة واستغرب أنها لم تعرف ذلك قبل الآن، أيدته بأنها لا تعرف عنه الكثيرواقترحت أن يحاولا معرفة بعضهما البعض بحق، وبادرت بسؤاله عن أسرته ليتضح لها أن ذويه منفصلان، تأسفت لوضعه وحاولت التسرية عنه بتذكيره أنهما على الأقل على قيد الحياة، بجواره إن احتاج إليهما، وأخبرته بفقدها لوالدها منذ زمن طويل، غير أنه لم يقل شيئًا على الإطلاق.

أفردت لها الحيرة مختلف الظنون، أليس غريبًا أن تصرح له أنها يتيمة ولا يعبر عن أسفه لهكذا وضع ولو حتى بتعازلفظية! ألا يهتم بها للدرجة التي يعجزفيها عن المواساة في أدنى درجاتها! تغلبت على إحباطها وقامت لتبديل كنزتها بالسترة البيضاء التابعة للنشاط، فبلغ بها الانزعاج مبلغه ما إن طالعت انعكاس صورتها في المرآة، فقد أفسدت السترة تناسق جسدها، وتعاظم إحساسها ببشاعتها حالما وقعت عيناها على "محمود" يتحدث إلى فتاة بفستان أسود قصير عاري الكمين، ترتدي تحته جوربًا أسود شفافًا وحذاءًا برقبة مرتفعة مزينًا بفيونكة أنيقة، وشعرها الطويل يداعب وجهها.

تنقلت أصابعها بعصبية بين السترة وحجابها الذي أتلفه الهواء الثائر، لم تعد تطيقها على جسدها وأرادت خلعها فعلًا، إنما نهتها "ندى" ودعتها ألا تكون طفلة صغيرة وتلتفت إلى العمل، وبعينين توسعهما الغيرة ألمًا لم تبالِ بها وتابعت النظر إلى "محمود" وفتاته، وهي تدعو الله

ألا تستجيب الأخيرة لدعوته لها للالتحاق بالدورة التدريبية، في الوقت الذي استرعتها زمجرة مستاءة من "علي" فأرهفت السمع إليه.

- لا يصح هذا أبدًا، "محمود" يجب أن يفهم أن هذا النشاط ليس مدخل حديث مع الفتيات، انظر إليه يا «باسم» يطيل وقفته مع تلك الفتاة بل ويتبادل معها أرقام هاتفيهما!

- ولمَ تستاء يا "علي"! هذا شأنها ولو ضاقت به لما ظلت كل هذا الوقت بصحبته!

- وماذا إن فعلها مع فتاة ضاقت بحق من هذه التصرفات السخيفة! ليس هدفنا الإيقاع بالفتيات يا "باسم"!

تدخلت "ندى" بحزم: "باسم" يجب ألا تستخف بالأمر، جائز جدًّا أن يتطور ويؤثر على سمعة نشاطكم فيعرضكم للمساءلة من إدارة الجامعة وإلغاء تصريح النشاط! ولا تنس أن المعيدين من أوائل مراقبي اللجنة التنظيمية ولا أريد أن أرفع ما قد يسيء إليكم، ففضلًا بما أنك صديقه الحميم، عليك تنبيهه.

عضت "ضحى" بأسنانها بسخط على شفتها السفلى وهى تطالع "محمود"، لا يزال يتحدث إلى الفتاة ذات الرداء الأسود! عادت بنظرها إليهم لتجد "باسم" يحث الخطى إليه: حسن، اهدئا قليلًا، سأنبهه.

هرول "محمود" إليهم بعصبية واضحة وقال مدافعًا: أستاذة "ندى"، أنا لم أفعل شيئًا، هذه الفتاة تريد الانضمام إلى اللجنة التنظيمية وقد كنت أشرح لها عملنا فحسب.

احتد "علي": أنت تعرف يا "محمود" أننا لسنا بحاجة إلى آخرين ليشاركونا العمل، وبدلًا من إضاعة وقتك ومجهودك في استقطاب ما نحن لسنا بحاجة إليه كان من الأولى أن تستقطب أفرادًا للانضمام إلى الدورة التدريبية.

- انظر إليها، نحن بحق بحاجة لها، ستجذب العديدين إلى التدريب.

أغاظها حماسه فصرت على أسنانها، وفارت أعماقها بغل وهي تقبض على بشاعة سترتها البيضاء بين يديها، وتشاهده يتجه إليها من جديد، أجل، ستفعل في هذا الرداء.

ولَيَّ الضي وهَمَى الليل بزرقة قاتمة على السماء معلنًا نهاية اليوم، فتخلصت من السترة وهندمت سروالها القماشي الواسع وكنزتها الصوفية الطويلة التي زينتها قلادة معدنية تحمل الحرف الأول من اسمها بالعربية، عدلت من وضع حجابها وحسّنت زينتها، وبقيت تلهج حلمها، لا تشاء الرحيل خاوية اليدين، لا يشغلها غير أن الليلة فرصة أخيرة لها، فمنذ الغد لن تبقى الأيام على حالها بانضمام تلك الفتاة إليه وما يمكن أن يحدث بينهما، ولن يكون عليه حرج!

فرغ "محمود" من حديثه مع الغيداء، ومع اقترابه من الشباب أطلق بعضهم صفيرًا مشجعًا، وصفق "باسم" بجذل فرحًا بعودة الدون جوان منتصرًا، فاتجهت هي إليه بتصميم واضح، ولم يفلح تحذير "سلمى" في إرجاعها عن حديثها إليه، سألته بحدة في مواجهته: "محمود"، لماذا أطلت الحديث عن النشاط مع تلك الفتاة وهو الأمر الذي ناقشته معي

فيما لا يزيد عن خمس دقائق؟!

- هل ستخطئين فهمي بدورك!!

لانت ملامحها على الفور كأنما كانت مهيأة لذلك وهمست ببسمة مذنبة: لا، حسن، لا تتضايق، لم أقصد، أردت فقط أن... "محمود"، لم تتح لي الفرصة لأخبرك كم أنا آسفة لما فعلته بك، أتمنى أن تكون متأكدًا أني لم أقصد ذلك أبدًا.

اغتمت عيناه ونفذ إلى خواطرها بنظرة متألمة: لا تتخيلين الألم الذي أصبتني به، كنت أشبه بسمكة ملقاة على الشاطئ، لفظها البحر خارجه بعدما فتحتْ عينها والتقطتْ أنفاسها الأولى بمياهه.

- لم أقصد.

- تلك الليلة يا "ضحى" بكيت كما لم أفعل من قبل، ولم تشرق شمس اليوم التالي إلا وكنت في طريقي إلى الإسكندرية، بقيت هناك مُصْمَت النظر إلى البحر الهادر العنيف ودموعي كرذاذه البارد تسابق أمواجه الهائجة وهي تصطدم بالصخور.

- "محمود"، أرجوك، أنا بحق نادمة.

- لقد أحببتك بحق يا "ضحى" وتمنيتك و...

- وأنا أيضًا أحبك.

توقفت الكلمات في حلقه وتطلع إليها وفي عينيه مفردات من الذهول، فأردفت بأنفاس متلاحقة: أول مرة أنطق بها، أجل، أحبك، ولا تسألني كيف أو متى أو حتى لمَ، فليست لدي إجابة مقنعة.

سيطر بالكاد على تخبط مشاعره حيال كلمة طال زمن توقه إلى سماعها، وتساءل: منذ البداية وأبعدتِني لتخوفك!!

- لا، أنا حقًّا لم يتخطَ شعوري نحوك وقتها الإعجاب.. أما الآن..

توقفت قليلًا عند مشاعرها مبتسمة ثم أضافت بعفوية: كنتَ حملًا ثقيلًا على كاهلي، كنتُ مرتعبة أن أقع في هواك لكني فعلت، أنت الأول، لم يسبقك أحد إلى قلبي.

- أعرف.

ابتسمت بزهو: أعلم أن هذا يمثل لكم يا معشر الشباب شيئًا ضخمًا.

تنهد من قيظ اجتاحه فجأة فيما تقطعت أنفاسها، وإذا بها تتوه بين بحور عينيه اللتين جذبتاها إليها نحو الأعماق لتغرق دون مقاومة، في حين أردف بإعجاب لم يفارق نظراته إليها: أعشق نظرة عينيكِ.

رقصت أهداب عينيها شغفًا وفضحت ثغرها ابتسامة وَجْد وألم لذيذ يقبض معدتها، قلبها يرتعش من فرحة لم تظن أنها ستحط عليها بين هاتين العينين، أيقظها من نشوتها بغتة: لا تلتفتي إلى الخلف لكن "سلمى" تقترب.

تحذيره ثقب فقاعتها الوردية فملأها العادم والغبار، وانتفضت و"سلمى"، عملها الرَضِيُّ، تضع يدها على كتفها وترجعها إلى الواقع بإصرار: ألم يحن موعد الذهاب بعد! الوقت تأخر.

- سأودعه فقط، انتظريني قليلًا وسآتي إليكِ، هيا اذهبي.

ابتعدت "سلمى" متبرمة، لتعود تسكن في أديم عينيه وتتمتم بحزن:

-يتعين عليّ الرحيل، سأراك غدًا يا حبيبي.

قالتها وسعلت بنوبة ضحك لم تعتد بعد على لقبه المحبب فابتسم وقال بنغمة هزت أوصالها: إلى اللقاء يا ضياء الكون، يا شمس النهار، اعتني بنفسك.

تذكرت اللمسة الأولى بينهما التي لم تتعدَ إشفاقًا منها عليه، فاستماتت على لمسة ثانية تودعها اشتياقها وغرامها هذه المرة، امتدت يدها بلهفة لمصافحته فانتهى بها الأمر إلى معانقة يده معانقة طويلة، ارتخى جسدها من قمة رأسها حتى أخمص قدميها وفقدت إيقاعه، كادت تقع على الأرض كحبات ناعمة من الرمل، لم تُفرِغها يومًا تلك اللذة! لم تشأ أبدًا إفلات يدها عندما احتضنها بين كفيه بحنان وربت عليها بأصابعه النحيلة، انعدم إحساسها بالمكان حولها وسقطت كحجر من حافة جبل في جاذبية عينيه، وكأن العالم قد توقف حولهما، لا ترى سواه ونجوم الليل المضيئة التي ارتعدت ولعًا بهذه اللحظة المغوية، لم ترد لها أن تنتهي لكن شأنها شأن ما شابهها من تلك اللحظات! ربت على كفها بيديه الاثنتين وهو يفلتها رويدًا رويدًا مودعًا.

كانت حقًّا لا تلوي معه على شيء، وبين ليلة وضحاها اكتشفت حماقة كذبتها بأن أمره انتهى لديها، شفى خرق قلبها وصار ينتفض لمرأى ظله على الأرض، فيما تتواثب فراشات ملونة تقرص معدتها بخفة، فتتأوه بلذة من الخدر العشقي الذي يصيب أطرافها كلما بادلته نظرة أو سرى همس صوته الشجي في أذنيها، كيف بحق الله صدقت أن أمره انتهى لديها! بل إن أمره لم يبدأ بعد!

-2-

تتهادى السيارة التي تحمل الفتاتين على متنها على مهل، بمحاذاة نهر النيل بمياهه الرائقة الساهرة في ليالي المُحَاق، تململت "سلمى" في مكانها خلف المقود، بدت كأن حملًا ثقيلًا يجثم على صدرها ويتهافت على اقتلاعه والهرب منه، حاولت "ضحى" أن تسلم من لسانها بغباء مرسوم ولامبالاة مقنعة على وجهها، متجاهلة نظرة وأخرى تقرعها بعينين تقدحان لومًا وعتابًا شديد اللهجة، ثم ما لبثت أن هتفت:

- "سلمى" صدقيني، أرى الآن أن هناك قبس من نور، ثمة فرصة ليست بالضئيلة أن يكتمل الأمر، "محمود" شاب يتمتع بروح إقناعية فذة، سيمتلك قلب وعقل العائلة في ثوان معدودة، ثم إنه لن يتقدم وهو على هذا الحال بل سيكمل دراسته وسيجد عملًا وبإمكانياته المادية ومستوى عائلته الطيبة ستقتنع العائلة وأولهم "نابر"، أنا واثقة، ليس من الضروري أن أتزوج عريسًا ديباجة حتى ينشرح صدرهم، يكفي أن يكون شابًا مناسبًا والأهم أن أحبه.

- ماذا دهاكِ؟ كيف تغير تفكيرك على هذا النحو؟

- هل تريدين أن ينتهي بي المطاف مع أمثال الطبيب كومبو ذاك؟!

أخذت "سلمى" نفسًا عميقًا ناقلة ناظريها بينها وبين الطريق وغمغمت:

-أنتِ طائشة.

obeikandl.com

- أنا سعيدة فحسب.

- سعادة مؤقتة للأسف.

لوحت بيدها متوسلة: قليل من التفاؤل.

- لست متشائمة، لا أريدك أن تتأذي فحسب ولا أريد كذلك أن أشعر بالذنب لإخفاء الأمر عن "ناير".

- سيحين وقت إخباره قريبًا، سأخلصك حينها من هذا الذنب، لا تقلقي.

تنهدت "سلمى" بشرود واضح فتساءلت "ضحى" بخبث يليق بحالتها المزاجية: ماذا بكِ؟ هل تشتاقين إلى "ناير"؟

ترددت لثوانٍ ثم أومأت متمتمة بإحباط: لكنه لا يشتاق إليَّ.

- كيف تقولين هذا؟! بالتأكيد يفعل.

- أفتقده حتى وهو إلى جواري.

ابتسمت بمكر: لهذه الدرجة تحبينه!

- لهذه الدرجة لا أشعر بوجوده، "ناير" منعزل في عالمه الخاص.

ينصت إلى ثرثرتها بلا تعقيب، وينظر إلى عينيها لكنه لا يراها، ويتلمس يدها في شهوة حب لكنه ليس موجودًا معها حقًا، تشعر أنه يتعرى من روحه أمامها وكأنه يخلعها قبل لقائها!

اتسعت عينا "ضحى" وقد أدركت مغزى حديث رفيقتها، فهو ذاته الذي يمليه عليها شعورها نحو "ناير"، هي بدورها لا تشعر بوجوده،

حتى في أوقات تشدده معها تظل روحه هائمة في عالم خاص وما تبقى من جسد جامد لا يشفي أنين حاجتها إليه، تفتقده ولم تشعر يومًا بأنه يبادلها الشوق، طيلة الوقت تشعر أنهما كشقيقين بينهما ميعاد، لكنهما يفترقان في كل مرة قبل اللقاء، كأنهما غير صِنْوَين!

تمتمت: لستِ وحدك يا "سلمى".

وتبعثرت نظراتها الدامعة مردفة بحروف متهدجة: فقط أتمنى أن يكف عن الجمود الذي يظن أنه يحميني به، يكف عن المسافة التي يضعها بيننا بدعوى مسؤوليتي منه، كل ما أحتاجه منه أن يصادقني ويتبسط معي.

أوقفت "سلمى" سيارتها على جانب حينما عجزت عن مواصلة القيادة جراء عبرات جارية، دست نفسها بين ذراعي "ضحى" وكومت شعرها تبعده عن وجهها مغمغمة: وأنا أتمنى أن يبادلني الشغف فحسب.

رانت هَدْأة مطبقة على رغبة فتاتين تتلمسان روح رجل آفل، ولم يقطع سكون الرغبة شيئًا.

***

أنزل "ناير" أوراقه الرابحة على الطاولة وتراجع مسترخيًا باستمتاع في مقعده، أتى كعادته على صديق آخر، منافسًا غشيمًا في اللعب، لم يكن له غريم سوى عمه، بينهما كانت لعبة ليس فيها من سر، أوراقها مكشوفة على الطاولة، ولا رهان على فائز حتى وإن كان مُتوَسمًا فيه جدارة الفوز! لعبة كتلك لم تكن لتضع أوزارها وكلاهما على قيد

الحياة، النتيجة الحاسمة كانت في موت أحدهما، وفي عزاء رحيل عمه عن دنياه قبل سبع سنوات! شيعه بالمسارب ووجع آثار مضاربه على بدنه وروحه، بكى كما لم يفعل على أبيه، حتى أشادت به العائلة لترفعه عن الإساءة المعلنة، حسبوه نسي سوءاته ويذكر محاسن الميت، يترحم عليه كما يليق بابن بار!

هيهات، لم تحزَّه وفاته بحال، أمَضَّهُ فقط تزامنها مع بلوغه الحادية والعشرين من العمر حيث كانت جولة جديدة من اللعب مع الكبار، كانت خططه كلها للوقوف في وجهه واستعادة أمواله من تحت يديه، لكن القدر أرضخه لتدابيره وأعفاه من مُنَاوَأة عمه الذي كان فيما يبدو مُشحِذًا أنيابه ومخالبه لولا أن ران عليه الموت، حارمًا ابن أخيه من الحياة بدوره، فما من قصاص ممن حَمل ذنبه في عنقه! لذا وإن لم يمت له أحد يعرفه ممن سقطوا في المشهد السيأسى، غير أنه احترق من دمائهم التي بردت وأثلجت ولم تَطُل مُسفِكها يد بعد، احترق كما لو أن من ماتوا جميعًا من نسله! فمن أظلم ممن افترى ولم يقاص! وهو خير من يعلم.

يهيل على صدى الماضى ترابًا ليسك القبر عليه ويرحل، لكن هوة بلا قرار لن تسدها ولو أطنان من الرمال تُرجعه عنوة إلى قديم الزمان كلما حانت منه التفاتة إلى قعرها، يومًا أراد قدرًا من نصيبه من حارس الخزانة، مبلغًا من المال لشراء سيارة صغيرة تناسب سنه وتعينه على احتياجه إليها،

حدجه عمه باستنكار في بادئ الأمر ثم صرف نظره عنه ولوح بكفه

بلامبالاة:

- ليس بعد، أنت لا زلت صغيرًا.

- أنا في التاسعة عشرة من عمري يا عمي وقد استخرجت رخصة قيادة بالفعل!!

- كيف تفعل هذا بدون علمي؟! كان يجب أن تستشيرني أولًا، عقابًا لك لن أعطيك شيئًا.

حدق بوجهه بذهول لبعض الوقت ثم سأله ببطء: هل كنت لتعطِيني المال لو استشرتك أولًا، هل كان جوابك ليتغير عما هو عليه الآن؟

هز رأسه نفيًا ومط إجابته مغيظًا إياه: لا.

زفر "ناير" بنفاد صبر وصاح: كنت أعلم هذا، عمومًا أنا لا أطلب شيئًا منك أنت، هذا إرثي ونصيبي من مال أبي، فلتعطني ما يلزمني لشراء سيارة من فضلك، أظن هذا من حقي.

- أيها الوقح!! كيف تتحدث معي بهذه الطريقة؟!

تساءل بعنف قلما يتمكن منه: بأي طريقة إذن سأحصل على مالي؟!

- لن تحصل عليه بتلك الطريقة ولا بغيرها، سألقنك درسًا لن تنساه يا "ناير"، أنت محروم من نفقاتك، وحتى حصتك من مصروف المنزل سأقتطعها، فلتعش عالة على أمك وشقيقتك أو لتجد عملًا تنفق به على نفسك ودراستك حتى تتعلم كيف تتحدث إلى عمك.

ناظره بقهر ثم رفع إصبعًا في وجهه بتحدٍّ: أنت تدرك أن هذا لن يستمر طويلًا، الأعوام تمر بسرعة، سرعان ما سأبلغ سن الرشد وحينها

سأحصل على مالي وحقي كاملًا وسأتصرف فيه كما أشاء، ولن تكون لك بعدها كلمة واحدة.

قهقه بسخرية وقال باستفزاز متهكم: لا تعتمد على هذا، يبدو أنك لا تعرف عمك جيدًا.

ما كان يعرفه "نایر" فعلًا أن كل ليلة على قيد حياته كانت بمثابة موت محقق له هو، لردع هجمات مسجونة على طرف لسانه، لكنه كان مضطرًا كشقيقته، كم تمنى أن يجأر بما تنضح به عروقه! يقف أمامه يواجهه بوحشيته في معاملتهما، بحرمانية ملكيته لأفكارهما ومشاعرهما وقراراتهما فقط لأنهما يحملان اسم شقيقه! بمبالغته في تجسيد دور الإله الذي لا بد أن يُحمَد على نعمه التي يعتقد أنه يغدق بها عليهما، ولا بد من خشية عقابه وحرمانهما منها، لمَ لم يفهم أن ليس عليهما التهليل فرحًا عندما ينفق عليهما من أموال شقيقه التي عُين واصيًا عليها حتى يبلغا سن الرشد! ليس انتصارًا كبيرًا له! ولم يتوجب عليهما الخوف أن تزول عنهما بأمر منه هو! إنها أموال والدهما رحمه الله وإرثهما هما بحق الله!

نسي "يسري" نفسه في سلطان ليس دائمًا له ولم يُعيَن فيه إلا لصالحهما الذي لم يبتغِ فيه مرضاة الله ولو لمرة! وإن كان "نایر" مخلصًا لذكرى عمه لأسبابه الخاصة، فإن "ضحى" تمتن كثيرًا للموت أن أخذه من بينهم فلا تعد تذكره، لا تنسى أن سُألت قديمًا من ابنة عمتها "عندما يحسن العم "يسري" الصنيع، ألا يعلق بذهنك!" فلم تدرِ إلا وهي تجيبها "ما يعلق بذهني حقّاً أن هذا أقل بكثير مما عليه أن

يفعل لنا، ما يعلق بذهني حقًّا أنه لا يجوز له إن صدر منّا ما لا يروقه أن يمنعنا عن حقوقنا" واأسفاه!

أوقف عدادها لرصد حسناته وعندما كان يصدر عنه إحداها يتوقف فقط حينها عداد سيئاته عن احتساب جديد!

تخيل لو أن البذرة التي غرسها فيك أقرب المقربين وما يستدل عليه فيك والنشأة التي أرادك عليها، أن تتخلى عن آمالك وأحلامك وأفكارك وتدوس على مشاعرك، تصد عن المطالبة بحقوقك، تُستذَل حتى تحصل على مبتغاك ولا تناله في كل الحالات! أهذا بدرس قيم تُقدَم به للحياة! والأدهى أنهما فعلا، تجردا من هويتهما أمامه ولم ينطقا بحرف يمثل هوى له، لم يصّرا على أحلامهما، لم يعترضا على أنه صاحب القرار الأول والأخير في كل ما يتعلق بشأنهما أيًّا كانت تلك القرارات وأيًّا كان تأثيرها عليهما.

أن تَعزف عن كل ما يعتمل بصدرك، كل ما يمثلك أمام نفسك والعالم وتتحول إلى أحد غيرك، تختفي هويتك الحقيقية التي تناجيها فقط في الأحلام أو بينك وبين نفسك، ستتألم، لأنك قطعت خطوات لم يُخلَق اجتيازها لك، وتتعب، لأنك انحزت إلى شيء آخر غير مبادئك وخالفت ضميرك، وكان أولى ألا تفعل وأن تقدسهم، إذ إنه الموت لك كل ثانية لأنك في الواقع لا تعيش مع سواهم! لكن ليس ثمة مفر من الصمت، ليس لأنه أبلغ من الكلام بل هو أجدى، لا مفر من ارتداء قناع يخفي وجه الحقيقة وما خلف الحقيقة، من المذهل أن يكون أحيانًا الصدق خطيئة والكذب حسنة يثاب عليها!

هكذا شعرت الأسرة بنفحة من نفحات الجنة على الأرض عندما باتت صاحبة أمرها بوفاته، لا مزيد من الإهانة، لا مزيد من التحكم، لا مزيد من الصمت، لم يصدق أحدًا منهم نفسه لفترة كبيرة من الزمن ولم يعتقد أيهم أن بإمكانه فعل ما يشاء، الله بمشيئته وقدرته أراد أن ينعم عليهم بتلك النعمة المجيدة كرسالة يخبرهم فيها نتيجة صبرهم واحتسابهم أجرهم عنده، يخبرهم أنه معهم وها هو قد أنزل رحمته عليهم! فإن حُرموا من أب إلى جوارهم فعلى الأقل لم يعد هناك طاغوت في حياتهم. فكان الوقت للرحيل حينها، كما أرادت "كوثر" منذ زمن، إلى ديارها، وافقها ولديها لأسباب تختلف عنها فلم يكن لمسقط رأس والدتهما عليهما ذات المعنى العاطفي لديها، بل كان موطنًا للحرية ورمزًا لفك القيد الملتف حول العنق لسنوات عديدة.

وبقدر روعة أرض الحرية لم يكن سهلًا على الشقيقين الانتقال من ديارهما! ربما لم يبكيا مطولًا على تشييع أيامهما فيها، فبعد رحيل والدهما لم يعد لهما ما يمكن أن يدمعا عليه وهما يغادراها، لكنها تبقى ديارهما بعبق يُود الشاطئ ولوعة الذكرى! وكانت "ضحى" تعد وقتها الأيام بين حريتها وبين ولعها المكبوت بشاب زميل لها بالدراسة، فبات العداد يصب في صالح الحرية مؤكدًا لها دوام التضحيات الصغيرة، فلا سعادة بلا ثمن مدفوع مقدمًا، فضلًا على أن وله فتاة في الخامسة عشر من عمرها لا يبقى أمام دورة الزمن!

***

تَنَاهَب "ضحى" الوَجْد لرؤياه إياها بهذه الطلة المختلفة عن مظهرها المعتاد، بعدما حاولت أن تكون على قدر المنافسة مع ذات الرداء الأسود المثيرة، بإرتدائها سروالًا ضيقًا من قماش الجينز الفاتح وسترة سوداء قصيرة من قماش القطيفة القطنية تصل بالكاد إلى خصرها، ولم تخب توقعاتها عندما أثنى "محمود" على أناقتها وأبدى إعجابه بما يرى، فضحكت وهى تضربه بقبضتها بخفة على كتفه في شيء من الخجل، فيما خمن وهو يشير إلى حجابها الذي تعددت طبقاته بين الأحمر والأبيض والأسود مشكلًا علم مصر أن تكون قد نسقت حجابها بهذا الشكل من أجل مباراة المنتخب التي ستقام هذه الليلة.

المسافة بينها وبين ذات الرداء الأسود تغيض، وطول شعرها يضوّعه الهواء لتبدو بشرتها ناصعة البياض واضحة خلف فتحة سترتها الحمراء الواسعة وأكمامها شبه العارية، لعنت حظها العاثر الذي يضطرها أن تتركه لها لضرورة حضورها لاجتماع مع المشرف على خطة بحثها عن موضوع تناقشه في رسالة الماجستير، تهيأةً لإتمام خطة البحث تلك لعرضها على مجلس الكلية فور إجتيازها سنة التمهيدي.

قالت بامتنان قوي قبيل مغادرتها: حلمت أمس أحلامًا سعيدة بفضلك، لا تتخيل كم كانت ليلتي جميلة بك.

- يسعدني سماع هذا.

لوحت له مودعة بخيبة أمل، تمنت أن يجيبها بما هو أكثر!

عقارب الساعة تشير إلى أنها لم تتغيب أكثر من بعض دقائق، لمَ تشعر

إذن كأنما مر عليها يوم أو بعض يوم بعيدًا عنه! اتسعت ابتسامتها عندما رأته واقفًا وحيدًا بلا منافس يحوم حوله، توجهت إليه مسرعة وتشاركا الحديث والضحكات التي توقف بعضها في حلقها عندما وضعت ذات الرداء الأسود يدها على كتفها، تسألها بجرأة إن كان معها أدوات زينة لتستخدمها في رسم العلم.

ابتسم «محمود» في مواجهة نظراتها المتسائلة، وقدمهما إلى بعضهما البعض بصفتهما العملية، انتظرت أن يكمل لكنها توقعت مسبقًا ألا يفعل، فالأمر لا يزال في بدايته ولا يمكن إفساد خطواته الأولى بالعلانية، فاكتفت بما قاله وأخرجت من حقيبتها بتلقائية ندمت عليها فيما بعد كحلاً أسود وطلاء شفاه أحمر وظل عين أبيض، اقترب منها «محمود» سائلًا أن ترسم له علم مصر على خده، حدقت لوهلة في عينيه بدهشة منزعجة، كيف لها أن تضع يدًا على وجهه وترسم عليه أمام كل هذه الجموع! لا تظنه أمرًا يليق بفتاة مهذبة! ولا تريد لأحدهم أن يتفوه بحرف عنها.

تمتمت: لا أستطيع.

فوجئت بـ «سمر» تلك تنتزع منها الأدوات لتفعلها بدلًا عنها، فمال نحوها فورًا ولم يبدُ عليه أنه يرى في الأمر خطبًا ما! لم ترد أن يرى اتساع نافذة روحها ذهولًا فابتعدت على الفور، وخيبة الأمل تقتات على حبها الوليد، غدوات وروحات دون أن يبادلها حتى نظرة، وقف إلى جوار تلك الفتاة وكأنها خيمة نصباها سويًا يرسمان لكل من يرغب علمًا بأدواتها الخاصة، ويلتقطان الصور سويًا وهما يرفعان علم مصر القماشي!

تعج أفكارها بالعصي على التصديق، كيف يلازم هذه الفتاة طيلة تلك الفترة دون أن يعيرها هي أدنى اهتمام! جذاب هو في عيون كل الفتيات الجميلات اللاتي يتقربن منه طوال الوقت، تعرف، لكنها ليست بأقل منهن، يكفي أنها هي من يحب، أليس كذلك! الغيرة تشق طريقًا وعرًا لديها، أم هي الخيبة من نفسها وهشاشة أثرها في نفسه ليتجاوزها بهذه السرعة! وهل فعل؟! لم تتوقع هذا قط! لكنها فعلًا لا ترى أي إمارات حب عليه!

أليس هو من تربص مرارًا بهاتفها الصيف الفائت ولم تشأ هي الرد وقتها! حاق بها الذنب فإن فعلت فكأنها تنتهز ثقة أسرتها فيها وتمارس جرمًا غير مشروع، وبات يضج هاتفها باتصال العاشق ويثقله برنينه طيلة ليالٍ حتى تغلقه تمامًا! كان يودعها شوقه «أوحشتيني» فيخور قلبها عندما يطرقه مزيج الحاء بالشين! وتنفرج شفتاه بشغف وهو يتطلع بحدة إلى اكتناز شفتها وبندق عينيها ويغازلها «كم أنتِ جميلة! كيف لكِ شفاه هي الأشهى في الكون بلا منازع؟!»

لا يمكنها الانتظار أكثر مما فعلت، كل لحظة تمر الآن تهينها، يجب أن تشد رحالها فورًا، اتجهت نحوهم بالفعل ومدت يدها تلتقط أدواتها التي وضعتها تلك الفتاة بإهمال على أحد الأرصفة، ورغمًا عنها، ربما طمعًا في شيء من الأمل تقدمت منه مودعة، ابتسم مودعًا بدوره دون اهتمام أو ذرة فضول لانصرافها المبكر! كادت الدموع تترقرق في عينيها الحزينتين، وتسارعت أصابعها على أزرار هاتفها المحمول في رسالة نصية لائمة وجهتها له، فقد انعقد لسانها أمامه ولم يستطع أن يفي بما

يعتمل في صدر نحيل وقلب ينعى بحزن انكساره الأول!

كم تُفرِغها الخيبة في قالب ذكرى قديمة! ذكرى اقتحامه منامها بحلم كان هو بطله، حلم خافت أن تعيشه حتى لا تصحو على كابوس، رسم أمام عينيها نعيمًا بألوان زاهية ودعاها للانضمام إليه فباتت ترفض دعوته، هربت من الجنة خشية أن تغدو جحيمًا تخدعها ألوانه النارية!

كانت في أواخر سنتها الدراسية الأخيرة في الكلية، التحقت وقتها بدورة تدريبية في الاقتصاد تقيمها الجامعة، وكعادةٍ مؤخرًا لازمتها دارت عيناها بالقاعة المستطيلة ذات الجدران البيضاء التي رُصت بالمقاعد الخشبية، لا كي تنتقي أحدها بل لترى أي المقاعد قد يكون أقرب إلى شاب جذاب! مطت شفتيها المكتنزتين بإحباط عندما لم تجد ضالتها، سيكون تدريبًا مملًّا خاليًا من أي نكهات مثيرة إذن!

جلست على أي حال على أحد المقاعد الأولى، ونفضت عن ذهنها الأفكار المراهقة التي تتلاعب به واستغرقت تمامًا في متابعة الصف، وبينما تنقل بصرها بين المدرس ودفترها الذي تدون به الملاحظات الهامة، ارتطمت عيناها بذاك الشاب الذي سلط نظراته عليها، اختلجت شفتاها قليلًا وحرارة تعتلي وجهها، خفضت بصرها بسرعة إلى دفترها وابتسامة خفيفة تمرق على شفتيها، أعادتها تلك اللحظة إلى ولعها بزميل دراسة قديم كانت تهيم به في مراهقتها، مرت عليها أكثر من ست سنوات لم تشعر فيها بذاك توتر وهكذا مشاعر مختلجة.

رفعت نظرها من جديد إليه، لم يبدُ أنه طالب مثلها، كان واقفًا إلى

جوار المدرس يعد له بعض الشرائح الإلكترونية استعدادًا لعرضها على جهاز العرض الآلي، جذبها لونه الخمري وثورة شعره الأسود، تتدلى منه خصلات قصيرة ناعمة على جبينه، عيناه سوداوان واسعتان أسرتا اهتمامها بأهدابٍ كثيفة وحاجبين كثين، ملامح وجهه دقيقة أضفت عليه براءة لم تستطع مقاومتها، قميصه خفيف باللون الأسود فُتحَ أول أزراره، تتبدى من تحته شعيرات صدره النحيف الذي تزينه قلادة من الجلد الأسود، فيما أظهر سرواله من قماش الجينز نحول ساقيه الطويلتين. تنحنحت بصوت مسموع محاولة بشدة إعادة التركيز بالصف لكن هذا بدا لها مستحيلًا!

أنقذتها فترة الاستراحة، خرجت من القاعة بحثًا عن بضعة أنفاس خالية منه، غير أن الهواء كان عابقًا بأفكارها به، لمحته عند عودتها إلى الصف، كان واقفًا إلى جوار فتاة شقراء جميلة، خُيِّل إليها أمارات سعادة على وجهه حالما لاحظ تقدمها نحوهما، ورغمًا عنها تحسست حجابها باللون الكريمي وهندمت ثوبها القطني الأسود الذي زينته فراشات كريمية مطبوعة، تُرى هل تبدو أجمل مني؟! تلكأت في مشيتها إلى جواره وبمشقة تركته متوجهة إلى الصف، ولحسن حظها انضم إليه على الفور وظل ملازمًا له طيلة الوقت الذي تبادلا فيه أكثر من نظرة مَغْوِيّة!

في الصباح التالي وجدته بانتظارها، ملوحًا لها أن تقترب في بادرة منه لطرق الحديث إليها، أوقفها سائلًا عن اسمها.

- "ضحى".

أطلق صفيرًا منغمًا خافتًا: ما أجمل اسمك الذي يشع من بين حروفه ضياء الكون!

تخضب وجهها بحمرة برتقالية كشمس الساعات الأولى من النهار التي يتلون بها اسمها، فأشار إلى صدره بتواضع وقال: وأنا "محمود".

ثم تنحنح مردفًا برجاء: "ضحى"، أحب كثيرًا أن أتعرف إليكِ عن قرب.

- لماذا؟!

حدجها بنظرة بلعت معها ريقها بصعوبة وهو يجيب: لأنكِ تعجبينني.

تسمرت ملامحها لوهلة واضطربت أنفاسها. ما هذه الحدة في التعبير عن مشاعره؟ كيف استطاع أن يقول هذا بكل هذه البساطة! ألجمتها كلمته فهيأ له صمتها أن يقول المزيد: "ضحى"، أنتِ فتاة مميزة وأريد..

قاطعته على استحياء: هل تريد أن تتقدم لي؟

بدا مشدوهًا وهو يجيبها بارتباك طفيف: هذا ليس مستبعدًا، إنما ليس الآن قطعًا، أريد أن نوطد علاقتنا أولًا.

- لكن أنا لا أرتبط عاطفيًا! أخلاقي وعائلتي لا تسمحان لي بذلك.

- لماذا؟! لماذا تغلقين الأبواب أمام الحياة لتريكِ أن بها الكثير مما تتمنينه؟! أتمنى أن تتيحي لي أن أفتح أمامك تلك الأبواب الموصدة.

- آسفة، لا أستطيع.

لم يتمكن من مواصلة حديثه عندما قاطعه رفيقه مقدمًا لها نفسه: -مرحبًا، أنا "علي".

ابتسمت بتثاقل: تشرفت بمعرفتك، أنا "ضحى".

قال "علي" باستنتاج بديهي ماكرلم تتوصل إلى مغزاه وقتها: "ضحى"، أنتِ طالبة بالدورة التدريبية، أليس كذلك! هل تدرسين في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية؟

- أجل، بالسنة الرابعة.

تمتم "محمود" مشدوهًا: بالسنة الرابعة! اعتقدت أنكِ بالسنة الأولى، تبدين يافعة جدًّا.

فسر "علي" شحوب وجه رفيقه: نحن من منظمى الدورة التدريبية، أنا تخرجت في كلية الحقوق العام السابق وأعمل بدوام جزئي بمكتب محاماة، أما هذا الفتى فلا يزال بالسنة الثالثة بكلية التربية الرياضية، فقد اعتاد التخلف عن سنواته الدراسية.

حان الوقت لتعتلي وجهها دهشة مطلقة، ياإلهي! لماذا جذبتني إليك وأنت لا تصلح لي على الإطلاق! غادرتهما مسرعة ولم يفتها أن تلحظ تأنيب عينيه لها، تبًّا، عائلتها شأنها شأن أي عائلة عربية تريد لابنتها عريسًا كامل الأوصاف، لن تقبل زوجًا بهذه المواصفات، لن ترضى لها بشاب خائب في دراسته ولم يزل يدرس وحتى مستقبله المهني لن يكون ممتازًا! وهى بدورها لم تكن تبحث عن قصة حب وكفى لتقبل به، بل تنشد ارتباطًا أبديًا، خاتمًا ذهبيًا يُكلل حبًّا أكيدًا، رسميًا وليس رهنًا لظروف غير مواتية له، تربت على أن كل رجل يتقرب منها هو عريس محتمل، يصلح لها أو لا يصلح، معايير محددة تتقن تقييمه بها وبناءًا

عليها تكون خطواتها معه! هكذا صار أمره واضحًا ولا يستأهل إعادة التفكير فيه.

لم تنكر إعجابها به وودت ألا ينتهي ما يمكن أن يصير بينهما، إنما رَدّتها "سلمى" إلى واقعها، أي علاقة تنشأ بينها وبينه تعرضها لبطش شقيقها لو وقع عليها، "ناير" سيحيل حياتها جحيمًا إن عرف بوجود شاب كهذا فيها، فبعدما بات المسؤول الوحيد عن شقيقته أصبح متشددًا معها، جامدًا، جافًا، كأنما يصر على ألا يتبسط معها حتى تبقى على خوف منه وحساب له، ربما كان هذا خوفًا منه عليها، أو حماية لها، أو حتى تنفيسًا عن سنوات من القهر، المهم أنه كان يفعلها بطريقة تثير حنقها وغضبها وتبعدها عنه، وكأنما لا يكفي الصمت الهائل بينهما طيلة عمرهما حتى يبعدها عنه بطريقة جديدة!

لم يذعن "محمود" ولم يترك منفذًا إلا وحاصرها من خلاله، بات مرابطًا أمام كليتها وفارضًا نفسه على هاتفها الذي انتهزه من استمارة اشتراكها بالدورة التدريبية، اختلط عزمه بحنوه فلم تدرِ أهو رجاء أم أمر، لم يقبل أي اعتراض، ولم تُبدِ فعلًا أدناه عندما سألها إلحافًا، وضربت له موعدًا للفرصة وتقدمت منه بخطوات رشيقة، كان يقف إلى جوار حقل من الزهور الملونة بحديقة الجامعة، أشار إليها "أنتِ أجمل زهرة بين كل هذه الزهور". انتشت بنفس عميق وكلماته تهز ذاك الوتر الأنثوي بأعماقها في حين أردف هو: أخبريني، كيف كانت ليلتك؟

تطلعت إليه لبرهة بعيون دامعة وقالت بخفوت: لم أتوقف عن البكاء.

- لماذا؟! ماذا حدث؟! هل من خطب؟!

- أنت.

- أنا خطبك!!

- لمَ لا تفهم أن هذه القصة محكوم عليها بالفشل قبل أن تبدأ؟ لا أريد أن أتعلق بك لأننا لن نكون سويًا في النهاية، أرجوك ابتعد عني، لا أريد أن أتأذى، دعني أفعل الصواب دون مخاطرة.

هز رأسه بضيق وتساءل بغير تصديق مشككًا في قناعاتها: وكيف تعلمين أن هذا هو الصواب يا ذات الأفق الضيق! ما أدراكِ وأنتِ قد عزلتِ مشاعرك تمامًا وتمسكتِ بفكرة أن هذا الشيء لا يمكنك أن تقربيه وسحقًا لأي شيء آخر؟! هل يمكنك أن تجيبي بصراحة، هل أعجبك؟

لم تجب فواصل بحدة: هل أنتِ معجبة بي؟

أدارت بصرها للجهة الأخرى فأردف متوسلًا: "ضحى"، أجيبيني!!

قالت بنزق: أجل، لكني لا أرى مستقبلًا مشتركًا يجمعنا.

ثبت نظره عليها، فبللت شفتيها بلسانها وابتعدت عن عينيه اللتين حاصرتاها، ثم ما لبثت أن هتفت به متسائلة: ماذا هناك؟!

ضحك وهو يقول مغازلًا: وجهك ملائكي، هذا ما جذبني إليكِ، شعرت أنكِ طفلة صغيرة بريئة.

- أشكرك.

- أريد أن أخبرك بشيء لكن أخشى ألا تصدقيني.

- ولمَ لا أصدقك؟!

- لأني أعلم كيف تفكرين، ربما تظنين أني أكذب أو تحسبينني متسرعًا.

- لقد آثرت فضولي بحق، هيا، قل ما تريد.

لم يتفوه بحرف بل تطلع إلى الأرض دون جواب فزمجرت بنفاد صبر:

- بسرعة.

- "ضحى"، أنا أحبك.

حدقت في وجهه مشدوهة، أكانت كلمة تلك التي قالها أم نغمًا شجيًّا تغلغل عابثًا بخفقات قلبها المضطربة! هي التي لم تسمع كلمة غزل من قبل لم تدرك أنها تلين القلوب على هذا النحو! عجزت عن الإتيان بهمسة أو نظرة فأردف بلوم: أحبك يا "ضحى" رغم أنكِ لم تروي ظمأ مشاعري بكلمة عذبة.

غمغمت بنشوة : "محمود"!

كانت لحظة مثالية، غاضت عيناها في بحور ليلية تختزن دفء شمس النهار، غرقتا في أمواج غميقة متلاطمة بعمق حدقتيه، تسارعت دقات قلبها المرهف وازدردت ريقها بتوتر، يا إلهي! تلك الكلمة، أتفعل بي كل هذا! تمالكت نفسها الوجلة بصعوبة وخلال لحظات استعطفته للرحيل، لم يُبدِ اعتراضًا غير أنها لاحظت تجهمًا بعينيه، وأصر فور ما ارتفع صوت المؤذن من مسجد قريب: بحق هذا الأذان يا "ضحى" أحبك ولا أنوي أذيتك ولا أتعشم إلا بكل خير بيننا.

أيا "محمود" أليست الأيام بحق دَوَّارة! كيف انقلب الحال بنا؟ ما بال

الإنسان عندما يطبق على شيء بين كفيه يتمنى الفكاك منه، وحالما يتحول حلمه إلى حقيقة وينسلت الشيء الذي يهرب منه من بين أصابعه وينحل العقد، تجده يحاول بذعر جمع الحبيبات المتناثرة ليعيدها بتصميم إلى عقدها المنفرط!! وإلا فلمَ ما زلتُ تحت رحمة عينيك أن تبصراني من جديد؟!

***

في مقهى عصري أنيق في هِدْأة الليل، على طاولة خشبية مربعة مجاورة لنافذة المقهى التي انبعث من خلف ستارتها المنفرجة جزئيًا ضوء ضعيف شاحب، التفت "ناير" بقلق إلى شريكته في الجلسة التي غطت عينيها بغرة طويلة خبأت خلفها تورمهما: "سلمى"، كُفي بالله عليك.

احتدت عليه من بين دموعها: لا تقل لى كُفي، أتفهم! لم أقترف ذنبًا ومع ذلك تنزل عليَّ عقابك! لا أدرى لماذا تفعل بي هذا! يا لقسوتك! تهجرني أيامًا دونما سبب ولا تكلف نفسك زيارة أو مكالمة هاتفية! لم أدرِ بمَ أجيب أبي عندما تساءل عن غيابك، خالتك حسبت أن حدث لك مكروه، لا يعلمان أنك فقط تترفع عن الحديث إلي وأنك بين ليلة وضحاها قد نسيت وجودي ولا ترد على اتصالاتي، أجبني ماذا فعلت لك؟!

همهم باستياء: لم تفعلي شيئًا يا "سلمى".

صاحت ساخطة وهي تصوب له نظرة نارية: ما الأمر إذن، لماذا تفعل

بي هذا؟!

جز على أسنانه بحيرة: أتمنى أن أجد إجابة.

- ماذا! أيحق لك أن تتجاهلني وكأني لم أُوجد بحياتك وتستخف بأهلي بهذا القدر! وتنسى أني ابنة خالتك قبل أن أكون خطيبتك! وليس لديك حتى جواب لما تفعله بي!

شد على يدها بعزم: "سلمى"، أرجوكِ، تحمليني، أنا لا أدري من أمري شيئًا، أقسم لكِ.

ناظرته بذهول وعجز عارم عن الفهم، تلك اللحظة التي سبرت فيها عيناه أغوار قلبها لم يخيل إليها أبدًا أنه ستليها لحظة تشعر فيها أنها لم تكن له أكثر من وقت أمضاه ولا يذكره! كيف بعدما رقصت قلوبهما على أنغام الحب تتوقف الموسيقى فجأة وكأنها لم تُعزف قط! بل كيف يعيش على أكمل وجه بينما تتوقف الحياة من حولها في انتظاره!

***

صباح غائم غاب عنه أديم النهار واشتد برده، باغتها "محمود" بترحيب غزلي صرف وعيناه السوداوان الواسعتان مسلطتان على شفتيها، فزعت "ضحى" في البداية من هجومه المفاجئ عليها ولم يلبث شعور من الرضا أن تسرب إلى نفسها، لكنه لم يشفع للإهمال الذي ضيق خناقه عليها طيلة اليومين الماضيين فلم تهتم به، تقدم منها محييًا فبادلته تحية خافتة برأس مطرق وعينين تخرقان الأرض بنظراتهما منذ جاء، وما لبثت أن قامت من مجلسها حانقة، تبعها متمتمًا باسمها،

يستوقفها بينما تتقدمه بخطى سريعة فواجهته بعداء.

- ماذا تريد؟!

- حسن، هدئي من انفعالاتك قليلًا، أنا أعلم أنكِ منزعجة.

هتفت بحدة: هل وصلتك رسالتي؟!

- أجل.

- حقًّا!! ظننتها ضلت طريقها، حمدًا لله على سلامتها، لماذا لم تجبني إذن؟ أم لم تهتم؟!

- رسالتك كانت مشتعلة فما بالك لو حدثتك! ارتأيت أن أتركك لشأنك قليلًا حتى تهدئي.

تساءلت بعصبية: وهل تراني هادئة الآن؟!

- "ضحى"، ماذا تريدين مني أن أقول!!

- إن كنت لا تعرف من تلقاء نفسك فلا داعي لأن تقول شيئاً.

- "ضحى"خذي الأمور بتروٍ، أنا لست مستعدًّا حاليًا، أحدثك بصراحة، مشاعري نحوك مرتبكة.

صاحت بفزع: ماذا تعني؟!

- الجراح لا تلتئم بهذه السهولة.

- لكن!! لمَ ؟!!

تنهد بيأس ولم يقل شيئًا فاستجدته إلحافًا: "محمود"!!

- أنا الأول في حياتك، أليس كذلك!

أومأت بضعف فأردف: لهذا لا أريد أن أظلمك وأدعي أني قادر على مبادلتك الحب في التو واللحظة بينما لا أستطيع.

حدقت في وجهه مشدوهة، لا تدري بمَ تجيبه، وما استطاعت قوله أخيرًا بعد عناء مغالبة الجرح كان:

- "محمود"، ألا تحبني!!

- الأمر ليس بهذه البساطة.

صاحت بغضب ثائر: ماذا تعني بالله عليك؟!

لم يجب فعضت شفتها السفلى الممتلئة بأسنانها الصغيرة بتوتر، وسؤال يردده لسانها معاندًا ثورة الكرامة التي اندلعت محتجة على جَفْوَته: أشتاق لـ"محمود" القديم، أين هو؟

- ها هو أمامك.

هزت رأسها نفيًا مغمغمة بدلال: لقد تغيرت.

- لم أفعل، أنتِ توقعتِ مني فعلًا معينًا وعندما لم تجدينه ظننتني تغيرت.

تساءلت بعناد كطفلة صغيرة: ولمَ لا أجد منك هذا الفعل الذي أتوقعه!

- لأن الأمر ليس بهذه البساطة.

زفرت بضيق ممتعض: تواصل قول هذه الكلمة!

- لأنكِ لم تفهميها بعد.

- ماذا تعني؟!

- أنا آسف.

تمتمت بحزن: لا عليك.

تدفقت الدموع إلى عينيها بسرعة كبيرة اضطررت معها أن تَأفَل فورًا، مشيت عَسْفًا، تائهة، مذعورة، تهيأ لها أنها ستخوض ألذ مغامرة في حياتها بينما في الحقيقة تقاسي الأمرين! لم يُخيل لها أنها هي من ستعدو خلفه، ظنته سيكون في انتظارها، ظنته سيسعد بعودتها إليه ويقيم الأفراح أيامًا وليالٍ احتفالًا بها، ظنته سيراقصها بسعادة مودعًا بدون حنين كل الأيام التي فرقتهما، تخلت عنه سابقًا وعادت إليه متوقعة أن من تركته خلفها بإشارة منها سيكون طوع بنانها! متوقعة أن من أعرضت عنه سيتلقفها بين أحضانه سعيدًا بهذه الهبة من السماء ساجدًا لله شكرًا عليها! يا لغرور الإناث! لمن يشأ الصدق، تظنه محقًّا، ليس من الذكاء أن تتوقع قلبًا مفتوحًا بعدما أوصدت في وجهه كل الأبواب من قبل!

لم تفكر في سواه طيلة الليل، كله فائح بالألم، تنغزها حدة ألمه والجرح الذي نخرته بقلبه، كم أذنبت بحقه! كم مثلت بحبه ببرود قاس وجفاء متطرف! تجلى لخاطرها الصيف الفائت عندما هل هاتفها برقمه، تلك المرة التي عاتبته على مهاتفتها على غير اتفاقهما، فثار عليها مستهجنًا أنها لا تستهل حتى المكالمة بسؤالها عنه، مستغربًا قدرتها على مواصلة أيامها دون أن تسمع صوته أو تطمئن على حاله! في حين أنه لم يعد

يقوى على العيش كالسابق مع تذبذب مشاعرها نحوه.

استاءت من صراخه وصارحت نفسها بأنها لم تكن تمامًا على خطأ عندما لم ترَ به فارس أحلامها فقد شابه عمها في صراخه الغليظ، غير أنها عندما وجدت نفسها مقدمة على القول المحظور خانتها الكلمات وتبعثرت بوهن على لسانها، ثم عادت تستجمع قوتها، فلمَ عساها تخاطر بكل شيء من أجله وليس في المخاطرة شيء من الفائدة لأجلها؟!

كان بإمكانها أن ترخي حبل تأزمها تجاهه وتعيث بنفسها في هواه لكنها كانت مرغمة ألا تفعل، وما ردعها كان خنجرًا مسمومًا أوشكت أن تطعن به عائلتها وتخون ثقتهم فيها، ولم تكن لتغدر بأمها، من أفنت نفسها وكرست عمرها لها، لم تكن لتقدمها قربانًا لزخم الألسنة السليطة عنها فقط لتحقيق ما ليست واثقة حتى من رغبتها به! ما ردعها حلم أكثر منه وازعًا دينيًا، حلم خاص بها أقسمت أن تغير به الواقع حولها، والرجل الذي سيُحمِّلها اسمه يومًا ما، لم ترد أن تمنحه قلبها فتاتًا، ودت أبدًا أن تبقيه له سليمًا كاملًا لا تنقصه نبضة، وهي أدرى بنفسها، ما كانت لتستطيع التخلي عنه إن أحبته، ليست بقديسة ولا يمكنها أن تحرم نفسها مما ترغب به بهذا العنفوان، هو لم يستحق عناء المحاولة، فتوجب عليها أن تنهي الأمر تمامًا معه ولا تستسلم لأفكاره المغوية، فقد كان ماهرًا في اجتذابها نحوه كما يجتذب الضوء فراشة هشة، فتحترق عندما تحتضنه.

صارحته بغصة عالقة في حلقها ودموع مترقرقة في عينيها، فساد الصمت لثوانٍ تخيلت فيها وجهه متسمرًا من هول ما قالت، وما لبثت أن

لمحت الدموع في صوته عندما هدر بلوعة غير مصدق، بكت باضطراب فبكى بدوره وهو يستجديها بلهفة أن تعطيه فرصة وألا تتركه، حاول أن يبقيها صديقة له كي تظل بالقرب منه، لكنها مسحت دموعها بروية وتمالكت ضعفها بعزم ورفضت ووعدته بلقاء أخير لوداع لائق، فطلب منها باقتضاب مختنق أن تعده بالتفكير للمرة الأخيرة، كادت تخبره أن الأمر منته وأنها لن تعاود نبش مشاعرها لكن ارتأت أن كلمة "حسن" ستريحه وستنهي المحادثة دون مزيد من الدموع، وقد قالتها، ولم تفعل بها..سوى الآن!

***

آخر الليل دائمًا ما يأتي محملًا بالسوء لك، حين ينصرف عنك زخم الحياة وغوغاء الآخرين وتبقى لك نفسك، تعتصرك وتتوسدك في ليل طويل ينفرد بك! تستحوذ على خواطرك ومخاوفك.

لكم تريد "سلمى" أن تقصف عمر ما يثيره "ناير" داخلها من شكوك وهواجس تقضي ليلها منغمسة فيها، ألا تكفيها صباحاتها التعسة في مواجهته أمام ناظريها وأبعد ما يكون عنها!

أفردت وحدتها للهواء البارد، تهادنها في شرفة واسعة تحتضن مدينة جديدة ملاصقة للعاصمة انتقلت إليها أسرتها مؤخرًا، مخيفة في ظلمتها وصمتها وبردها، دلفت مسرعة إلى حجرتها وأغلقت النافذة على العالم الموحش، قررت أن توغل عينيها بين دفتي رواية تؤنسها وتخرجها عن طوره، لتنتفض بعد عدة صفحات من القراءة من حظها الذي تعثرها

في رواية مشعوذة آخر الليل كأنما ينقصها مزيد من الخوف! تفر منه وتدس نفسها في فراش شقيقتها، صغيرة تغط في نوم عميق باطمئنان استمدته منها ووالدتهما الغافية بدورها في غرفتها الخالية من سواها.

تتلمس "سلمى" من دفء جسد شقيقتها الوحيدة المستكين تحت الدِثَار ما تفتقده من أب ليس من عادته أن يبيت الليل في منزله وسط أسرته أو حتى يقضي معهم النهار، تفرقهما الأزمنة والأمكنة والمشاعر ويجمعها به منتهى الأمان، وجوده كفيل بألا تعبأ بأدنى هم أو خطر يحيق بها، وعدمه لا تغفل معه ولا يغمض لها جفن حتى مطلع الصبح، تتلمس من ألق المصابيح بعضًا من أمان مما تخشاه في الظلام، وما أشد ظلمة لياليها في غير وجوده وأيامها بدونه ليست استثناء، منذ وعت وهو يواصل رص النقاط على اللوحة حتى اكتملت صورة جَفْوَةٍ تخيلتها معلقة على جدار كل أسرة، أب يصارع بين طموحه وأسفاره وبين أسرته، والأخيرة لا تربح في أي نزال بمواجهة عمله.

تتصارع زهرتان في إناء واحد، زهرة ناعمة، يافعة، رقيقة الأغصان، هشة الأوراق، وزهرة متوحشة، عنيفة، شائكة الأغصان، غليظة الأوراق، ليضيق الإناء بالتحرش حتى تشققت التربة وأصابها الجفاف، المزيج النباتي غير المتجانس ليس متوافقًا ولن يكون يومًا، ينكسر الإناء معلنًا عن فصيل نباتي جديد تمتد فيه أغصان الزهرة المتوحشة خارج الإناء، الأوراق على شاكلتها تحط والنباتات تترعرع حينما تحتضن أوراق الزهرة أوراق الأخرى، وإلا فسيتهشم الإناء وتحكم على التجربة بالفشل، وهو ما كان.

جراح أثبت نفسه في مجاله، ناجح، ثرى، ذائع الصيت، مثاليته تلك تذيقه وحده الشهد وتخسره الكثير دون أن يشعر، تضعه في مراتب متأخرة لدى الآخرين لأنه هو نفسه يضع غيرهم في المرتبة الأولى، فترجح كفة ميزانه لنفسه عن الكفة التي تحمل لحمه ودمه، يقولون عنه إنه أب، اسم هو أم معنى! واقع أم إحساس! مثله لا يقوم بدوره كما ينبغي بل يتفوق فقط في فعل العكس، زوج رغم كل ما أهدته زوجته مما راعت أن يستهويه لم يبادلها بمثله أو يذكر معروفها، بل تمادى في الإساءة إليها متناسيًا أنها امرأة بحاجة إلى شريك حقيقي في الحياة، لم يكن زواجهما عن حب وإن لم يكن هذا بخطأ أو سبب في تهتك العلاقة بينهما، هو فقط كذلك وسيظل أبد الدهر.

وكم تخشى أن يصير "ناير" صورة مشابهة له! وأن تكون قد زجت بقدميها إلى حياة زوجية مماثلة! كأنما تعجّل برفع حاجتها، فمن الفَاقَة إلى المَسْغَبَة.. لا بها نالت حقًا ولا جزاءًا مكتسبًا!

***

ثمة سحر خاص يربطهما ببعضهما ولا تريده أن ينقطع، فقررت "ضحى" ألا تضغط على مشاعره وأن تلعب اللعبة بمهارة وتدعه يعود لها بإرادته وفي الوقت الذي يريده، وقد حرصت على أن يكون هذا واضحًا له، وهو ما ناسبه كثيرًا، فمنحته ابتسامة ممتنة وهي تغادره، أطرق "محمود" برأسه متابعًا ظلها المبتعد على الأرض، والتوى ثغره وهو يرفع عينيه إليها مطلقًا أفكاره في إثرها، مطولًا، تكاد تكون كاملة الأوصاف لا ينقصها إلا هو! أطبق على تلك الفكرة المغوية متشبثًا بها،

أيلحق بها وينسى جرح غائر في نفسه لم يصبه به أحد سواها! يفكر، ولم تزل احتمالات أخرى معلقة!

في حين انخرطت في حديث طويل مع "باسم" الذي صارحها بفشله الدراسي لولهه بالطرب وملاحقته حلم الشهرة، ابتسمت مشفقة: نوعًا ما لك الحق، فصوتك رائع وحلمك يستحق هذه التضحية.

- ليست لديكِ فكرة عن التضحية، أمس حدثت مشاداة هائلة بيني وأبي خرجت على إثرها من المنزل حاملًا حقيبة سفر.

- هل طردك والدك؟!

- لا يجرؤ.

- ليس من اللائق أن تقول هذا عن والدك يا "باسم".

- كم أنتِ بالغة الأدب يا "ضحى"! خرجت من المنزل بإرادتي طبعًا، سأقيم بعض ليال عند صديق، يجب أن أبتعد عن أبي لفترة، كلانا بحاجة إلى ذلك.

تساءلت بإشفاق: أهذا بسبب الغناء؟

- أجل، أبي لا يتفهم أنه ليس مقدرًا للكل أن يكونوا على شاكلة واحدة، ما الضير في الاختلاف طالما على قاعدة حقيقية؟ فأنا لا أسعى إلى معاندته ولا الخروج عن طوعه اعتدادًا بنفسي، هو أبي وله حق عليَّ، إنما لن أقف مكتوف الأيدي إحسانًا به وأدعه يزهق حلمي ويكتم صوتي من أجل دراسة لا تفيد ووظيفة روتينية مقيدة في دفاتر العاملين بالدولة! ماذا جنى أي منهم ليصبح تعليمهم وعملهم غايتي

وشغلي الشاغل! يقول لي كن واقعيًّا! هذا الزمن الحلم فيه أجدى طالما الواقع على أي حال ليس مقدورًا عليه أو مرجوًّا منه نفع، يجب أن يكف البشر عن تسيير من يقع تحت طائلتهم بما يتماشى مع مزاجهم الخاص لمجرد أنهم يستطيعون، وأنا لن أتنازل وسألتحق رغم كل شيء بتلك المسابقة الغنائية التي أخبرتك عنها، وليعد أبي هذه المرة التفكير في قناعاته المتحجرة ونظرته ضيقة الأفق.

- وفقك الله.

ابتسم ممتنًا وقال: ما رأيك لو أغنى لكِ قليلًا.

- وليكن، لقد صرت مدمنة على أي حال.

قاطعهما "محمود": يجب أن أغادر الآن، لدي مشوار، أراكما غدًا.

تمتمت بعينين حزينتين: إلى اللقاء.

ابتعد بطول ذراع بحيث لم يفصل بينهما أكثر من بضع خطوات، وتوقف ملتفتًا إليها حالما ضج غناء "باسم" عن فراق الأحبة، تلاقت عيونهما في نظرة طويلة نافذة تحوى كثيرًا من معان متداخلة، نظرة أرجفت قلبها العاصفة نبضاته وأهدت للأمل الذي كاد يخبو قبلة الحياة، حثته إليها بعينيها، تقدم، لا تخف، لا ترحل، بينما استشفت من نظراته أنه خائف، حائر، ليس بإمكانه أن يصرف النظر!

***

obeikandl.com

-٣-

اختلج قلب «ضحى» وكيانها يستقبل حضوره البشوش الذي هَلَّ عليها بعد تحية رفاقه، غزل نظراته يلتهم معطفها الأسود الصوفي القصير والسترة الأرجوانية القطنية الضيقة التي بدت من تحته، سروالها الجينز الملتصق بساقيها وحجابها المزركش بأزهار أرجوانية ناعمة، جلس إلى جوارها ملوحًا بإعجابه فانهالت على وجهه بنظرات وابتسامات متيمة، أمسك ساعدها وجذبها بحماس، اقتادها بعيدًا عن الرفاق بشغف بادٍ وهو يمد يده لها بمشغل الموسيقى الخاص به الموصل بسماعة الأذن.

- ضعي هاتين في أذنيكِ واستمعي إلى هذه الأغنية ريثما أذهب لأجلب الشاي الصباحي المعتاد.

- حسن، «محمود»، هلا تحتفظ لي برشفة من الشاي.

وضعت طرفي سماعة مشغل الموسيقى في أذنيها وضغطت على زر تشغيل أغنية هزت بلية مشاعرها، شدو حنون حازم يعد حبيبته أنه لها وحدها وسيكون لها كل ما تريد وإن ابتعد عنها قليلًا غير أنه عاد إليها ولن يفارقها أبدًا، فتشت بعينيها الدامعتين عنه حتى وجدته مقبلًا عليها مادًّا يده بكوب الشاي، تطلعت إليه بحيرة وقلب يزدرد خفقاته، تناولت منه الكوب ونفخت فيه قليلًا ثم أخذت رشفة عقبت عليها بمرح وهي

تعيد الكوب إليه: حاولت أن أشرب قبلك لتسعى خلفي طول العمر.

ابتسم مشيرًا بإصبعه إلى المشغل الذي ما زالت تحمله بيدها: هل استمعتِ للأغنية؟

أجابته بانبهار لاهث: جميلة.

تناول منها المشغل قائلًا برقة ونظراته تخترق قلبها الهش: هذا ما أشعر به.

استطرد: لكن يبقى الوضع على ما هو عليه.

قبل تفوهها بما تنتفض به مشاعرها أنبأها بما يقدر عليه في الوقت الحالي، لكن غموضه لم يكن موفقًا فلم تفهمه في لحظتها وربما هو كذلك لم يفهم أي وضع يقصد! فيما كانت هي تبذل مجهودًا جبارًا في إخفاء مشاعرها التي كادت تقفز من بين أضلعها، ولتهدئ من انفعالها اقترحت عليه بتريث مصاحبته لإحضار إفطارهما، سارت إلى جواره تشع بفرحة عارمة بمراقبتها وجوه كل من يعبر أمامهما وإلى جوارهما، متمنية أن تهتف بهم بعلو صوتها "هذا حبيبي وأنا حبيبته".

- أتعرف! لطالما تمنيت أن أكون الأولى في حياة حبيبي أو على الأقل ألا يكون تاريخه مليئًا بسوابق عاطفية متعددة لكنك خيبت أملي فقد أخبرني "باسم" بالحقيقة كاملة.

- أكان يلصق بي تهمة ذاك الخائن!

- كان يدافع عنك بما هو ليس مقنعًا، لكن بحق ألست متهمًا!!

قال وهما يجلسان على مقعدين من البلاستيك أمام المقصف: الأمر

لا يخلو من بعض حماقات الشباب حتى نتقن الأمر فيما بعد وهذا سيعود عليكِ بالنفع يا قمر.

صدمتها جرأته فصاحت بغضب ووجه متخضب بحمرة واضحة: أنت وقح.

- انظري إلى وجهك تعتليه السخونة! لقد أصبح كجمرة ملتهبة! فلتعطِيني قبلة.

ضربته بخفة على كتفه فتأوه مبتعدًا: حسن، سأذهب لإحضار الإفطار، لا أستطيع تمالك نفسي أكثر.

قهقهت بعنف، غير مصدقة تدفق مشاعره في مجراها! ومحبَطة من قدر العبث الذي بلغه مع الفتيات! قدر الحماقة الذي لزمه كي يتقن الأمر! أي نفع سيعود عليها وحبيبها ليس عفيفًا! ولا يجد غضاضة في أن يتعلم بطريقة حرمها عليه الله وإن أجازها له المجتمع!

- هل تعلم أني لا زلت أحتفظ بسوارك!

فى آخر اليوم كانت قد مددت قدميها إلى جواره على سيقان الحشائش الخضراء، في أرض عريضة من الصمت المتبادل بين العيون، قطعته بتصريحها المزهو به فابتسم بامتنان، وأفرجت هي عن شغفها بعد لحظات من الصمت المغوي: كيف تخيلت فتاة أحلامك يا "محمود"؟

"كل ما أنتِ عليه عدا علامة غائرة منك في نفسى" لم يقلها لها قط، فقط تنقلت عيناه بحدة بين عينيها وشفتيها مغمغمًا: تخيلتها تشبهك.

لم تعِ ما تخفيه إجابته عنها، تشبهها إلى أي درجة وفيم تختلف عنها!

قالت ما لا يختلف كثيرًا عن إجابته، لفظيًّا على الأقل: وأنا تخيلته يشبهك نوعًا.

استطردت بما تفتقده فيه ولم تدرِ أنه يماثلها في افتقاده، شيئًا ليس فيها: لكن الأهم عندي ألا يكون قد سبق له التورط مع فتاة من قبل وهذا ذهب أدراج الريح.

- لماذا يهمك هذا الأمر يا "ضحى"؟!

- لأني أردتك أن تشعر بكل ما أشعر به هذا معي للمرة الأولى، كلما أتخيلك عشته من قبل مع غيري يجن جنوني.

وكلما يتخيلها لم تعشه من قبل معه يجن جنونه هو! زفر بوهن: دعكِ من الماضي يا مجنونة، الأهم المستقبل، وهذا ما يرعبني.

تساءلت بتخوف: لماذا يا "محمود"؟!

- خائف ألا أستطيع الإيفاء بوعد لا أملك اليوم من أمره شيئًا.

كان أجدى بها أن تسأله لمَ، لكن جرفتها عاطفتها فمررت أصابعها بخفة على كفه وهمست: أحبك.

ابتسم وبادلها نظرة دافئة فزفرت باستعطاف: يا لك من سمج! ألن تقولها! اشتقت إليها.

رفع رأسه إلى السماء التي أظلمت وأشار إلى نجمة مضيئة بعيدة: تشبهين هذه النجمة يا "ضحى".

أشارت لها "سلمى" أن تلحق بها للمغادرة فأومأت برأسها بتبرم: -قادمة، ألقاك غدًا إذن.

قال بصوت أجش من فرط عاطفته: اعتني بنفسك، لأني أحبك يا ضياء الكون، يا شمس النهار.

زرعت عينيها في وجهه بامتنان، فقبض على يدها بحنان مودعًا، لوحت له رغمًا عنها لاعنة حظها العاثر ألف مرة، وحالما ابتعدت عنه استلقى على ظهره على العشب متطلعًا إلى السماء، بينما احتضنت هي "سلمى" بسعادة مغرقة: اليوم كان الأجمل في حياتي.

أطاحت "سلمى" شعرها خلف ظهرها مغمغمة بتوجس وهما تسيران مبتعدتين: احكي لي.

كانت أصابعها تجري بحماس على أزرار هاتفها المحمول: انتظري، سأرسل له هذه الرسالة ونقضي الليلة كلها نحكي عن هذا اليوم السعيد.

رصت "ضحى" مشاعرها على الشاشة "أحبك بمنتهى الشغف، فلتتحمل حلمك ولا تخف، فأنا لك وإلى جوارك بلا أسف" ثم ضغطت زر إرسال قلبها له.

بللت "سلمى" شفتيها بلسانها المحموم: أتفهم سعادتك، فلمحة حب تبرر حماقة دهر.

تجعد جبينها بتقطيبة حادة وقالت مدافعة عن حبها الوليد: لا تنعتيني بالحمق يا "سلمى"، لقد عدت إلى صوابي عندما وقعت في هوى "محمود".

أومأت موافقة بعتاب: تليق الواحدة منا دومًا بهكذا وقوع، لا يمكنها

أبدًا أن تهوى في أمان!

انعقد حاجبا "ضحى" في تساؤل أججته "سلمى" فضولًا باستياء واضح على قسماتها، قلبها يلتحف بعباءة حب يقنع أنه بغيرها سيتعرى من أجمل ما أرتدي، فيتشبث بدفئها رغم أنها قد لا تستر حاجته لكنه إن خلعها سيموت من البرد!

حدجتها "ضحى" بحيرة غافلة عن أن الحزن ينفخ في الروح جنحًا من التعازى: ماذا بكِ يا "سلمى"؟

بدرت عن "سلمى" ابتسامة باهتة وهى تغمغم بإشفاق: لا تختلفين كثيرًا عني.

- ماذا تقصدين؟! لا أفهمك!

تناظر "سلمى" رفيقتها مشفقة على كلتيهما، لكأنهما زوجين من العيون العمياء يتخبطان في طريق ساطع الأضواء! اختارتا بإرادتهما الظلام وإذا بخفقات قلبيهما تعمي البصيرة!

***

كانت ليلة من الفرح مضنية، جافاها النوم ولم يغمض لها جفن، خصصت "ضحى" الليلة كلها لعالم سحري يجمعها به، ولم تستطع أن تقتطع بعض الوقت حتى لتفكر فيما ألم بـ"سلمى"، وصاحبَ هذيانها المغرق في أسى وإحباط لو كانت بمعناهما عليمة لتخلت عن أنانية ليلتها وأفنتها كلها في مواساتها! لكن قلبها اكتفى بالدوارن في كل اتجاه بخَطَفات من حلم يغويه ونسيت تمامًا أي شيء عداه!

ومع أول شعاع للشمس في السماء قفزت من فراشها وانتقت بعناية رداءها الأنيق، توفَّزت لاستقبال الحبيب المنتظر الذي جاءها منهكًا خائر القوى، لم ينم تلك الليلة هو الآخر، تبدت لها عينان مرهقتان يفركهما بقسوة مكبوتة، قضى طيلة الليل في المستشفى ساهرًا على تعب والده، أبدت اهتمامها وتوجسها فطمأنها على تحسن صحته، وفيما جلسا متجاورين سألته إن كان قد استلم رسالتها أمس وإن كانت قد أعجبته، شخص ببصره وأيدها بتمتمة باهتة وعزتها لتعبه وهَزَل استطاعته الحديث، ولم يخفف فتوره حماسها!

أُشير إليه ألا يجالس الضوء بعينيه المتعبتين، ففض حديثهما واتخذ من قلب الصندوق الخشبي مجلسًا فلم تعد ترى منه شيئًا، هزت كتفيها بتبرم واضطرت لبدء العمل مع الرفاق، تتنقل بين الطلبة لتعرض عليهم التسجيل في الدورة التدريبية حتى انتصف النهاروأتعبتها قدماها، فاتجهت إليه وجاورته بعيدًا عن الأعين، ارتكزت بظهرها إلى جدار الصندوق الخشبي، طالعها بحنان ومد لها يده، ابتسمت ومدت يدها بدورها متوقعة أن يحتضنها بين يديه، غير أنها فوجئت به يقربها إلى شفتيه ويلثمها بسرعة لم تستطع معها إيقافه سوى بنداء تحذيري غير مجدٍ: "محمود"!!

ابتسم بفرحة تماثل انتصاره في معركة فبادلته ابتسامة عفوية رغم شعورها بالحرج والضيق من موقف لم تتخيل أنها يمكن يومًا أن تصير فيه، كيف تسمح له أن يلثم يدها؟ وكيف تجلس معه بمفردها بعيدًا عن الأنظار! زفرت وهبت من مجلسها بعزم، وفيما غادرت مكانها احتلته

"سمر" ولمدة ساعة، ومن موقعها البعيد لم ترَ منهما سوى قدميهما المتجاورتين، فهاتفته بحنق: هل أصبحت أفضل حالًا الآن؟ مر أكثر من ساعة وأنت تجلس إلى جوارها والله أعلم ما الذي يدور بينكما!

قال محذرًا بحدة: تعقلي، سأنهي المكالمة.

لم تجبه بل ضغطت بالفعل على زر هاتفها الأحمر لتجده أمامها مستغربًا: ماذا دهاكِ؟

- أنت حتى لا تجلس معي أنا كل هذا الوقت!!

صاح محذرًا: "ضحى"!

- أنا أغار عليك.

قالتها بانهزام فكشف ثغره عن ابتسامة رائعة: تعقلي أيتها الطفلة الحمقاء.

ابتسمت بضعف فطالعها بنظرة آمرة وهو يبتعد عنها وكأنما يعقد معها اتفاقًا بأن تُبقي امتعاضها لنفسها، لأنها بعد قليل من الانخراط في العمل رفعت رأسها عن الأوراق التي كانت تطالعها، لتجده محاطًا بثمان فتيات سافرات مفعمات بالأنوثة! شهقت رغمًا عنها بفزع التفتت معه "ندى" إليها بجزع متوجس، فهزت رأسها تصرف عنها قلقها بنبرة منكسرة، وتناوبت حدة نظراتها لعدة دقائق أخرى بين الأوراق وبينه، ثم اتجهت إليه بخطوات ساخطة وانزوت به في أحد الأركان بغضب متصاعد: ما خطبك؟! ألا تستطيع الوقوف بمفردك أو مع الشباب ولو لثانية! هذه المرة تحيط بك ثمان فتيات! ألا تستطيع تمالك نفسك؟!

الغريب أنه صاح بغضب مماثل لم تره ناضجًا من جلده قبلًا:

-ما خطبك أنتِ؟ لا أحتمل حماقاتك هذه، ألن تكفي عنها؟! أتحدث إليهن ببساطة أمام الجميع! هل تريني متغزلًا بهن!

تأنفها يخرجه عن طوره، ألا يكفيها أنه ينسى فعلتها بالكاد! فاستطرد: لقد ضقت ذرعًا حقًّا بأفعالك، يجب أن تتوقفي عنها وتفهمي أننا لسنا مرتبطين، أنا أعزب أفعل ما يحلولي.

انتكست أهدابها وانكسرت عيناها بالدموع: لسنا مرتبطين! أعزب!

- أظنني كنت واضحًا عندما قلت لكِ يبقى الوضع على ما هو عليه وعندما أطلعتك على تخوفي من وعد قد لا أستطيع الإيفاء به، أنا لست مستعدًّا بعد لهذا التقارب الذي تأملين فيه.

حدقت في عينيه لبرهة بذهول صرف، دقت عجرفته القاسية برأسها كالطبول المزعجة، وقرت مسامعها لصدى تخاذله المهين، اضطربت خفقات قلبها تحت وطأة إجحافه المربك، ومن ثم انصرفت من أمامه دون أن تتفوه بحرف، وفيما تتناهب خطاها المرتعدة للإبتعاد عن شبح حبيب فوجئت باختفاء حقيبتها التي كانت قد تركتها على سطح إحدى طاولات النشاط، بحثت عنها في كل شبر حتى يأست فأجلت حنجرتها من الغصة وصاحت بانزعاج: هل رأى أحدكم حقيبتي؟ لقد تركتها هنا منذ قليل!

نفت كل العيون المحدقة باضطرابها وعاتبها "علي": كيف تتركيها في عراء النشاط دون عين تحرسها؟؟ بالتأكيد سُرقَت.

جزعت ملامحها وكأن هذا ما كان ينقصها: لكن كيف سأعود إلى منزلي بدونها وليس معي مال إضافي؟!

- لا تقلقي، خذي هذا.

انحدرت نظراتها إلى قبضة "باسم" على وريقات مالية فرفضتها بذعر: احتفظ بمالك، لا يمكنني أن آخذه.

اخترق "علي" وقفتهما بابتسامة مطمئنة: لكنكِ لن ترفضي مساعدة رئيسك المباشر يا "ضحى"، أليس كذلك!

حدقت بقهر في نقود يعرضها عليها وهزت رأسها بعنف بينما تبحث بعينيها عن "محمود" الذي عاد إلى وقفته مع الغيد: عذرًا يا "علي" لا أستطيع ولا تقلقا، سأتدبر أمري.

نظراتها كانت مكشوفة فقد نقل "علي" بصره بينها وبين "محمود" الغافل عن ورطتها وقال بجدية وهو يجذب "باسم" بعيدًا عنها:

-حسن يا عزيزتي، كما تشائين لكن لا تعتمدي على ذلك كثيرًا، سيخيب أملك، وعلى أي حال نحن هنا بالجوار إن احتجتِ إلينا.

دارت عيناها الحائرتان في محجريهما لثوانٍ تنبش بنهم عن تفسير غير مؤلم لكلماته التي نهشت أملها كخناجر حامية، خاصة عندما استقرت عيناها على وقفة "محمود" العابثة بلا اهتمام منه بضائقتها. تلقفتها "ندى" بحنان فطري: "ضحى"، فلنتحدث كصديقتين لو سمحتِ لي، لا أريد أن أتدخل فيما لا يعنيني لكن يجب عليَّ تحذيرك.

تنهدت بضيق فكل ما أرادته هو لملمة شتات نفسها المبعثرة لكن لم

تحالفها صحبة غيرها درء الألم، فالتقطت نفسًا مشبعًا بتمني الثبات، فيما جذبتها "ندى" بعيدًا قائلة بتصميم: لن أقف مكتوفة الأيدي وأنا أراكِ مقبلة على هوة سحيقة دون أن أمد يدي لأتلقفكِ عنها.

تأففت من ثرثرتها المقتحمة وغمغمت باستياء واضح: ماذا تريدين؟

- يجب أن تبتعدي عن "محمود" لأنه ليس جادًا معكِ.

- كيف تقولين هذا؟ إنه يحبني.

- هل أنتِ متأكدة؟!

اتسعت عيناها بانزعاج وقالت مؤكدة: بالطبع، ماذا تظنين؟!

- لا أرى هذا واضحًا منه!

ضاقت ذرعًا بتشكيكها المزعج فواجهتها بتحدٍّ: أنتِ لا تعرفين شيئًا!

- ما أعرفه يكفي لأن تستمعي لنصيحتي، سمعته في الجامعة لا تُخفى على أحد، كل يوم بصحبة فتاة مختلفة يفطر قلبها ويبحث عن غيرها، منذ فترة وجيزة كان مرتبطًا بفتاة من هذه اللجنة التنظيمية حتى سأم منها وتركها منذ بضعة أيام، وبعدها اختفت الفتاة تمامًا ولا ألومها، وإن لم تصدقيني اسألي رفاقه وسيؤكدون لكِ.

انهمرت قطرات زجاجية بارتياع من عينيها وهي تتمتم بألم ضج من إنكار الحقائق: لا أصدق! يتلاعب بي!!

هزت "ندى" كتفيها بأسف قليل الحيلة فأجهشت "ضحى" بالبكاء وهتفت بأنفاس متقطعة: كنت أشعر، كنت أشعر، لا يوجد محب يعامل حبيبته بهذه الطريقة المخزية أبدًا، إنه لم يدخر جهدًا في أن يبدو

هذا واضحًا، لكن لمَ؟ لمَ؟ وكيف له أن يكون كاذبًا ماهرًا هكذا!

- لا أدري كيف تقعين أصلًا في هوى شخص مثله؟! فتاة مثلك تستحق أفضل منه.

- لقد أحببته لأني صدقت أنه يحبني.

وضعت "ندى" يدًا على كتفها وناولتها بيدها الأخرى منديلًا ورقيًا لدموعها وقالت بتشجيع: توقفي عن هذا النحيب، يكفي أنكِ علمتِ حقيقة الأمر وبتبقى كيف تتعاملين معه، هيا جففي دموعك واستعدي لغد خالٍ من "محمود" وأمثاله، وأنا لن أتخلى عنكِ وسألازمك حتى تنسينه تمامًا وتستعيدي توازنك العاطفي، الأمر سهل لكن بدون مساعدتك سيكون بلا فائدة.

أومأت بقهر وهى تغادر صدرها الممتلئ وتجفف دموعها الحارقة فساعدتها "ندى" على الوقوف، وأودعت في يدها حفنة من المال لم تستطع رفضها وسارت إلى جانبها قائلة بحزم: هيا فلترحلي الآن لتستعدي لغد أفضل، عودي إلى منزلك وسأهاتفك لأطمئن على وصولك، أعطِيني رقمك.

انتشلت "ضحى" جسدها بعيدًا عنه وعيناها معلقتان بحبيب جَرَحَ الخافق للمرة الأولى، ولا يَنِي يقف مقهقهًا بصحبة "سمر" وغاداته، دفنت رأسها في زجاج سيارة الأجرة التي استقلتها للعودة إلى منزلها، ودموعها تنهار كجبل جليدي أصابته قنبلة حارقة!

***

لا تتخيل ليلة أبشع يمكن أن تمر على عينيها المنهكتين، لم تكف "ضحى" لحظة عن استدرار الدموع، ولولا أن الليلة التي سبقتها لم يعرف النوم طريقًا إليها لما غمض لها جفن، فجأة فتحت عينيها المبللتين لتجد الشمس قد توسطت الفضاء الواسع، لا تدري متى غفت وكيف! لكنها ارتاحت قليلًا أنها فعلت وإلا لكان شُج رأسها إلى نصفين.

تجاهلته تمامًا ذلك اليوم ولم تدع لعيونهما فرصة لقاء حتى عندما أقبل لتحيتها، ربما لهذا أصعر خده لها وقد أغاظها هذا بشدة واستنفد قدرتها الطفيفة على الاحتمال، حتى تلك اللحظة التي تبادلت فيها الحديث مع "سامح" أحد معيدي كلية التجارة رؤوساء النشاط، كان شابًا مغازلًا ثرثارًا لا يتوقف عن الحديث والمجاملة، ما جعلها لا تكف عن إيماءات وابتسامات صفراء، تحولت إحداها فجأة إلى ابتسامة واسعة مشجعة فورما لاحظت "محمود" يطالعهما بضيق، ولم تعبأ به عندما أرسل إليها أكثر من إشارة تحذيرية برأسه كي تبتعد عن المعيد.

كان ذلك اليوم الأخير في الدعاية للدورة التدريبية المقامة من قبل النشاط، فاستحق رؤساؤه ومنظموه أجازة قصيرة -كما بشرتهم "ندى"- تزامنت مع موسم اختبارات منتصف العام، وهكذا لن يلتقي الرفاق إلا بعد أيام عديدة فاستقر فكرهم على البقاء لبعض الوقت في حلقة صراحة كلعبة تسلي صحبتهم، وفيما تدور زجاجة الصراحة ليشير طرفاها إلى شخصين أحدهما يسأل والآخر يجيب، جاء الدور عليهما، فهلل "باسم" برصانة أن اللعبة ازدادت إثارة!

سألها "محمود" باهتمام "لماذا لستِ على طبيعتك اليوم؟!" كتمت

غيظها من صفاقة سؤاله، في حين شدت "ندى" على يدها بقبضتها محذرة ألا تزيد الأمر سوءًا بقولها شيئًا يرضي غروره أو يقلل من شأنها أمام الآخرين، فتجاوزت السؤال فيما تصاعدت همهمات من بعضهم أن الفرصة لن تتاح هكذا سوى لسؤال المواجهين لهم، وقرروا أن يكتفى طرف الزجاجة الأمامي بالاشارة إلى السائل وهو الذي يقرر من يريد أن يسأله، لتدور الزجاجة من جديد ويتوقف طرفها الأمامي عند قدم "محمود" للمرة الثانية.

- لن أسأل لكن أريد أن أوجه كلمة، وأختار أن أوجهها لـ"ضحى".

انتبهت إلى كلمته الأخيرة ورغمًا عنها تلاقت عيونهما بالنظرة التي عملت جاهدة على تحاشيها منذ اللحظة الأولى من اللعبة، فأبعدت بصرها عنه من جديد وهو يستطرد: لا أحد يعلم ما تكنه النفوس، حتى نفسنا ذاتها قد نتوه إن حاولنا فك شفرتها، النفس البشرية -أفعالًا وأقوالًا- متاهة لا يعرف دهاليزها إلا من يراها من أعلى، ومن أعلى من الله سبحانه وتعالى بارئها!

جهر "علي" بسخرية: ونعم بالله، اللهم قوِّ إيمانك يا بني.

في حين قال "باسم" متهكمًا: هل يذهب هذا الفتى إلى دروس دينية من وراء ظهورنا؟!

هز "محمود" رأسه بضيق وأشار بيده: أدر الزجاجة.

ارتفع رنين هاتفها بالنغمة المخصصة لشقيقها، فقامت من مجلسها على العشب الأخضر لتستقبل المحادثة بقلق تضاعف مع تساؤله

بهدوء مخيف: أين أنتِ حتى الان؟

- فى.. في الجامعة.

- "ضحى"، أنتِ في الجامعة منذ الصباح الباكر، ماذا تفعلين هناك حتى هذه الساعة؟!

أجابته بتوتر: مع أصدقائى، نتسامر قليلًا..

أمرها بلهجة لا تقبل النقاش: تضيعين وقتك واختباراتك على الأبواب! فضلًا، عودى حالًا.

أنهت المحادثة وعادت أدراجها إليهم ومالت على "ندى" قائلة بخفوت: سأضطر إلى الرحيل، "ناير" في المنزل ثائر لأني خارجه حتى هذا الوقت.

اعتدلت وصاحت بصوت مرتفع: إلى اللقاء يا رفاق، يجب أن أرحل الآن، أجازة سعيدة.

تعالت الهتافات ردًّا عليها فابتعدت عنهم بخطوات متمهلة وأنفاس مضمخة بالتوقعات، كأن وجهه بين لحظة والأخرى سيطالعها ليودعها شوقه قبل أيام طويلة من الابتعاد ستمر عليهما، أو حتى ليرافقها خارج الجامعة ليطمئن عليها داخل سيارة أجرة تعيدها إلى منزلها، لكن كل هذه الآمال البسيطة هدتها خيبة أمل كبيرة وحسرة على قلب يخفق لحجر.

***

طالعت "ضحى" امتقاع وجه والدتها ونقمة عينيها فغاض قلبها بين قدميها، خشيت أن يكون قد مسها شر، أسرعت نحوها بجزع وفجأة

تسمرت، عندما أصبحت على قرب من احتجاج "ناير" المتحشرج:

- لقد خذلت نفسي، أشعر بالفشل، قضيت عمري بأكمله مساقًا إلى كل ما لم أختره، لمرة وحيدة أردت أن أقدم على فعل ما أريده وليس ما يريده الآخرون لي.

- لمَ لم تتشبث بأفكارك هذه قبل أن تتقدم لخطبتها؟! لم يجبرك أحدنا على الموافقة.

قال بإرهاق وهو يدفن وجهه بين كفيه: لا أدري، لا أدري، أرجوكِ يا أمي، أنا لا أحتمل، عقلي متوقف تمامًا عن التفكير ولم يعد يمكنه تقديم مزيد من الحلول.

تنهدت "كوثر" بضيق أزعجه فرفع عينيه إليها معاتبًا: ماذا؟ هل تحاسبينني على مشاعري وأفكاري؟!

- بالطبع لا، لكن لا تنس صلة القرابة.

- لم أنسها، وليس هذا الشيء الوحيد الذي لم أنسه، هناك أشياء أخرى لا أنساها ولا أزال عالقًا بينها.

- ماذا تريد يا "ناير"؟!

- يا إلهي يا أمي! فلترحميني قليلًا، أنا لا أدري من أمري شيئًا، لا أدري، لكني بحق مستاء من نفسي ومن كل شيء.

استرعت كلماته حيرة شقيقته فتنحنحت متمتمة بتخوف: ماذا هناك؟

لم تظن "ضحى" الأمر أبدًا بتلك الخطورة، اعتقدته ليس أكثر من

شجار محبين، آخر خاطر قد يجول ببالها على الإطلاق أن "ناير" ليس موفقًا في علاقته بـ"سلمى" وربما تنتابه أفكار مؤرقة في التراجع عن خطبتهما لكنه لا يعلنها صراحة، لا تصدق، كيف يعقل هذا! ماذا عن قرب زفافهما والخاتمين اللذين يكللان قصة حب ترعرعت على مرأى ومسمع منها! في الأمر خطب ما، إنها لا تستوعب أيًّا من هذا! فماذا عن "سلمى"؟! يا إلهي الرحيم!! ارأف بحالها، كيف ستتحمل هذه الطعنة التي لا مفر منها! فلا تظن أن زواجًا ناجحًا يلوح خلف هذه الحقيقة المرة، ولا تظن أن "سلمى" قد ترتضي الحياة مع حبيب لا يبادلها مشاعرها بأكثر منها.

ورغمًا عنها، لم تملك إلا أن تشعر بضيق شديد منه، لم تظن أبدًا أن لحظة كتلك ستأتي وتكن هذا القدر من القسوة تجاه شقيقها الوحيد! فكرت بقهر، لماذا رضي إذن بنسب الأقارب طالما يرغب أن يختار عروسه بنفسه! لماذا لم يفعلها قبلًا ويوفر على نفسه وعليهم العناء؟ لماذا لم يصرح ويتحمل مسؤولية ما يريد ويدفع في سبيله ما يمكنه وما لا يمكنه! لماذا ارتضى إذن خطبتها؟ لمَ غرر دنياها به؟ لمَ أقحم أنفاسه في حياتها؟ لمَ وعدها بعمره معها؟ لمَ تملكها وأسرها وتمكن منها؟ الآن يفكر في التراجع ويرغب أن يختار بنفسه، يختار غيرها!

لماذا نرتدي أحيانا أثواب المحاماة ونتولى قضية قد لا تكون بالضرورة قضيتنا؟ لماذا نقف أحيانا على منصة النيابة ونهاجم متهمًا قد لا يكون بالضرورة أجرم بحقنا؟ لماذا نترافع في قضايا لن نُسجَن من أجلها ولا ننتظر فيها حكمًا ببراءتنا؟ ربما لأنها قضايا من نحب!! كم تمنت لو تثور

بوجهه! غير أن علاقتهما لم تسمح لهما بدردشة ولو سطحية فلن تسمح بطبيعة الحال بهذه الهجمات البطولية.

***

صارت "ضحى" تحدق في هاتفها بالساعات في انتظار صوته الذي لم يجئ أبدًا وكأنه يحاسبها على كل الليالي القديمة التي بخلت فيها عليه بصوتها! كأنما يضمر قدرًا هائلًا من الاحتيال كان يحتفظ به في صوان مخصص لها! قلبها يئز بألم من نوع خاص لم يخبره قبلًا ولا يريد الاعتياد عليه، ورأسها يتفجر من ذاكرة زائغة لا تمر عليها مما كان بينهما سوى لحظات اعترافه لها بالحب ولحظة غضبته عليها وتنصله من ارتباطهما، بالكاد تمالكت نفسها لملاحظة والدتها وشقيقها وجومها وحزنها البادي على وجهها.

لم تخلف "ندى" وعدها لها بالوقوف إلى جوارها وانتشالها من أحزانها، وقد رن الهاتف معلنًا عن اتصالها اليومي المعتاد، تخبرها هذه المرة بموعد لقاء رؤساء ومنظمي النشاط والطلبة الملتحقين بالدورة التدريبية، للإتفاق على تمضية نهار كامل في محمية طبيعية، احتفالًا بانتهاء أعمال التسويق والدعاية للدورة التدريبية وبدء الصفوف الفعلية بعد أجازة نصف العام.

وفي اليوم التالي رافقتها إلى كلية التجارة، وجذبتها إلى داخل غرفة المعيدين المزدحمة حيث وجدت "ضحى" الجميع بانتظارها، ألقت عليهم التحية وحرصت ألا يبدو عليها عتاب الأحبة، لم ترد أن يظن الآخرون

أنها تلك الفتاة المدلهة في حب من طرف واحد، وفيما تطايرت الأفكار التحضيرية للعطلة حولها من كل صوب التزمت الصمت، واكتفت بالإيماء إلى الأفكار التي تروق لها.

لم تستطع منع نفسها من اختلاس التأنيب له، كان يتملص منها في البداية وفجأة بادلها نظرة تشبهها وهو يشير إليها بالاقتراب منه مبديًا رغبته في الحديث إليها، تساءلت بفضول محب متقد عمَ يريد، فأشار إليها أن تتبعه إلى الخارج، لكزتها "ندى" بتحذير حالما نهضت تتبعه لكنها كانت تتحرق شوقًا إلى تفسير، لحقت به لتجده مستندًا إلى الجدار الخارجي لغرفة المعيدين.

- لمَ تحقرينني بنظراتك؟!

- لم أفعل! بل كنت أعاتبك بها على كل ما فعلته وكل ما لم تفعله.

- تعرفين إذن بعضًا مما شعرت به قديمًا! ألا زلتِ تستكثرين عليَّ عدم مقدرتي على تجاوزه؟!

- كفاك لعبًا على هذا الوتر، لقد تقبلته من قبل وجئتك آسفة واتفقنا أن نبقى أصدقاء، أنت من جئت في اليوم التالي معترفًا بحبك لي وعدم قدرتك على الابتعاد، كيف بعدما أحييت الأمل في قلبي تقتله وكأنك لم ترتكب أي ذنب؟! أنا لم أفعلها بك يا "محمود" لم أخدعك للحظة بينما أنت تتلاعب بي طيلة الوقت.

ابتسم بجانب فمه بتهكم: أراكِ تتعذبين! ألم تخبريني سابقًا أنى كنت حملًا يثقل كاهلك!

- هل تشمت بي!!

- مطلقًا، ولا حتى أتلاعب بكِ، لا اليوم ولا فيما مضى، هذا ليس من شيمي، أنا لست بشخص سيء وأنتِ أيضًا لستِ الفتاة التي يمكن التلاعب بها بأي شكل من الأشكال.

- إذن أنت تحبني وترغب بالزواج مني؟!

- أجل.

أتقول كلمات ليست كالكلمات؟! تُوقِعها على ما في نفسي في حين لا تعني ما تودُ أن يصلني منها!! تخلت عن التحدي وهاجمته بحيرة ملتاعة: لا تقدني إلى الجنون، كيف يعقل هذا؟! لا أشعر بحبك أو أقله اهتمامك، وتصر على ألا تعترف بي كحبيبتك، إن كنت تحبني فعلًا اثبت لي ذلك، دعني أشعر به وأعلنه أمام الكل لأني لا أصدقك.

- ألستِ أنتِ من كنتِ ترفضين هذا من البداية ورفضتِني كليًّا بسببه؟!

- في هذا الوقت كان شعوري نحوك إعجابًا أمسكت زمامه لأنني لم أرَ غدًا له، عقلي الحكيم أقنع قلبي أن يتخطاك، ففعل.

- وماذا تغير الآن؟! أنا ما زلت أنا وأنتِ لا زلت أنتِ، أيرى عقلك الحكيم الآن أن هناك غد لنا؟

- لم يتغير أحدنا ولم يزل عقلي يرى أن الأمور معقدة، لكن هذه المرة لم يكن لدي تحذيرات مسبقة كالمرة السابقة لأني ظننت أن أمرك انتهى لدي ولم أدرِ أنك كنت قنبلة موقوتة.

اغتمت قسمات وجهه بحزن واضح: هكذا ترين مشاعرك نحوي يا

"ضحى"!!

- نوعًا ما، ألا ترى الوضع الذي أقف فيه اليوم! صرت أطلب منك ما كنت أرفضه قبلًا! يا إلهي! لم أتخيل مطلقًا أن يُفعَل بي هذا! ماذا عن كرامتي المدكوكة؟! وماذا تسمي هرولة الجميع خلفي لتحذيري منك ومن عبثك مع الفتيات؟ ماذا تسمي نصحهم لي بالابتعاد عنك وتكذيبهم لحبك لي؟!

- ليس لهم حق التدخل، وكيف أصلًا عرفوا بما بيننا حتى يحذروكِ مني؟ هل أخبرتهم؟!

- لم أكن بحاجة إلى ذلك، يبدو أنه يكفي أن تكون فتاة بالقرب منك حتى تثار الأقاويل.

أطلقت تنهيدة حارة وقالت ودموع تترقرق في عينيها ..

- ويبدو أنهم على حق فيما قالوه عنك.

نغزته دموعها فعاتبها بنظراته...

-هل تتخيلين أني سعيد برؤيتك هكذا! أقسم لكِ أني لا أتلاعب بكِ، أنا أكثرهم خشية عليكِ، لا أحد منهم يخاف عليكِ أكثر مني.

- لقد أنهينا جلستنا وسنغادر جميعنا الآن، هل ستغادران برفقتنا؟!

فوجئت بـ"باسم" يقف أمامهما فأدارت وجهها المعبأ بالعبرات بعيدًا عنهما، مسحت الندى المالح وقالت بتصميم: أجل، هيا بنا.

سارت إلى جواره في الحرم الجامعي فقبض على كفها، أزالت قبضته عنها بنزق وهي تسأله بنفاد صبر:

- "محمود"، أمامك خياران لا ثالث لهما، الأول تعرفه والثانى أن ينتهى أمرنا تمامًا.

- لا يمكننى اختيار أيهما.

احتدت: سأسهل عليك الأمر إذن، اعتبر أن شيئًا لم يكن.

كانا قد خرجا من الجامعة بصدد عبور الطريق حيث درج نفق محطة المترو في الجهة الأخرى فأمسك يدها ليعبر بها بهمس قليل الحيلة:

- "ضحى"...

جذبت يدها من كفه بعنف وعبرت وحدها الطريق مرتقية درجات درج نفق محطة المترو، ودموع نضرة تتسابق متدلية على وجنتيها فيما تحيق بها دوائر مفرغة!

***

احتقنت عينا "نابر" بالدموع وأودع ضميره حكمًا عادلًا عندما تيقن من مقدار الذنب الذي سيحمله إن لم يعطِ لعلاقته بها فرصة من حقهما، أقر بحماقة التفريط في فتاة تعشقه بهذا القدر، يدرك أنها كل ما تمناه في المرأة لكن شيئًا يجهله يقف حاجزًا بينهما! شيئًا يضطهد ما بينهما ويحاول تفرقتهما!! وهذا ما ساقه إليها تلك الليلة، كان يريد أن يفرغ مشاعره بين يديها، جلس إلى جوارها داخل سيارته السوداء المتوقفة، حيث حجبهما زجاجها عن الأنظار، باح لها بالقدر الضئيل الذي خمن أنه لن يقتلها من أفكار متخبطة تتردد داخله، وساق لها أسبابًا واهية لم تخلُ من دماء جراحها المكلومة.

لم تمهله "سلمى" الفرصة، خلعت خاتمها وردته له بعينين حمراوتين وثغر مطبق على وجيب القلب، الغريب أن تلاقي حاجبيه بعصيان ولم يقبل به، اقتربت أنامله من وجنتها المحفورتين بأخاديد جارية من الملح، فأسرعت يدها نحو مقبض الباب، تحاول فتحه والترجل من السيارة صارخة: سأغرب عن وجهك يا "ناير" طالما لست واثقًا من علاقتنا، سأخرج من حياتك كلها، أليس هذا ما تريد!

ألزمها مكانها بقوة فاستماتت للتخلص من قبضته عليها بحرقة: -دعني يا "ناير"، دعني.

أمسك كتفيها بعنف فتأوهت بألم، ألبسها الخاتم عنوة، واحتضنها بقوة كادت تهشم أضلعها، هامسًا بانكسار دامع: أنا آسف يا "سلمى"، أعلم كم هو مؤلم وقع كلماتي عليكِ لكن بحق الله ما قلت ما عندي إلا لأني أريد التخلص منه، لا يمكنني التخلي عنكِ ولا أدري حتى لمَ تجول تلك الأفكار المغرضة برأسي؟! صدقًا لا أدري!!

حاولت التملص من حبها والهروب بكرامتها الجريحة لكنها لم تستطع، تشبثت بأحضانه ودفنت مجرى عبراتها في عنقه، كانت تعشقه حد أنها لم تذكر عن تلك الليلة سوى عناقه الدامع.

***

اتخذت "ضحى" طريقها إلى الجامعة لاستقلال الحافلة التي ستقلهم إلى المحمية، وما إن إقتربت من الحافلة التي وقف أمامها الجميع حتى بدأت عيناها تدوران بحثًا عن عينيه اللتين غابتا عن التواجد.

احتضنت "ندى" التي أقبلت عليها بطيبة مواسية وتساءلت بلهفة:

-أين هو؟

تطلعت إليها "ندى" بإستغراب طويل: لم يأتِ بعد، ولن ننتظره طالما لا يحترم مواعيده.

- ماذا تعنين؟! ألن يأتى!!

قالت "ندى" ببرود: سيلحق بنا.

تنفست الصعداء لبرهة قالت بعدها بضيق متبرم: ولمَ لا ننتظره؟ كنت أريد الجلوس إلى جواره، هكذا سأمضي الكثير من الوقت بدونه.

- هل فاتني شيء ما هنا؟

لا شيء يقوى على الصبر مثل الحاجة، بقدر حاجتك إلى ما تصبو إليه بقدر ما يكون صبرك على كل ما يسد طريقك نحوه! أقحمت "ضحى" أملها الأيام الماضية بين صفحات كتاب "الرجال من المريخ والنساء من الزهرة..الدليل لفهم الجنس الآخر"، ذلك الكتاب ذائع الصيت الذي يفسر كاتبه د. جون جراي أن الرجل عندما يكون بالعادة مجروحًا يحتاج في مثل هذه الأوقات إلى أن يكون وحيدًا، ليهدأ ولا يريد أن يفعل أو يقول شيئًا قد يندم عليه، فمن الضروري للنساء أن يفهمن أنهن إذا أصررن على مودة مستمرة أو جرين خلف شريكهن الحميم من الذكور عندما يبتعد، فإنه حينئذ سيحاول دائمًا تقريبًا أن يهرب وينأى بنفسه، حيث إنه لن يجد الفرصة أبدًا كي يشعر بشوقه المتقد للحب!

هكذا أمسكت هاتفها ليلة أمس وضغطت زر الاتصال به، شعرت

بابتسامة لحظية منه تتخلل مقدمة الحديث بينهما، بعدها جرى كلامهما في وئام متبادل حتى انتهت المحادثة بفضول قوي يشب بعنقه منها، حول حلمها به والآتي معه، وتنسى أن الفضول غالبًا ما يقتل القطة!!

استنكرت "ندى" تورط صديقتها في هكذا عبث! أي منطق يقبل بالتنازل والانزلاق إلى مهانة واضحة للنفس ليس مرجوًّا منها خير إلا في سك كل الأبواب في وجهها؟! لم تعلم أن الأمر ليس هينًا على كبرياء صديقتها كما صورته لها، بل تنتهك الإهانة خربشات الاتفاق بينهما وينهشه أنين الذكرى، لكن يحثها غمار تحدٍّ خاضته وترفض الانسحاب منه منهزمة، بينهما صولات وجولات معركة تعتزم ربحها، ليدرك أنه كان قبل لقائها متسكعًا في طرقات الغزل وأنها بصحبته ترياق شافٍ لسم مجونه، ليعِ الكل صدق قصة حبهما واختلافها عن قصصه الآخريات المبعثرات، حبه لها سيعرقل خطواته العابثة ولن يسير بعدها إلا في خط مستقيم.

لم تخل على "ندى" أعذار صديقتها ولم تهئ لها حتى حق الرد حينما أردفت: لا أشعر بالارتياح يا "ضحى"، لا تتخلي عن حذرك.

- إنه حليفي.

- ألم يكن من الأجدى أن ترحلي عنه وتربحي غنيمة هجره!! أخشى أن تخسري معركتك.

- هجره ليس غنيمتي، قلبه هو الفوز المنشود يا "ندى".

- لا ينبغي أن تشي حربًا للحصول عليه، إن شاء الهوى فليكن وإن لم يشأ فهو الخاسر، هكذا يجب أن يكون الأمر.

نفضت الحيرة عن كتفها وقالت بثقة: لا يعيق سبيلي لقلب "محمود" سوى ذكرى هجر سأنسيه إياها.

أردفت: سأحاول إقناع "علي" ألا نغادر من دونه.

- "علي" لن يأتي معنا، كعادته متضامن مع مسيرات حاشدة إلى الميدان.

ابتسمت: يا له من ثائر!

وأفلتت منها مستجدية "باسم" عدم المغادرة من دون "محمود"، لكن الأمر لم يكن بيده، معيدو كلية التجارة كانوا قد أجمعوا على الانطلاق في الحال، ولم تفلح محاولاتها معهم للانتظار قليلًا، واستقل الكل الحافلة استعدادًا للانطلاق.

***

تعلق انتظاري على مشجب اللهفة لقضاء اليوم معه، أخفيت ديونه المؤسفة التي أسقطتها عنه بدرج طاولة الزينة، ووقفت أمامها أطلي شفاهي بحمرة الأمل، وأكحل عينيَّ بسواد الذكرى التي غادرت حجرتي دونها وأغلقت الباب في وجهها، محوت سطور الحيرة وأبقيت الألم على الهامش، صفحات الزمن لن تسرد إلا يومًا جميلًا يكتبه عمري إلى جواره، رسمنا خطة حبنا وما يبقى إلا أن نسير على خطاها ونتتبع طرقاتها، نقتسم مقعد الحافلة، نتعلق بأطراف شاطئ الوله وتنغمس

أقدامنا الحافية في رمال مشواره السحري، نستقل زورق الحب الذي يشرع بنا في قلب البحيرة الناعمة بين مد وجزر الغرام، أُغرِق فيها محار مجونه الموارب فتبتلعه الأعماق وقد أحكمت غلقه واحتبسته في القاع.

رصفتْ محاور حديث عشقي لا يدور سوى بينهما، أعدت إفطارًا فندقيًّا بيدها لا يتناوله سواهما، انتشت من حمام بارد يطفئ جمر صبرها في انتظار عودته بكبرياء منحني، التحفت مظهرًا رياضيًّا أنثويًّا واقيًا لرجفة مرتعشة قد لا تأتي بمحلها، فلا زالت خطوط القدر في جمعهما متعرجة!

وحال وصولهم، تجرعت الهواء البارد بسعادة منتشية، ونظراتها تعري شاطئ البحيرة العذبة التي تلفح سطحها بغلالة مغرقة بالدلال تحت وهج الشمس، بدا الشاطئ تمامًا كما تخيلته في حلمها، ولم يكن ينقصه سوى أن يأتي حبيبها، محملًا بالألوان والفرشاة التي ستضفي بعدًا مجسمًا على اللوحة التي رسمتها بقلم رصاص في خيالها، تتلامس أصابعهما ويسيران بمحاذاته، يغمسان في أصدافه الحجرية ولعهما وأشواقهما، ويدفنان في رماله خزانة حديدية بأرقام سرية لا يعرفها أحدهما تسجن ذكرى سوء كلاهما.

وحتى يأتي، تسلت بصحبة رفاقها حثيثًا بين الطبيعة، هواءًا منثورًا بالشَبَمّ، سِراجًا منيرًا، قوارب خشبية صغيرة تجدف في البحيرة العميقة، حيث الضفة الأخرى تتفتق عن الطلع الفاره، شجيرات باسقة وأشجار مَنْضُودّة بالورق والأغصان، نباتات خضراء وصفراء نضرة الهبات، شلالات مصغرة آخذة في الهطول السامق، مستقرة في ينبوع ممتد فائرٌ

سيله، تشغل جانبيه صخور وكثبان رملية متغيرة الأشكال ومتفاوتة الأطوال.

اتكأت "ندى" على مخاوف "ضحى" وهى تفرض عليها جديتها: اسمعى يا "ضحى"، أظن أنكِ يجب أن تدعي أمر "محمود" لشقيقك، ادعهما لجلسة ودية يتناقشان فيها بشأن علاقتكما.

- ماذا تقولين؟! هذا ليس ممكنًا أبدًا!

حاولت "ندى" إقناعها أنه طالما الرؤية معتمة عليها تدبر أمرها لتتضح الصورة بأخ يكون مربط الفرس، هو من سيؤمن قلبها فليس عليها أن تدعه مفتوحًا على مصراعيه أمام حبيب قد لا يكون جديرًا به! أما "ضحى" فلم تتمكن من إفهامها أن حديثًا خاصًّا كهذا لا يمكن أصلًا أن يربطها بشقيقها! وإن تجلدت حتى لا يمكنها أن تحدثه عن هكذا شيء! وبالأخص عن هكذا شاب!

لمحته "ضحى" يتقدم نحوهم، حيا الجميع دون أي لمحة ود بمن فيهم هي، كان الضيق معسكرًا على وجهه، لكنها لم تفهم كيف قابل لهفتها وعرض بسمتها بهكذا إيماءة خالية من كل المعاني! أدركت سبب ضيقه عندما رصدته يعاتب "باسم" أنهم تحركوا دونه، لكنها لم تحتسبه تبريرًا لجفائه، وكادت تلحق به لولا أن اعترض "باسم" طريقها محذرًا: تعقلي يا "ضحى"، ودعيه وشأنه.

صاحت باستياء شاهرًا أسلحته الدفاعية: ماذا تعني؟ ماذا تظنني؟! ألم يحكِ لك عني!

- أبدًا.

حدقت في وجهه بدهشة ملتاعة: كيف لم يحكِ لك عني؟! أنت صديقه الحميم، كيف لم يخبرك؟! أعنى ألم يخبرك بما كان بيننا من قبل، منذ وقت مضى؟!

- أنا لم أسمع باسمك يا "ضحى" قبل تلك المرة التي قدمك لنا فيها جميعًا.

- ربما لا يحب الحديث عن هذه الأمور.

نفى بجزم هدم أسوار وهمها باختلافها عن الأخريات: بل حكى لي عن كل فتاة أعجب بها أو ارتبط بها إلا أنتِ، "محمود" صديقي الحميم وبمثابة أخي لكني لا أخشى في الحق لومة لائم، ومن واجبي أن أدفعك بعيدًا عن شخص مشاعره قصيرة النفس ولا تبقى بقلبه فتاة لأكثر من فترة محدودة، أنا على ثقة مما أقول على اعتياد من مرآي هذا يحدث مرارًا، ولا أعني بذلك أنه يقصد شرًّا، إنما فقط ينساق خلف قلب طفولي حذرته منه مطولًا بلا فائدة، لكن هذه المرة يا "ضحى" القصة منتهية حتى قبل أن تبدأ، لا أظنه مغرمًا بكِ.

عضت على شفتها ورددت قسوته بألم لم تستوعبه: ليس مغرمًا بي!

- من يحب يكون مستعدًا أن يضع العالم تحت قدمي حبيبه، هل ترينه يفعل هذا؟ أتصوره فقط أقض مضجعك!

نفت بأسى يأبى الهزيمة، وقصت عليه أول الحكاية، البرهان الواهي الذي تقلصت أمامه قامة تحذير العديدين لها من خوض التحدي،

وازدادت بسببه رغبتها العارمة في الفوز.

تنهد بحيرة وقال: لا أدري يا "ضحى"، لا أعرف ماذا أقول لكِ، لكن يجب أن أفهم منه أولًا، دعيني أذهب إليه الآن.

- أين هو؟ أنا لا أراه.

- ها هو على شاطئ البحيرة مع "سمر".

قالها بحرج بعد فترة من الصمت المطول، حرج لم يُصِبها إلا مع استدارتها إلى حيث أشار!

***

obeikandl.com

-4-

داهمها دوار مؤلم وارتعاشة قوية في ركبتيها، انقبض صدرها وانغلقت معدتها الفارغة ذاتيًا حتى كادت تفرغ ما ليس فيها، كادت تهوي في إغماءة لولا البقية الباقية من كرامة لم تشأ أن تذهب مع كل ما ذهب قبلها، للمرة الأولى تفهم معنى ذلك التعبير الشهير بتمني أن تنشق الأرض فجأة وتبتلع الواقف فوقها حتى يهرب من المكان.

"محمود" في شورت قصير وسترة قطنية بلا أكمام، و"سمر" في فستان قصير لا يكاد يغطي ركبتيها، فتحة عنقه واسعة وتنتهي أكمامه عند ساعديها، كان واقفًا مادًّا ذراعيه العاريتين إلى آخرهما وهي مستندة بكامل جسدها إليه، ملتصقة بصدره فاتحة ذراعيها بدورها تقليدًا للقطة غرامية شهيرة!

غمغم "باسم" مشفقًا: "ضحى"..

وارت الثرى على إشفاقه بخطوات واسعة مشتتة دون عبأ بما سيخفف عنها مبررًا، أي تبرير مُجدٍ بعدما شهدت بأم عينيها قَدْرها البَخْس!! تهافتت دموع شرسة على مُقْلَتيها، تكظم بعنف أصداء صراخ عاتٍ، انسكبت خطواتها الضعيفة الشاردة على الرمال كدماء مراقة من جسد ينزف حتى الموت، تطوف بمخيلتها الضامرة رغبة متفجرة في مواجهة تمعنها كل احتقارها له، فتفرج عن غلها منه، وتفضح فزعه

بصراخها في وجهه من الألم كفراشة محترقة بنيران الشهوة التي حسبتها ضياءًا، تلف في دوائر مختالة بنفسها مفرغة حدة غير متعقلة، وتجهز عليه بازدراء يصارع الموت تهكمًا، كم تود صفعه! أقله تنسغه بكلمتين تحت أنظار الجميع الذين ضيع رونقها أمامهم، ومسح حذاءه الوضيع بكرامتها حتى آخرها، فانتثرت هباءًا تلمع أحقر ما فيه.. خطواته الآثمة!

قل لي، هل أنا أنثى بما يكفى لك؟ هل أليق بمعايير شبقك! انظر إلى جيدًا، هل أكفيك! هل أرضيك أم ترغب في رؤية المزيد! أنت أبدًا لن تكتفي بواحدة كيفما كانت، ولو كانت أجمل امرأة على الأرض لن تكفيك، وستظل عيناك تدوران في محجريهما كلما رأيت ظل امرأة على الأرض، أنت لا تستحقني، أنت أبدًا لا تستحقني أيها الحقير، وأنا لا أستحق أن يتقاذف شخص مثلك قلبي بين الممكن والمستحيل، لا أستحق أن تُربِك كرامتي كخطية تخفي عارها، شخص منافق ومتلون مثلك لا يستقيم أن أربط به نفسي ومصيري، تبًا لك.

يا ليتها قادرة على هزيم الدمدمة تلك فوق رأسه! لكنها تعلم أنها لا يمكنها غزو الطاغوت بجندي مشاة لا يقوى على حمل قدميه! إذن، فلتحزن في صمت ولتكبح جماح خيالاتها الانتقامية الثائرة، وبالفعل بحثت بعينيها التائهتين عن مقعد خشبي خال من الحياة مواجه للبحيرة، احتضن آهاتها ودموعها تحتسي عينيها وتنهش بعنف خديها، لطالما راود منامها حلم ساحر عن فارس تخيلت أنها وجدته فيه لكنه لا يليق حتى بالفرس الثائر، لا زالت صهوته خالية تنتظر أن يمتطيها المروض الحقيقي الذي سيلجم قلبها!

ناولها "باسم" منديلًا ورقيًّا، وربت على كتفها المتهدلة وهو يجلس إلى جوارها مواسيًا: لا تبكيه.

أغمضت عينيها لوهلة تفرغها من بعض مساربها ونفت بكبرياء متذمر: أنا! أنا لا أبكي عليه، ليس هو من يُبكى عليه، أنا أبكي أسفًا على ما يحدث لي، أرأيتِ وقاحته! كيف يفعل هذا بي مع "سمر"، وأمام عيني؟!

- لقد حذرتك، وأظن حان الوقت لتلفظي أيًّا كان ما تشعرين به في هذه البحيرة ولا تعودي به.

طوحت رأسها بموافقة مخزية، وأبقت على الدموع الصامتة، استبدت بهما الدقائق، مرت قاسية، مؤلمة، مرتبكة الجواب عن كنه الخطوة القادمة، ولم يكن هناك أكثر مما قيل ليقال، كانت منهكة، خائرة، لا تقوى على شيء، فاكتفت بمراقبة "محمود" و"سمر" اللذين كانا يتمشيان على شاطئ البحيرة وحدهما، بقهر شريد!

***

اقتربت "ضحى" من "ندى" التي كانت تواجه شاطئ البحيرة بعينين ساهمتين، وأخرجت الأولى من جيب معطفها ورقة مطوية مبرهنة على ضعفها، مشاعرها محتضرة على صفحة ورقية، ذاك الكتاب الأمريكي السخيف يملي على قارئه كتابة رسالة يعبرفيها عن احتياجاته ومشاعره للطرف الآخر، وقد فعلتْ بعزم التحدي، راهنت بقلبها وكرامتها على طاولة قمار عربية! شرعت في تمزيع الورقة بشهوة هستيرية لسفاح يغمد خنجره في جثة فارقت الحياة، فشجعتها "ندى" حالما عرفت

بأمرها أن تمزقها مِزَقًا صغيرًا لتبدد أكبر قدر ممكن من حنقها، كانت قد اقتلعت أحشاء الورقة ودفنتها في البحيرة عندما باغتها حضوره.

- ماذا تفعلان؟

لم تتطلع هي إليه كما لم تعر "ندى" انتباهًا لسؤاله، وهتفت مشيرة إلى الدخان الذي كان قد تصاعد في هذه اللحظة من الاستراحة، حيث تولى البعض مهمة شي اللحم والدجاج: دعونا نذهب لنأكل حتى نتمكن من العودة سريعًا قبل حلول الظلام.

سار إلى جوارهما في طريق عودتهم إلى الاستراحة ومال عليها هامسًا: -ماذا بكِ؟

يا لفظاظته! ويسألها بعد ماذا بها؟ ما كل هذا القدر من الوقاحة التي يملكها! يأتي إليها الآن مستغربًا لماذا يبدو له أن بها شيئًا ما! تمنت مجددًا لو تتمكن من صفعه بالكلمات أو بغيرها، غير أنها لم تستطع قول ما يبلغ حتى مقام حرف هزيل من أي لغة، زجرته بعينيها فحسب، فتمهل في خطوته لتسبقاه فلا يعود ملزمًا بالسير إلى جوارهما.

***

- ماذا تسمعين؟

انتفضت "ضحى" مع عتاب "باسم" عندما لمح جريان خطوط دموعها، جلس إلى جوارها على مقعد الحافلة الذي احتفظت له به كما طلب منها، فوجئت به يجذب طرفي سماعة مشغل الموسيقى من أذنيها ليمتعض عندما اقتنص أغنية مؤذية كانت تستمع إليها: هذا

انتحارنفسي، لا تستمعي إلى هذه الأغاني مرة أخرى، إنها فقط تزيد من صعوبة الشفاء، "ضحى" يجب أن تكوني قوية وتنسي أمره.

كم هي مغفلة! كان لا يزال لديها بصيص من أمل أن يكون اختيار "باسم" الجلوس إلى جوارها تنفيذًا لرجاء "محمود" بتدخله لالتماس صفحها عنه! هي التي لم ترد أكثر من أن تكون له على الأقل زهرة أخيرة كما سيكون لها أول عبير، لم تدرك أنها تنازلت أكثر مما يجب مقدمة كل أحلامها على طبق من فضة لشخص لا يقدر قيمة معدنها، فلم تكن له أكثر من زهرة اقتطفها ورماها على الفور، داس على أوراقها الغضة، ولم يعرف أي عطر يفوح منها حتى، بينما التصقت بها رائحته ولن تغادرها أبدا، وستبقى لتذكرها أنه كان الأول وأنها لم تكن شيئًا له، لم يشم تضوعها قط، ولا يدري أي زهرة كانت!

- لم أكن شيئًا له يا "باسم"!

- "ضحى"!

كان موقنًا أن شعورها تجاه "محمود" ليس حبًّا، فماذا كان بينهما حتى تفعل! لا يعدو إعجابًا ما لبث أن اجْتَرأ إلى تحدٍّ عندما شعرت أنها بحاجة عاطفية إليه ولم ينلها منه شيء، يذكر من قراءاته أن الانسان يؤمن بقدراته وسحره الخاص ومعجزاته الذاتية، وعندما يقابلها الطرف الآخر بلامبالاة ويُصعِّر خده لها، يناوئ نفسه ويقنع ذاته أنه عاشق للطرف الآخر وسيجلبه إليه باللَهَج والنضال، ولا يثابر بثمة طريقة إلا لجَبْر كبرياء مَهيض ومخاتلة الصعاب على كِبْر النفس.

- ربما لا ترين الآن أبعد من عذابك، لكن إن دققتِ النظر ستجدين أنكِ فقدتِ إيمانك بالشيء الذي كنتِ تحاربين من أجله، وستجدين حتى كلماتك مهزوزة ضعيفة في الدفاع عنه، وستكتشفين أنه وهم لم تريدينه يومًا، وستتعجبين من قوتك عندما تديرين هذه الأزمة لصالحك، وتخرجين منها بهدف مقابل لا شيء.

لم يبردها تعاطفه وتشجيعه كما لو كان حممًا بركانية يصبها في بحر مسجور، شقت تنهيدة ملتهبة وجدانها ومذاق دموع مقهورة بين شفتيها، الوهم قبض على تلابيب المنطق، فحسبت نفسها زهرة دوار الشمس سينحني لها أينما تميل! حسبته فارسًا منقذًا لقلبها من طوفان الحرمان عندما لمحت بيده مظلة هشة تحمي من قطرات المطر الحزينة! رأته فقط كما أرادته أن يكون، إنما للهوى عنده مبدأ، فهو طير مهاجر مخلص للسماء لا ينتمي إلى عش!

خبطت "ندى" بكفها على صدرها بجزع عندما تقدمت منها فور ترجلها من الحافلة التي أعادتهم:

- يا إلهي! هل أنتِ بخير؟ عيناكِ حمراوتان كالدم ومنتفختان كالكرة!

تقدم "محمود" منهما بنزق واضح: أستاذة "ندى"، هل يمكنني الحديث إليكِ قليلًا؟

تطلعت إليها "ندى" لثوانٍ تستأذنها، وكأنما سمحت لها عيناها، إذ قالت وهي تسير إلى جواره:

- انتظرني هنا، حسن يا "محمود"، ماذا تريد؟

أبعدت "ضحى" ناظريها عن وقفتهما القريبة منها متجاهلة فضولها، أعصابها متهيجة لا تحتمل صمتًا في حضرته فنأت عنه، لم تدم علاقته بفتاة أكثر من بضعة أشهر وربما بضعة أيام، وطالما يعرف هذا عن نفسه لماذا إذن حاول المستحيل معها في البداية! لماذا يقبل شخص على نفسه أن يمتلئ بهذه الدرجة من السواد ويعيث فسادًا على غيره بهذا الشكل، أين آدميته؟!

***

- لا يحبني! لا يحبني! ماذا تعنين أنه لا يحبني؟!

صاحت "ضحى" بغير تصديق ودموع حارة تتجمع في مقلتيها اللتين قدحتا شررًا في وجه "ندى" البائس وهي تناولها منديلًا ورقيًا: إهدئي.

خبطت "ضحى" بعنف على مقود سيارة "ندى" الذي كانت الأخيرة تجلس خلفه، وهي إلى جوارها صارخة بكل ما يعتمل في نفسٍ مكسورة: كيف لا يحبني؟! لم يحبني أبدًا!! لم يحبني ولو للحظة، الكاذب الأناني، لمَ يفعل بي كل هذا؟! عندما كان يتلوى أمامي حبًا فيّ لم أكذب عليه يا "ندى" بشأن مشاعري واهتممت به، وهو لا يتحلى حتى بالتهذيب ليقولها لي، يرسلك إلي لتخلصيه مني! لأحل عنه!

هوت عبراتها بلوعة وعنف أشد من سقوط قطرات المطر بالخارج، والتي دفعتهما في الأساس داخل السيارة للاحتماء منها، بعدما صعدت آمالها به حد السحاب يُسقِطها بأوهامها متعمدًا من هذا العلو الشاهق، فيهشم داخلها أجمل ما كان به وبها!

احتضنتها "ندى" فترة كافية هدأت بالكاد من آهاتها: لا تفعلي هذا بنفسك، أتوسل إليكِ، لا يستحق هذا أبدًا، كان يجب أن تتوقعي هذا منه.

تماسكت بصعوبة بالغة وانسلت من بين ذراعي صديقتها، تغوص في مقعد السيارة حتى تكاد تختفي، مجهشة بحروف منتحبة متعثرة: لقد توقعت لكني أملت أن أكون على خطأ.

ثم تمتمت بارتعاشة قوية: قودي حتى يتأخر الوقت، لا أريد العودة إلى المنزل.

تتأتئ الأحرف فوق اللسان، عجزًا عن استلهام المعاني من الأعماق، دمعات ترقرقت في الأحداق، وظلام حالك حال بينهم وبين المكان، فيتلكأ القلب في انشقاق، مرهقًا من بذل جهد غير مجدٍ للنسيان، يتبعثر المنطق ويتشتت العقل، ويتوقف كل شيء، ويتهادى الندم على مهل، ويلوح الانكسار في الآفاق!

لزمن لم تكن متهمة بحبه، لكنها لم تهلل يومًا لبراءتها، وتعي جيدًا ذاك الصباح الحار الذي كادت تبكي معه السماء فقط لتلطيف حدته، وكادت هي تبكيه بدورها، اشرأب عنقها ومشت بتؤدة نحوه، تخبط خطواتها التي تحملها إليه تتوسل إليها أن تعود بها إلى الوراء، إلى حيث كانت، فلا تقرب منه ولا ترى ضيق جبينه المتجعد بأسى، وامتقاع عينيه الداكنتين، سخط أهدابه الكثيفة، وانعقاد حاجبيه الكثين في تجهم أسبغ ظلاله على ملامحه، ارتعشت يدها في مواجهة عينيه وسارت إلى

جواره مطرقة، لم ترَ وجهه شاحبًا بهذا القدر من قبل، فسألته بتوجس:
-كيف حالك؟

- أنتِ أفضل حالًا مني بالتأكيد.

لم تجب تهكمه وتبعته حيثما أشار عليها بالجلوس، مقعد خشبي يجاور حديقة مفعمة بألوان الزهور، أومأت بذنب وهو يطالع عينيها برجاء متخوف: هنا كان لقاؤنا الأول، هل سيكون الأخير؟

- "محمود"، لا تصعب الأمر علي أرجوك، هل تتصور أنه هين علي أن أراك على هذا النحو؟ ليتك لم تشعر بهذا نحوي.

- هذا أجمل ما شعرت به ولو وقفت الأقدار في طريقه فسأحتفظ به في قلبي للأبد.

زمجرت بحدة: بل يجب أن تنساني تمامًا، أنت تستحق أجمل وأفضل فتاة في الكون، وأنا موقنة أنك ستجدها.

همس بعناد طفل: أجمل وأفضل فتاة في الكون هي أنتِ، أنا أريدك أنتِ.

استولت على انتباهه بعفوية نظراتها إلى السوار الجلدي الأسود الذي يلتف حول معصمه، كأنما تريد الهرب من مجرى حديثها الآثم: أتعلم أن هذا السوار المعقد أربكني كثيرًا، كلما قابلتك كنت أطالعه وأحاول فك شفراته، كيف ترتديه؟

ابتسم بخفة كأنما لا يتوقع أن يكون السوار موضع حديث، خلعه موضحًا: إنه بسيط للغاية، هذه الأشكال المعقدة جزء منه لكنها ليست

مفتاحه، انظري إليه ها قد خلعته ببساطة، أتخيلتِ أني أفك هذه التعقيدات لارتدائه وخلعه!

أومأت بغباء ربما لأنه ضحك بشقاوة وهو يغمز بعينه مداعبًا: كم أحب طفولتك!

اصطبغ وجهه بجدية مفاجئة: "ضحى"، أعطِيني يدك.

تساءلت بعينيها، فطالعها بنظرة "فقط افعلي"، مدتها نحوه ليلف السوار حول معصمها: احتفظي به.

تمنعت قليلًا بوجل: لكنك تحبه، أنت ترتديه طوال الوقت، ألن تفتقده!

- سأكون أفضل عندما أشعر أن جزءًا مني معكِ.

أفرجت عن تنهيدة حارة وخاطر جريء يجول ببالها ولا يتوقف عن الإلحاح، فانصاعت له دون تفكير مطول، تسللت أناملها إلى لمسة أولى لكفه النحيل مربتة عليه بحنان مشفق: وداعاً يا "محمود".

توقفت "ندى" بالسيارة أمام منزل صديقتها الغارقة في الصمت، انتشلتها مما مضى ولن يعود بقولها:

- يجب أن تعودي إلى منزلك، لقد تأخر الوقت بما يكفي، وأنتِ بحاجة للراحة كما أن المطر قد خفف من حدة ازدحام الشارع بالمارة ولم يعد مقبولًا أن نستمر في التجوال هكذا.

أومأت "ضحى" بتحدٍ كأنما كانت تعد له العدة في صمتها: لن أدعه يستمتع بولهي به طويلًا.

ترجلت من السيارة وصفعت الباب خلف توتر صديقتها، هاتفة بتصميم وهى تستند بيديها على زجاج باب السيارة المفتوح، يبللها المطر كعصفورة هشة: لن يُغمَض لي جفن إن لم أفعلها غدًا، هاتفيه ودبري معه موعدًا، أخبريه أنكِ تريدين ملاقاته في الجامعة غدًا.

حثت الخطى إلى بنايتها، تطوي الطريق تحت قطرات المطر بوجدان هائج، توحش يتطاير بلا رحمة أمام عينيها، يحاصرها من كل صوب ولن تُبقي عليه ليسحقها وحدها، توقفت أمام باب المنزل وأخرجت مرآتها الصغيرة من حقيبتها السوداء، فهالها ما رأت حين طالعت وجهها بها، فسدت تمامًا زينتها التي وضعتها بعناية صباح اليوم، سال كحل عينيها في خطوط سوداء طولية متعرجة، تقشر أحمر شفاها ولم يبقَ منه سوى بضعة تكتلات باهتة عالقة بشفتيها، وتورم جفنا عينيها المنتفختين، فتأوهت بمرارة مشفقة على نفسها، وأخرجت منديلًا معطرًا مسحت به آثار الأسى الذي طفح على وجهها، والتقطت نفسًا عميقا قبل طرق الباب، فتحته "كوثر" بعد لحظات وضيقت عينيها متأملة بانزعاج وجه ابنتها الممتقع.

- "ضحى"، ماذا بكِ؟!

اقتربت "ضحى" من أمها بلهفة عابر سبيل إلى مأوى، لكنها تصلبت لوهلة مجحفة عليها، ارتخت بعدها أطرافها التي كانت تتهافت على ملجئها، طَمرَت بأعجوبة مذارف كادت تفضح قلبًا مفطورًا، أي ابنة بارة تُمعن في أذى أمها بهذا الشكل! تخذل أملها فيها وتخيب حسن ظنها بها! فلتخرس إذن ولا تتضوع ألمًا أمام عينيها، فلتتماسك وتصد عنها

الإغراء، فلتتنكب على المواساة وتصرف قلقها بلامبلاة هائلة.

عمر الأشياء بيننا لا يعَد ولا يحصى، بين أحضانك تجف الشكوى وتبرد النجوى، وبين المشرق والمغرب لا مجيب من البشر سواكِ، أمومتك هي المأوى، ولا أطيق أن يُخفى عنكِ سري، إنما هو في مداراته عنكِ تقوى، أخشى عليكِ مني، مما قد تسمعيه عني! فلا تسأليني عن حالي، رجاءًا.

***

أرادت حبه على عجل بينما كان له أجل، فلم يأتِ، رغم أنها رشت ذاكرتها كي تنسى ثقل منفضة قلبه التي أطفأ فيها فتيات محترقات بشعلة خذلانه!

لسلامة قلبها كان عليها أن تتفقد مخرج الطوارىء عندما زحفت إلى طريقه لكنها لم تكن تدرى أنها بحاجة إلى اختلاس الحيطة، ولم يخطر لها ببال أن نواياه مفترسة كنمر جارح، تخيلتها فى وداعة أرنب بري أبيض!كل ما فى الأمر أنها كانت جائعة وطلبته طبقًا رئيسيًا على مائدتها؛ قطمت قسوة قلبه النيء، واحتست مرارة لسانه، فتقيأته، وبقيت عصارة حماقتها الفارغة عالقة بحلقها حتى الآن!

سقط ندمها صريعًا على عتبات الذكرى؛ فخفقات قلبها كانت أعلى من صدى كرامتها.

لقد دبر مكيدته بإجرام محترف، فها هي كلما خلت بنفسها كان ينفرد بها، وكأنها تصرف عنها الجميع لاستقباله! جافاها النوم طيلة الليل، التحفت بظلام غرفة نومها الذي أبقت عليه إلا من ضوء شاحب

لمصباح زجاجي صغير الحجم جاور فراشها، غابت تحت دِثارها الثقيل، تخفي روحها عن العالم وتزهق الأنفاس الأخيرة لعزة نفس.

أفاقت على قسوة الواقع، فأقسمت أن تكون أقسى منه على نفسها، فلا تأخذها بقلبها الذي ضل طريقه وأوقعها في الشرك شفقة ولا رحمة، فقد استحق العقاب الذي أُنزل عليه، والآن عليه فقط أن يستقبله برحابة صدر، ويقنع ذاك الوغد أنه ليس بعقاب بل هبة من السماء.

تقدمته إلى أحد المقاعد الخشبية التي كانت يومًا مكانًا للقاء قلبيهما، واليوم جاءا كي يفترقا إلى الأبد، وبعد فترة من الصمت المشوب بالاتهامات المتبادلة، قطعته بهدوء بعدما استجمعت عزة نفسها التي أفرغتها في العتاب: كنت واضحة معك منذ البداية، ولم أسئ إليك مطلقًا أما أنت..

صمتت لبرهة تلتقط أنفاس الذكرى المنتحبة، بعدما كانت شمس الضياء بناظريه، أغلق فجأة كل نافذة تطل على السماء! وبعدما كانت فراشة هوجاء الألوان، أطفأ كل القناديل وأبقي على العتمة!

استطردت بلهجة لا تخلو من الانفعال: أما أنت فلم تتحلَ حتى بالتهذيب الكافي لتودعني بكرامة.

حشرته أفكاره بينها متعمدة، أهذا هو حبه لها الذي تخيلها تحتكره! كان يزروه شغفًا مُبقيًا بالكاد على بضعة أنفاس عادية هاربة منها فقط ليبقى على قيد حياة العشاق، وفجأة يمر عليه عاديًا، باهتًا، خاليًا من المؤثرات القلبية، أين ذهب كل الحب لها! أهو ذنبه أم ذنبها أنه توقف

عن حبها!

- كفي عن فلسفة كليات القمة تلك.

تأرجحت دهشتها من وقاحته بين البكاء والصمت فلم تملك إلا حدة التحذير: من فضلك، لا تستخف بمشاعري.

زفر بضيق معاتب: على أي حال، هذا كان خطؤكِ من البداية فلا تأتي الآن لتندبي حظك العاثر.

استفزها توهمه بأنها من أخطأت في حقه، وكأن هذا يمنحه الحق أن يفعل بها ما فعل، أي حظ عاثر هذا الذي يرى نفسه ماثلًا أمام حامله! من أفهمه أنها ليست محظوظة أن الساعة الرملية لقصتهما السخيفة تسربت حبيباتها حتى خوت منها؟! بالعكس، لقد آن لها أن تفعل، صاحت تهدم اعتقاداته المخزية: بل أنا محظوظة أن الرحمن بجلاله يرعاني لأنه خلصني منك فأنت لست جديرًا بي.

- ربما، لأني حتمًا جدير بالمرأة الكاملة التي ستقدرني ولن ترفضني أو تجرحني أبدًا.

جزت على أسنانها بغيظ نجح أن يدفعها إليه بتهكمه المتمرد: صدقًا، ألن تكف عن هذا الابتذال؟ تعقل، أنت لست ضحية، ماذا تسمي إذن ما فعلته في المحمية، وبالأخص تسكعك أمام الجميع مع فتاتك الأنثوية "سمر"؟!

- هي فتاة مكتملة الأنوثة بالفعل، لقد استمتعت بوقتي معها حقًّا.

رمقته بنظرة احتقار ردًّا على ابتسامته المغيظة إياها، وشددت على

قوتها في مواجهته: قديمًا رغم خلو قلبي منك، عندما كنت توهمني أنك تحبني وتغار عليّ، ورغم أنه لم يكن لك الحق لأن قلبي لم يكن ملكك، لكنني إن كنت قد أحببت شخصًا آخر غيرك في هذه الفترة، لم أكن حتى لأظهر إلى جواره أمامك مراعاةً لمشاعرك.

- أنا لا أحبك ولا أغار عليكِ الآن، فافعلي ما شئتِ.

أغمضت عينيها لوهلة بألم، وبلعت ريقها الجاف بصعوبة متساءلة بأسى حاولت إخفاءه عنه، حتى لا يظن أن لصفاقته المتعمدة أدنى تأثير عليها: ولماذا لم تقلها لي بنفسك؟ لماذا بعثتها في رسالة توسطت "ندى" لتنقلها إلي؟! لقد ودعتك بمنتهى الاحترام والتهذيب، لماذا لم تفعل المثل معي؟!

حدق في رعشة شفتيها متمتمًا: أنا آسف يا "ضحى".

تطلعت إليه قليلًا بغير تصديق لاعتذاره الواهي الخالي من أي لمحة ندم حقيقية، وهتفت غير مدركة أن جلّ ندمه فقط أن لها شفاه هي الأشهى له في الكون كله ولن يَخبر طعمهما يومًا: أراهن أن اعتذارك هذا فض للمجلس لا غير، لكني لست بحاجة إليه، فقد ساعدتك على اقتراف ذنبك في حقي، لا ألومك كليًّا فأنا بدوري لا أحبك.

عقد حاجبيه بدهشة فأردفت بزهو كاذب: أجل، اكتشفت هذا مؤخرًا، لا يهمني سوى كرامتي التي جئت اليوم أعاتبك على تعرضك لها، لا يعنيني أن تبقى بجواري وأن تكون مستقبلي، لو كنت أحبك حقًّا لكان قتلني خواء قلبك مني، لكن ها أنا أمامك، أواجهك فقط لبعثرتك

كبريائي على مرأى ومسمع من الجميع، أنا فعلًا لم أحبك.

استطردت بعصبية: وفي هذا الشأن أنا من أخطأت في حق نفسي، أنا من سمحت أن يطالني القيل والقال، وأنا من سمحت أن تتعرض وقاحتك لي.

- أنتِ كاذبة إذن!

نفت تهمته واحتقاره لها بهدوء مستفز: لا، أخطأت في ترجمة مشاعرى فحسب، وأنت لست بأفضل مني، كلانا ضحك على نفسه وكلانا قال كلام لا يعنه، لم يحب أحدنا الآخر وانتهى الأمر.

زيفت ابتسامة عريضة لمحو شكوكه في أنه لا يزال يحتل مكانًا في قلبها، وإثارة حفيظته لأنها ردت له فعلته بها: لا أعتقد أصلًا أنه كان يمكننا أن نكون أكثر من أصدقاء، أليس كذلك! هل تريد صداقتي؟

بدت على محياه ابتسامة شكت في صدقها، وهى تمد يدها لمصافحته بلطف غير حقيقي تهنئة على توقيع اتفاق الصداقة الخالية من معناها، وهو لم يتوان عن مبادلتها المصافحة المنافقة بود متكلف.

- حسن، لدي محاضرة الآن، يجب أن أنصرف، إلى اللقاء.

لحق بها مبتسمًا وكأنه صديق ودود مشيرًا إلى سترتها الملائمة لجسدها: بالله عليكِ تناولي قليلًا من الطعام يا "ضحى"، لقد نحفتِ كثيرًا، انظري إلى سترتك هذه كم هي واسعة عليكِ!

أومأت بامتنان مصطنع، وابتعدت عنه بابتسامة مترقرقة في قيعان مغرقة بالدمع.

سماء تلك الليلة بالعراء منطفئة بغير قمر معلق، كأن الضوء كله كان مسلطًا على نشرات الأخبار المحلية والنقل المباشر لأحداث تشهد الهرج والمرج، القتلى والفوضى، فتبكي "ضحى" وتطفر دموعها بجنون في حضن أمها، تواسيها بحنان يفوق حاجتها إليه ولم تزل ترتعد، تنتشي أمنًا وأمانًا لن يمنحه إياها غير رجل معدوم الوجود في حياتها، لمَ؟ لمَ؟ أيا وطن، لم يبقَ منك بعض لي، أين المفر وحتى أنت رحلت عني، حتى أنت كمن سبقك! فما بقي لي غير أمي، لو فقدتها سأموت أو أجن!

حتى شقيقها، وإن كان هو الرجل الأوحد على الأرض الذي توقن من حبه لها، غريزة نقية فُطِر عليها، أكيد لا يحتمل شكًّا ولا طمعًا فيها أو استغلالًا لها ورغبة يوقعها عليها، حبه لها هو الجمال الذي ذهب من العالم، حقيقة جميلة مؤكدة، لكنها بعيدة عنها كل البعد، وربما كذلك غير محتملة العودة إليها، تملك شيئًا نادر الطهر والنقاء، فائض الحس، باذخ الأمان، تملكه ولا تكاد تلتئم عليه، في متناول يدها ولا تطاله، تعي حبه لها غير أنه لا يُظهِر منه شيئًا لها، وفارق هائل بين الإدراك والشعور، في الإدراك معرفة، إنما الحس إيمان، إقرار به! وهي تفتقد إقراره بصك ملكيتها لهذا الشعور الذي تحفى عليه ولا تناله! أي قهر هذا! وبأى دعوى! أيا أشقاء العالم، مذكري القوالب والقلوب، فلتلبوا نداء شقيقاتكن رحمة بهن، فلتنلن من محبتكم جانبًا.

قبعت وحيدة بوجوم على فراشها الوثير الذي توسط غرفتها، وقد شخص بصرها إلى الجدار المواجه للفراش، تعتليه لوحة عملاقة

مرسومة بفرشاة شقيقها لطفلة صغيرة تضحك ملء شدقيها بين ذراعي والدها، كم تحتاج إلى أبيها! وتشتاق إلى واقع حياة معه سلخه الزمان حتى بات ذكرى باهتة، فأيامها معه كأنها لم تعشها بما أنها الأعوام الأولى من حياتها! كأنها لم تكن لها! لا تذكر عنها سوى ما تطالعه في صور فوتوغرافية قديمة، لقطات عديدة على وجهها سعادة منحوتة، غائرة حتى الأعماق، من الغريب أنها لا تذكر جيدًا تلك الأيام! حتى ذكراه أخذها الزمان منها! ما علق بذاكرتها حقًا هو ما حدث بعده! في يوم بعينه عندما فارق الحياة، فقدته في حادث سير، ولم يبقَ منه سوى اليتم والحرمان، ولم يبقَ بعده غير الألم الذي أسبغه رحيله على أرملته وولديه الوحيدين.

هب الخبر رغم خفوته قويًا هادرًا كحكم بالإعدام، تحرر كقذيفة أطاحت بطفلة العشر سنوات بعيدًا مئات الأمتار، كانت بمريولتها وحقيبتها المدرسية عندما خطت داخل المنزل وعبرت بابه المفتوح سلفًا، اغرورقت عيناها دهشة وفزعًا حينما تناهت إلى سمعها همهمات مستنكرة وملتاعة، استندت بجسدها الهش إلى الحائط سعيًا خلف المزيد من صدمة ما وراء الباب المغلق، لطالما كرهوا تطفلها الطفولي وإن ساقتها قدماها إليهم ببراءة سيحملونها حملًا إلى غرفتها مع عدة عبارات مؤنبة.

عادت من يوم دراسي ممل طويل ليطيح بها الخبر الذي قصم ظهرها، انكمشت على نفسها حين هبت العاصفة، صراخ وعويل من كل صوب ودموع تتهدج على وجهها، بسطت عيناها في الأرجاء لترصده منزويًا

بأحد الأركان وعيناه التائهتين تطالعاها، لم تستطع حتى اليوم تفسير تلك النظرة ولم تسأله عنها، لم يدر بخلدها قط أنها نظرة ستستقر هناك ولن تفارق هاتان العينان يومًا! حطت عليه بعبراتها ورجفتها واستفهامها، فلم يحرك ساكنًا ولم يغرزها بأحضانه كما تمنت، تأوه فحيح متلجلج مستنكر من بين شفاهها: «ناير»، أين أبي؟

لم تنل منه سوى بضع همهمات تأمرها بأن تلتزم الصمت، لطالما كان هادئًا وكان مجرى الحديث بينهما مآله الجفاف، كم مرة أغرقت المجرى بالمياه إلا إنه كان يضيف إليه حينها مزيدًا من الوحل! يكبرها بست سنوات، حسدته على حكمته باستياء عارم من بلاهتها، يتشبث لسانها بمزيد من الرجاء فلا يجيب، امتعضت مديرة بصرها إلى باب الغرفة المغلق الذي جزمت من تعدد الأصوات الصادرة عنه أن جمعًا من المقربين يحيطون بأمها، ظلت عيناها معلقتين بالباب المغلق حتى خلعته على مصراعيه عمتهما، شهقت عندما اقتنصت عيناها الغائرتان الأسى المرتسم على وجه طفلين افترشا الأرض، تكالبت الدموع بغزارة على مقلتيها وهي تسرع الخطى نحوهما، وتضمهما إليها تشبعهما دفء صدرها «لا تقلقا سيكون كل شيء على ما يرام»، لكنه لم يكن أبدًا!!

لقيت في نفسها تناقضًا واضحًا لاسمها ومعناه، اختاره لها والدها الحبيب تيمنًا بشروق الشمس والنهار الجديد، لكنها لا تراه أبدًا مثله نابضًا بالنور والأمل، ناقص، تنقصه تاء مربوطة بآخره ليجسدها وليلها الطويل الذي يرفض أن ينجلي! على الأقل بحق ليلة أعلن العالم يتمها، فتُركَت مع شقيقها الوحيد مؤتمنًا عليها إذ لم يُقبَل مرافقتها،

مسحت عمتها بيدها على شعرها وهى تطمئنها بدموع متزايدة في عينيها، فيما يحمل زوج عمتها انهيار أمها بين يديه ويضعها في المقعد الخلفي لسيارته، تعلقت بملابسها وصرخت كما ينبغى بطفلة أن تفعل «لا أريد البقاء مع «ناير» يا عمتي أريد مرافقتكما»، ربتت عمتها بسرعة على كتفها بحزن واضح، وأسرعت الخطى للحاق بالسيارة التي اشتعل محركها، «أمكما ستكون بخير يا «ضحى»، سنصطحبها فقط إلى المستشفى للاطمئنان عليها، اصعد بأختك يا «ناير» إلى المنزل، وسأعود إليكما في المساء لأبيت معكما».

لا تذكر كيف باتت الليلة، بالتأكيد لم يفارقها الخوف، بالتأكيد أعيتها الحاجة لأمها، طفلة بلغت بالكاد عشرة أعوام لا تعي ما يدور حولها! لا تدرك بعد الحاجة إلى أب وسند، لا تعرف معنى الحرمان منه، تعرف تاريخ الحدث لكن تجهل متى شعرت به! يعيها زمن الذكرى المعنوي، يَصعُب عليها الجزم، أكانت تلك الفتاة بالضفائر البلهاء التي ترى ولا تدرك، تسمع ولا تعي، أم انكسر قلبها منذ زمن بعيد؟! لم تستطع وقتها وضع قطع «البازل» جنبًا إلى جنب بشكل صحيح لتتمكن من رؤية الصورة الكاملة، لم تكن تدرى كيف لتكون حياتها من دونه! فهمت لكنها لم تستوعب، كانت هذه الخطوة متقدمة على سنواتها العشر، أما الآن باتت تفهم جيدًا كيف هي حياتها من دونه، من دون أب، من دون أخ، من دون رجل، من دون وطن!

***

نهرت «سلمى» ضعفها: تمالكي نفسك يا «ضحى»، صدقيني لا أصعب من أن تفقدي أبًا لم يمت، يكفيكِ عظيم أملك في أبيكِ، إنه لشخص جميل كان ليأتي بأشياء أجمل لو بقى حيًّا، فماذا لو لم يكن كذلك ببساطة! لو كان أبًا محسوبًا عليكِ بقاؤه على قيد الحياة إنما هو ميت بداخلك!

تحجرت عبرات «ضحى» في عينيها مغمغمة: تقصدين والدك؟!

أطرقت برأسها مجيبة: أجل.

قالت بمزح مصطنع محاولة التخفيف عنها: هل سئمت من شكواي كل مرة فحان الدور عليكِ أن تشكي هذه المرة يا «سلمى»؟

هزت رأسها بقوة: لا، تعلمين أني اعتدت ألا أشكو، بمَ ستعود علي الشكوى! هل سأشعر بتحسن! بالعكس، مجرد حديثي عنه يزعجني لا يريحني، الفضفضة لا تأتي بنفع في كل الأحوال، بعض الأمور شأنها أن تُترَك على حالها فحتى الحديث عنها يزيدها سوءًا.

- على الأقل صارحي «نایر».

- لا شيء يقال أصلًا يا «ضحى»، أنا بت أنفر من أبي حد أني لا أرجو عودته إلى ما لم يكن عليه يومًا، لا أنكر أني أحيانًا أحتاج إليه، لكن كلما أكبر كلما يصغر احتياجي إليه، ويومًا ما لن يعنيني في شيء هذا ما أعتمد عليه، وإن غدًا لناظره قريب.

ثمة حبل كانت تشده «سلمى» حول رقبتها، لم تكتم به سوى أنفاسها، وليس هنالك ما يرجى من تقليد حركة الحواة على خيط رفيع لا يستطيع

غيرهم أن يسير عليه ويكمله حتى آخر الخط! وما هي بحاوٍ! تحاول أن تخفف قبضة الحبل الملتف حول عنقها، لعلها تربح بضعة أنفاس حرة تذكرها أنها لم تخسر كل شيء بعد.

***

ارتعدت السماء بقسوة وهبت تفرغ جوفها من وابلٍ من قطرات مطر خفيفة، في اليوم الأول من إشراف النشاط الجامعي على بدء دورة «إدارة الأعمال» التدريبية ببداية الفصل الدراسي الثاني انغمس رؤساؤه ومنظميه كلٌ في مهامه بين إعداد قاعات الصفوف والتنسيق مع الطلبة والأساتذة. نقلت «ضحى» بصرها بينه وبين دفقات المياه التي فاضت من سحابة غائمة كانت تحجب شمس الشتاء البارد، متذكرة أنه في يوم ممطر كهذا انفطر قلبها وأصبحت أخرى غير التي كانت عليها من قبل، تنهدت بأسى وتطلعت إليه وهو يداعب هذه وتلك بمزحاته دون أن يراها، لم يعد يهتم حتى ليطالع نظراتها بينما تفتش هي عن نظراته طوال الوقت، تريده أن يلاحظ كيف باتت تضيق ملابسها أكثر فأكثر، لتمحو شكوكه في نحافة جسدها التي ذمها بها، وتُظهِر من الامتلاء المحبب القليل الذي تملكه.

ذكرياتها معه تتدفق أمام عينيها كدفقات المطر، حادة في وجعها، تلسع كيانها البرودة التي أصبحت عليها، تناظره وماضيها معه وكلها يقين أنه خائن! الخيانة الأكبر من خيانة رجل لحبيبته مع امرأة غيرها، أن ينساها ويتوقف عن التفكير بها ويرمي كل خططه لإبقائها في حياته وراء ظهره، يلغي وجودها من حاضره، فلا تجد مكانًا لها في مستقبله،

وبمنتهى الصفاقة يمحو ذكراها من ماضيه! لم يكن سيء النية! أجل تصدقه، لقد ذبح اليمامة بنية صافية، كان غرضه أن تشبع معدته، لم يكن يدري أنه بعد مرأى دمائها مراقة على الأرض سيفقد شهيته!!

لو فقط يعلم الرجال فيم حاجة الإناث الحقيقية إليهم، لما تقربوا من امرأة بغية قضاء وقت لطيف لا يستحق كل الألم الذي ستشعر به بعدما يقرر هو أن الوقت معها كف عن كونه لطيفًا، لن تضاف حينها إلى خبراتها إضافة تُحسَب لها وتفخَر بها وتحرز لها تقدمًا مع غيره كما هو الحال معه، هو وأمثاله من الرجال صاحبي الخبرات والتجارب المشروعة من المجتمع القائمين على أنقاض إناث ساذجات، مفرطات في العاطفة، مجرد أرقام على لائحة رجل!

مسحت بحنق دمعات تسربت من عينيها رغم عزمها على مقاطعة العبرات، وسألت «ندى» بنزق: متى ستكف عن البكاء؟!

- ستفعلين، وحينها لن تتوقفي عن البكاء فحسب بل وستضحكين على كل ما أبكاكِ.

زمجرت بيأس: وهل يعقل أن أضحك يومًا على ما ذرفته دموعًا؟!

طالعتها "ندى" بإشفاق، تخمن توقيتًا معقولًا للضحك! عندما تفرش فتاة قلبها الممزق وسادة لنزوات شاب، عندما تلملم دموعها لترسم بسماته، عندما تدور كقمر بريء في فلكه لتضيء حياته، ثم تكتشف أن هواها آخر همه، فمتى يمكنها أن تضحك!!

***

التصقت "ضحى" بالمرآة تتفرس طويلًا في وجهها الذي يشبه وجه أمها عندما كانت بعمرها، حملقت بامتعاض في عينيها البندقيتين اللتين يتناسب حجمهما الصغير واستدارة وجهها، عرض حاجبيها وقصر أنفها، مررت أناملها بين الشحوب البني لخصلات شعرها، وأفلتتها لتتلمس امتلاء شفتيها بما كان في نفسه من شبق عندما وقعت عيناه عليهما، أغمضت عينيها لبرهة ممتدة وعادت تفتحهما من جديد لتطالعها ذات الصورة، فأبعدت ناظريها عنها بتبرم، "لستِ حلوة كما كنتِ تظنين!"، ابتعدت عن المرآة قليلًا وسارت جيئة وذهابًا أمامها لتتمكن من رؤية جسدها بالكامل، وما هي إلا ثوانٍ حتى هجرتها تمامًا، مقتربة من النافذة بعينين دامعتين، "ومعالم أنوثتك ضائعة بين وجهك الطفولي وجسدك النحيف".

أشاحت ستارة النافذة من قماش التل المخرم، ورفعت عينيها إلى السماء المظلمة، ترمق بقهر النجوم المضيئة البعيدة التي قال لها يومًا أنها تشبه إحداها، تناهى إلى سمعها طرق خفيف، فأدارت عينيها إلى باب الحجرة حيث وقفت "سلمى"، بادرتها برغبة ترغي وتزبد في خاطرها:

- سأبدو أجمل لو خلعت الحجاب يا "سلمى"، أليس كذلك؟

- أي جنون هذا! بذمتك أيستحق شخص مثله أن تفرطي فيما أنعم الله به عليكِ!

- ماذا تقولين؟!

حثت "سلمى" خطاها ناحيتها قائلة بتروٍ: "ضحى"، ما فعله ذاك

الأحمق بكِ ليس لما أنتِ عليه ولكن لما هو عليه، أنتِ جميلة يا حبيبتى كيفما أنتِ وحجابك يزيدك جمالًا.

زمت شفتها بغير اقتناع: أنتِ لستِ محجبة يا "سلمى"!

حطت أناملها على كتفها معاتبة: لكن أتعشم أن يهدينى الله ويقويني عليه يومًا قريبًا، أما أنتِ فتحجبتِ بإرادتك وبكامل اقتناع، فكيف تجرؤين على أن ترتدى عنه؟ لا تسمحى له أن يؤذيكِ أكثر مما فعل.

***

كم اشتاقت "ضحى" إلى البحر! لطالما كان ملاذها الآمن بديارها، كانت تبكيه فيُفرغ ذاتها من بعض التعب، أخذت مقعدًا في شرفة المنزل المطلة على النيل، محاولة البحث عن بديل لبئر الدموع، شخصت ببصرها تلتهم بنظراتها الجشعة المياه الرقراقة، تسري بعذوبة تحت حمرة قرص النور القاني في طور ذوبانه في مجرى النهر، جلست أمامه متسمرة فعجزت حتى أهدابها عن ارتعاشة بسيطة، وتوقفت الذكرى كغصة نافذة بحلقها، فما استطاعت الدموع التي تجرعتها مع أنفاسها المختنقة أن تزيحها من مكانها قيد أنملة، ذكرى مخضبة بشجن البداية ومرار النهاية، بحنين اللهفة وكمد الصدفة، بلوعة الفراق وشظايا الاحتراق، بقسوة الانتظار وعنف الاحتضار!

عيناها مرهقتان من بكاء ممتد طيلة ليال، بكت شوقًا واحتياجًا لأبيها، فما كان ليسمح لعمها أن يضع إصبعًا واحدًا عليهم، وكان ليسحق "محمود" لتسببه في قهر ابنته، بكت قسوة الحياة عليها بهذا

القدر، تحرمها من والدها ومن كان ليعوضها عنه، فلا هو بعمها ولا بشقيقها ولا بحبيب صاحب جرح مهين لم يكن يليق بها، وبكت حتى أحلام ضائعة بعودته نادمًا، فقد رأته قبلًا يجلس في جوربيعي إلى جوار فتاة جميلة جلسة حميمية تشي بأن بينهما شيئًا.

ألَق طل من عينيه ما إن تقابلت نظراتهما، ابتسامة وَامِضّة على شفتيه، وبهجة لم يلقها بها منذ افترقا وادعيا صداقة لم تتعدَ السلام والتحية، كان يتعمد إغاظتها لكنها أبت أن تبدو عليها ولو لمحة من الغيرة، فبادلته الابتسامة بأوسع منها، وأقبلت عليه مرحبة به وبالفتاة التي قدمها إليها بحبور مقيت بصفة حبيبته، صافحتها وأثنت على جمالها واستئذنت بلباقة حتى تتفقد الأصدقاء، وما إن أدارت وجهها عنهما حتى أطلقت سراح دمعتين حبيستي الكرامة.

ترفعت بعدها عن الرحيل وبقيت مناشدة المواجهة، مثابرة البقاء أمامه تُشهِده مَضَاء قوتها وسعادتها، وتثبت لنفسها دُرْبَتِها التي لا يقهرها الألم كلما رأته مع فتاته الجديدة، كلما طالعت عينيه اللتين كانت تقرأ فيهما قديمًا كتبًا سطورها حب وغرام، والآن باتت الصفحات بيضاء خالية من أي حرف! في الوقت الذي امتلأت فيه صفحات صراحتها مع والدتها بسواد الكذب، باتت تكذب عليها وتخفى عنها، فماذا كانت لتقول لها!

أكانت لتصارحها أن ابنتها هنا لا تملك غير أن تتلمس رؤية شاب لا تعني رؤيته لها شيء، بل ربما تزعجه! تتعذب بمرآه أمامها لا إلى جوارها لأنها تخشى غَشْية عينيها عنه، حتى لو لم يكن يبادلها النظرة، حتى لو

احتفظ بنظراته التي تتمناها لفتاة غيرها! لا يراها بينما لا ترى سواه، كل شيء حولها يتوسل انسحابها الكامل عن عالمه بينما لا تستطيع قدماها أن تتراجع خطوة! كلا، ليست بحاجة إلى قلبين جريحين، يكفيها واحد، وإن بدا أن القدر لا يكفيه قلب واحد، مصيب بالجرح كل القلوب!

على أنها فجأة وبدون مقدمات، توقفت عن لعب دور صديقته الطيبة، كأنما نامت ليلتها وصحت تقسم أن تقلب له ظَهْر المِجَنّ، ربما لأن "ندى" واجهتها مرة معاتبة بأن تكف عن لطفها معه لأنه يسيء فهمه، فانبرت مدافعة أنها تعامله على هذا النحو حتى لا يظنها تهتم بأمره حد الحقد عليه لما فعله بها، لكن "ندى" أبطلت حجتها بأنه يظنه ضعفًا أمامه وولهًا مضاعفًا به، لذا أسقطته من حساباتها تمامًا طيلة الوقت الذي يجمعهما مكان واحد، بالأخص عندما كان يوجه لها خطابًا مباشرًا، فاق استمتاعها العَسَف عنه مطلق الحدود، أَتْرَعها بالقوة والعنفوان وهيبة الكرامة، حتى كانت الليلة الربيعية الأخيرة التي تراه فيها.

***

obeikandl.com

-5-

تلاحقت أيام الربيع تُطفئ زهرة نيسان، وتقلب حياتها رأسًا على عقب بين ذكرى مقتحمة ونسيان متعجرف ودموع جارية لم يبدُ أنها تعرف الجفاف باختلاف المواسم!! باتت "ضحى" تغوص بين صفحات كتب الدراسة ولا ترى إلا سطور عذابها، تتبعثر الحروف أمامها لتشكل كلمات قالها لها أو كلمات قالتها له! وبين كل كلمة والأخرى كانت تبكي سطرًا، وبين كل فصل والآخر كانت دموعها تكفي لملء مجلد، تمر عليها الساعات محدقة في صفحة لا ترى منها غير دموع مغرقة، وكل ما يدور في بالها سؤال لا يكمن جوابه في الكتب، ولن يسائلها أحد عنه وإن حدث لن يسعها الإجابة عليه، "هل حقًّا انتهى أمري لديه؟؟"

وتكتمل خيوط المؤامرة، فقليلًا من الليل ما تهجع، يتحرش بليلاها سواره الجلدي الذي أهداها إياه قديمًا، يتآمر ضدها، يؤكد لها أنه ليس جزءًا من قلبه اقتطفه ليهديها إياه فتذكره وحبه لها أمد العمر كما توهمت، بل هو مجرد أثر هش على أن صاحبه مر بحياتها حقًّا وأنها لا تختلق الذكرى! كيف تنجو من مكيدة كتلك! وتتوقف عن السهر والانتظار؟! تبًّا لكبرياء ساذج يأبى الرحيل مهزومًا، لا يزال ينتظر عودة المنتصر عليه نادمًا!

أجل، لا زالت تنتظره بحماقة طفلة ساذجة، تنتظر عودته كي ترفضه

ثأرًا لكرامتها! وليس في عودته من سبيل لها للانتصار! إنما هزيمة محققة، فشكوك قوية تساورها إن عاد لتقبله، كوطنٍ لم يكد يتخلص من عهدٍ بائدٍ حتى يصوت على إعادته إليه! كأنما يتدارك ما سيحل به بعده إن كان خيرًا أو شرًا فقد اعتاد على خير وشر واقع وانتهى الأمر، ذلك أن الخوف من المجهول أعظم من الخوف من مصير الواقع وإن كان بالغًا من الرعب مداه! على أي حال لا تظنه سيعود، لا تظن القدر يسعى خلف ما تبقى لها من كرامة، فالقدر لا يرضى بالفتات!

يفت في عَضدِها بطء تعافي الذكرى الموجعة، فيشهر جسدها استسلامه أمام هذا الفيض المجتاح، يتخلى عنها معلنًا ضعفه وقلة حيلته، رافعًا الراية الحمراء التي أنهكتها على غير العادة الشهرية، فاضطرت أن تقوم باستشارة الطبيب الذي أرجع هذا الخلل بها وزيارتها لها مرتين شهريًا إلى اضطراب نفسي حاد، ربما لهذا انتابها شره مفاجئ غير عادي وأصبحت عادة لديها أن تلتهم ما أمامها دون تفكير.

تطيرت "ندى" فورما أخبرتها "ضحى" أنها ستعود إلى المقصف لإحضار شطيرة أخرى غير التي فرغت من تناولها للتو فهزت الأخيرة كتفيها مبررة: لا زلت جائعة، ماذا أفعل؟!

- يبدو أنكِ جائعة منذ فترة، انظري كم ازداد وزنك في الآونة الأخيرة! لكن أصدقك القول، لقد أصبحتِ أجمل.

التمعت عيناها وشهقت باستمتاع: حقًا!

- لا تصدقيها.

استدارت "ضحى" بإحباط إلى "علي" لكنه أضاف مغازلًا: فأنتِ جميلة منذ اليوم الاول.

اعترضت ثغر "ندى" التواءة ساخرة فيما أردف وهو يبتعد: انتظراني قليلًا، سأذهب لإحضار قهوتي.

تابعت "ضحى" خطواته الواسعة بشرود طفيف، استقطرتها "ندى" منه مستفهمة، فتهاوت الأولى بعنف على المقعد إلى جوارها، فصاحت الأخيرة بفزع مثير للضحك: ماذا دهاكِ؟

- هل أصارحك ولا تهوري؟

تطلعت "ندى" إلى تخوف "ضحى" بعينين متساءلتين فى حين أردفت الأخيرة بذنب: تصوري، لا زالت تلك اللحظات المعدودة الباهتة معه تندرج تحت بند سعادتي ولو كانت لحظية!

قامت "ندى" من مجلسها ولملمت كتبها باستياء واضح: لن أضيع وقتي الثمين في هكذا هراء، لدي محاضرة ألقيها على طلبة يستمعون فعلًا إلي بآذان مرهفة لا صمغية كأذنك.

تخللت شفتي "ضحى" ابتسامة واهنة ترقبها تغادر، وفي محجريها يتكدس الدمع، صدقتِ، كم أنا مثيرة للشفقة!

- لماذا غادرت؟!

تساءل "علي" الذي احتل مقعد "ندى" فأفصحت "ضحى" عن خيبتها: لقد ملت مني.

نفى بهزة من رأسه، وقال من معسول الكلام ما اعتادت عليه منه: لا

أحد يمل منك يا "ضحى".

- صدقني، هناك من يفعل، أنا نفسي مللت مني.

انتبهت فجأة من شرودها: "علي"، قل لي، كيف أتمكن من النسيان؟!

حملق في عينيها المبللتين لثوانٍ وكأنه لا يصدق أن هذا السؤال صدر منها، ربما لأنهما لم يجمعهما حديث شخصي من قبل، تساءل: ألم تستطيعي نسيانه بعد!!

- لم أتمكن من تجاوزه بعد، حتى انتهى بي الأمر إلى أدائي السيء في كافة المحاضرات ومشروع البحث الخاص برسالة الماجيستير.

- ألم يكن لديكِ اليوم اجتماع مع المشرف حول خطة البحث؟ آسف، نسيت أن أسألك كيف أبليتِ؟

- ألم أقل لك! كان أدائي سيئًا، لم يحدث لي هذا من قبل، أنا تخرجت من أوائل الدفعة على الكلية يا "علي"! لكن تفكيري المستمر بكل ما فعله بي يشل حواسي ويفقدني التركيز.

- ما الذي فعله بكِ؟!

حدقت في وجهه بدهشة مبدية إنزعاجها: وكأنك لا تدري!

- أتدرين لم سألتك ما الذي فعله بكِ؟ لأن نجاتك منه تكمن في إجابتك على هذا السؤال.

- لا أفهم، ماذا تعني!!

- تفهمينني، عادةً الإنسان لا يمكنه نسيان الإساءة والأذى، لذا حاولي رؤية ما حدث لكِ منه بعين أخرى، حينها سترين أنه مجرد شاب ساذج

يجري فقط وراء عواطفه دون أن يحتسب العواقب، فعندما تقرب منكِ راغبا فيكِ كان حقًّا يشعر أنه يحبك، وعندما تعقدت الأمور فيما بعد ولم يعاملك بالطريقة اللائقة التي كان من حقك أن تُعاملي بها كانت مشاعره تملي عليه اتجاهًا آخر، إنه غِريندفع وراء مشاعره مهما كانت ما تمليه عليه دون الأخذ بالاعتبار ما قد يتسبب فيه من أذى، فأولى أن تشفقي عليه على أن تشفقي على نفسك.

- إذن، إذن هو حقًّا أحبني أو على الأقل توهم ذلك؟!

- "ضحى"، أفيقي، ليس هذا هو المهم، توقفي عن جلد نفسك وإيهامها بأنها أفضل مخلوقة في الكون إن أحبها "محمود"، وأنها مخلوقة ليست جيدة بما يكفي لأن "محمود" لا يسعى وراءها، لا تمحوري نفسك عليه، ولا تتجاهلي أنكِ مخطئة، أخطأتِ عندما اندفعتِ بلا تفكير وتجاهلتِ علامات الاستفهام الكثيرة التي بالتأكيد مرت عليكِ ولم تجدِ لها إجابة ومع ذلك واصلتِ الطريق إلى المجهول، اعترفي أنكِ أخطأتِ وأنكِ تستحقين العقاب، هذا كان درسًا قاسيًا حتى لا تعاودي الكرة وتنتبهي لمشاعرك في المرة المقبلة.

اعترضت بحدة: لا أتنصل من خطئي يا "علي" لكن ليس عدلًا أن أخلي ساحته من الذنب، خطأى كان أني سمحت له أن يفعل بي هذا ولهذا استحققت العقاب، لكني لن أكون لأجله ممتنة فأنا أصلًا لم أستحق أن يُفعل بي هذا من البداية.

- لم يكن ليفعل بكِ شيئًا بدون مساعدتك، أنتِ مكنتيه منك، ويجب

أن تكفي عن هذا ولا تتخلي عن حقك الذي فرطتِ فيه بما يكفي، أتعلمين لمَ شاركتُ في تظاهرات أمس؟ لأني أرفض الوصاية ممن ليس له حق فيها، الثورة على الباطل مستمرة ولا مجال للتنازل عن حقوقنا، فلنحيا كرامًا أو فلنمت، إنها مسألة وجود، وأنتِ بدورك، لا تخرجي أبدًا خالية الوفاض من المعركة، عليكِ أن تربحي من هزيمتك، فطالما هُزمتِ فيها فإذن ربحك منها كان يستحق عناء خسارتك، ثوري واستعيدي حقك ممن وليتِه بنفسك على نفسك.

أرهفت انتباهها إليه بعقل يُسقِط كل كلمة منه عليها، أي معروف يسديك أحدهم أجدى من طريق نجاة قبل قاب قوسين أو أدنى من هاوية! السم في العسل! وقد عافاها من العسل معه فلتتعاف إذن من سمه عليها، تُوقِف سماعها لتلك الأغاني المثيرة للعذاب، وتكف عن التفكير في الإهانة وإثارة الشفقة على نفسها، كفاها بكاءًا، كفاها فتكًا بفؤادها الهش، فلتذكر ما قاله وما لم يقله، ما فعله وما لم يفعله، فلتر هذا وذاك بعين الحاضر لا بعين الماضي، فلتعري الذكرى من الوهم حتى يمكنها خلع الحداد عن قلبها، فلا يمكن لما كان بينهما هذا أن يكون حبًّا! لقد كانت تبكي شيئًا آخر غير الحب، شيئًا لم يوجد إلا في مخيلتها لأن هذا بالتأكيد لم يكن حبًّا.

وهو ليس له من سلطة على قلبها، فلتَثُر إذن عليه كما الشعوب العربية الفائرة بالثورات على كل حاكمٍ غاشمٍ معتدٍ، لن توليه عليها بعد اليوم، ولتطوِ هذه الصفحة تمامًا بحلوها ومرها، فلتصب نفسها على صفحة بيضاء تخط أول نقطة على سطورها منذ هذه اللحظة، كفاها تشبثًا

بالذكريات، فلتقتلعها تمامًا وكأنها أبدًا لم تعشها، فلترتفع عن الذكرى الحلوة قبل المرة لأنها هي التي تزيدها مُرًّا، فلتكن كرامتها في نسيانه ودفن أحلامها التي كانت معه في الوحل، ولتُنصِّب على قلبها فارسًا بحق يقدره حق قدره لا قاطع طرق العذارى الساذجات، ولتتمعن في اختيار الفارس هذه المرة، فهذا ما جنته من هزيمتها، أليس كذلك!

ثمة هم آخر كان يجثم بقسوة على قلبها، ذنب يكتنف ضميرها، لتخلي طريقها إلى الفرح عليها أن تفضي مكنون صدرها إلى أمها الغالية، يجب أن تستعيد صداقتهما التي لطالما ربطتهما ببعضهما، والدتها لها أكثر من أم وهي لها أكثر من ابنة، بالأحرى توأم روح، ومن ذا الذي يكذب على نفسه ويخفي عنها مآقيه؟! وهكذا توسدت صدرها بندم بعد جهد وأخفت خجلها بعبق حنانها وتفهمها، استنطقتها أمها بجزع فصارحتها بالقصة... إثم غفرته "كوثر" لها عندما تعهدت ألا تقربه ثانية، وغمرتها بحنان قلما تجد مثله بغير قلب أمها التي أنبتها حدسها بابنتها قبل زمن، فباتت تنتظرها، وكانت على يقين من مجيئها إليها، وتدعو لها منذئذ.

***

كما ذهب الوهم اختلاجات الفؤاد الأولى، كان يهب قلبها للأيام الغابرة ذكراها القاسية ملقيًا حمولتها الثقيلة في بئر النسيان، برغبة ممتنة في توديعها وداعًا خاليًا من أدنى نية للقاء، ومراقصة وحدته المؤقتة التي تعينه على الشفاء، وها هو يفارقها ذاك الشيء الذي لم يوجد سوى في مخيلتها، ذاك الشيء أيًّا كان اسمه الذي اقتنص حلمها المؤبد وجمعها به، فلم تستبقِه بل هنئت قلبها على رحيله رويدًا رويدًا.

كان خطؤها أنها لم تتصدَ لتلك الجريمة في بداياتها، بل شاركت فيها ولم تكتفِ بكونها مجنيًّا عليها، لم يكن يفترض بها في الأساس نقض مبادئها والانجراف وراء ما ترفضه منها لرغبات مؤقتة، فانية، تتعلق في مجملها بكرامة وكبرياء أنثى، الكرامة تكون في التمسك بمبادئها والكبرياء يكون في التخلص من هكذا شاب في حياتها بلا أدنى تردد، لذا عزمت على إفلات تلابيب ذلك الشيء وإدارة ظهرها له، على أي حال لم يطلعها على معنى للحب ولم يترجهلها الشغوف به، فلم يزل قلبها بشكل ما بتولًا، ومن الآن فصاعدًا، لن يكون فريسة لجوعه الذي بات مفرقًا واعيًا بين الفتات السابق والوجبة الكاملة التي ينتظرها ولن تشبعه غيرها.

وبأواخر الربيع، هطلت ضحكات صادقة على جفاف قلبها كدفقات مطر غزيرة فارتوى بسعادة كانت مؤجلة، وتراشقت ابتسامات حقيقية على شفتيها كسهام شقية تخترق الحزن، وشعت عيناها بفرحة ربيعية لم تنفضح إلا بحضورها ليلة الزفاف الموعودة، ويا لها من ليلة فضت اشتباكات الصبر! ليلة شائت بها ربح رهان يقلب موازين الألم، وقد فعلت، فقد ذوت بليال قبلها أزهار ندم، وتناثرت بعدها حبات سنابل أمل.

وفي بداية مباهج اليوم، حيث كانت "ضحى" مع العروس في صالون التجميل الذي تتزينان فيه استعدادًا لليلة المشهودة، تداعت ذكريات من نوع خاص، ذكريات تواطأت مع البقايا الهشة داخلها، فقد أثقل تفكيرها عندما ذكرها نسيانها به، نسيت كيف كانت لتكون النظرة على

وجهه إن رآها على نحوها الجديد! بعدما رتبت مصففة الشعر طبقات حجابها اللامعة بطريقة رائعة وملائمة لوجهها، وأنهت خبيرة التجميل عملها في تزيين وجهها فوشى بجاذبية شرسة وجمال مختلف، رموش كثيفة مغطاة بالماسكارا من جذورها حتى أطرافها، سواد الكحل حول العينين أعطاهما حجمًا أكبر، لون وردي فاتح يغطى الجفنين، هالة فضية لامعة تحت الحاجبين، وشفاه مغرقة بملمع بلون الفراولة الدافئ الشهي.

تبخترت بسعادة واثقة أمام المرآة، تطالع ثوبها المحتشم من قماش الساتان المطرز باللون الأرجوانى الفرح الذي أضفى لونًا ورديًا على وجنتيها، بياقة مرتفعة وصدر ضيق ينتهي بفراشة ماسية توسع الثوب من تحتها تدريجيًا إلى الأسفل، وأكمام طويلة حبكت على زنديها قبل أن تتدلي باتساع عند كوعيها، فانتشت جوارحها بتحدٍّ تسلق شغاف المستحيل، أبدو رائعة، كم أتمنى لو أرى نظرة عينيك عندما تطالعني هكذا يا "محمود"!

- "ضحى".

استدارت بلهفة مع نداء "سلمى" التي كانت في غرفة تجهيز العرائس لتريها طلتها، غير أن ذروتها انحرفت وجهتها عندما طالعتها، تتقدم منها برقة في ثوب زفاف فخم من القماش الحريري الأبيض العاجي المرصع بالكريستال الفضي والعاجي الفاتح، ذي تنورة واسعة من الوسط مع صدرية مجعدة بياقة مفتوحة وأشرطة عريضة على كتفيها، تصفيفة شعرها بسيطة غير تقليدية، بدت انسيابية مع تاج بشكل سوار مجدول

زين مقدمة شعرها المنسدل برقة على كتفيها كأميرة ساحرة.

تبادلت الاثنتان الحبور والبهجة بمظهرهما، على أن العروس كان ينقصها قرطاها الماسيان، نسيتهما في غمرة العجلة، فأوصى "ناير" ابن عمه "فارس" أن يوصله إليها وأعطاه رقم شقيقته لتخرج لملاقاته حال وصوله، وفى غضون لحظات ارتعش هاتفها بين أصابعها النحيلة، رقم غريب يتصل بها، حتمًا هو، أخبرها أنه بانتظارها أمام صالون التجميل، كانت قد تركت "سلمى" واتجهت بالفعل إلى الباب الخارجي للصالون ما إن هل هاتفها برقمه، وأنهت المحادثة معه لتبحث عيناها عنه عندما ظهر فجأة من خلف سيارة سوداء ضخمة مرتفعة كانت تحجب ما وراءها، اختلجت عندما اقترب منها في حلة سهرة سوداء في غاية الأناقة وقميص ناصع البياض، تتدلى حول ياقته ربطة عنق سوداء مفتوحة. رغمًا عنها شعرت أن هذا اللقاء يتخلله الكثير من الإثارة، فها هو شاب وسيم أنيق يقترب بخفة من فتاة جميلة أنيقة.

لم يصافحها عندما توقف أمامها، خمنت أن هذا إحترام منه إذ أومأ برأسه في تحية سريعة قائلًا بشقاوة: مرحبًا "ضحى"، يبدو أنى لم ألقكِ منذ زمن! أصبحتِ عروسًا ما شاء الله.

أطرقت بابتسامة مضطربة حياءًا، ناولها المغلف البلاستيكى بأطراف أصابعه حتى لا تتلامس يداهما، وكاد يغادر عندما أومأت ممتنة، إلا أنه بدا مترددًا بضع ثوان انزلقت فيها نظراتها عليه، شعره فاحم حليق على الطريقة العسكرية، وجهه طويل وعيناه خضراوان يظللهما حاجبان خفيفان منعقدان، أنفه متوسط الحجم مائل لأعلى عند الجانبين

بفتحتين متسعتين بكبرياء كصقر شامخ، وفمه صغير الحجم يكشف عن شفة سفلى أكثر امتلاءًا من العليا. تغير كثيرًا، أو ربما تغيرت هي!!

وسرعان ما حزم أمره واستأذنها بالانصراف دون توضيح لفترة صمته، فابتعدت عنه بدورها وعاودت دخول صالون التجميل بأفكار مشعثة، لطالما كان يدفعها التفكير في "فارس يسري" إلى الانقلاب على أي أفكار تراودها نحوه، وهكذا كلما فكرت فيه كلما كانت تزيحه أكثر من تفكيرها، أرجعت هذا قبلًا لأنها كانت صغيرة على التفكير بشأنه عندما بدأت تعتاد رؤيته مع شقيقها، منذ انتقالهم من ديارهم لسكنه قريبًا من منزلهم الجديد بحكم عمله في مديرية أمن الجيزة، لكنها ترجح الآن أن هذا لم يكن وحده السبب، والده كان حاجزًا نفسيًّا بينهما، كان وربما لا يزال.

***

تقدم "ناير" في حلة عرسه السوداء اللامعة إلى عروسه، أقبل عليها بلهفة واضحة، قبلها على جبينها بإعجاب بادٍ، واصطحبها للخارج حيث سيارة العروسين العصرية التي ستتجه بهما وخلفها موكب سيارات الزفة إلى ستوديو التصوير، وهناك، حالما دلف العروسان إلى غرفة التصوير المظلمة كاد المصور يغلق الباب خلفهما، فأوقفته "ضحى" برجاء ألا يغلقه بالكامل، ويترك قدرًا يسيرًا منه مفتوحًا تحسبًا إن احتاجت لها العروس، فترك لها مجالًا للرؤية مصدقًا ما قالته، وربما كان تبريرها صادقًا لكن رغبتها في مراقبة لقطاتهما الغرامية كانت رجائها الحقيقي.

ابتسمت بانتشاء وفلاش الكاميرا يومض مع كل لقطة جديدة، حتى انتزعتها من متابعتهما الخطوات التي اقتربت منها فالتفتت خلفها ترصد القادم، ليطالعها "فارس" ملوحًا لها بكفه كأنما يريد أن يعرف أين اختفى العروسان، أشارت له أن يتقدم ليراهما فاصطكت ركبتها برجفة غريبة بوقوفه إلى جوارها.

- العقبى لكِ.

بلعت ريقها بصعوبة مع كلمته التي نطق بها بلهجة غير عادية وكأنه يريد أن يقول شيئًا من خلالها، حانت منها التفاتة إليه لتجزم نظراته بظنها فلم تطل النظر إلى عينيه اللتين بادلتاها النظرة، ونقلت بصرها على الفور إلى الغرفة المظلمة، لتجد العروسين مقبلين نحوهما بعدما انتهيا من التصوير، في طريقهما إلى قاعة الزفاف.

سجاد أزرق سميك منبسط على الأرض المربعة، وطاولات مدعوين مصنوعة من خشب ذي لون فضي ناصع براق وموزعة بتناسق واضح، جدران القاعة الفضية الشاهقة تتدلى من سقفها ستائر ظلال لونها شبيه بلون السجاد الأزرق، ويتوسط جدار القاعة المواجه لباب الدخول منها مقعدا العروسين الفضيين اللذين زينا بأغطية بيضاء من قماش التل، حولهما آنية زهور طبيعية متناسقة الألوان، ويعتلي المقعدين عن أرض القاعة بدرجتين من الزجاج المصقول مغطيتين بقماش الحرير الأبيض.

قاد "ناير" عروسه إلى حلبة الرقص الزجاجية الزاخرة بالألوان

المتلألأة، انعكست على سطحها أضواء متراقصة من ثريا معلقة أعلى الحلبة، في حين أخفى الدخان المتصاعد من آلة سوداء قريبة من الحلبة قدميهما. تناول أنامل "سلمى" بين خطوط كفه وأحاط خصرها بكفه الآخر، اقتربت هى منه ووضعت يدها على صدره، فأمال رأسها على قمة كتفه وتراقصا متعانقين على أنغام أغنية "ع بالي" التي ذاع صيتها في الأونة الاخيرة وبدا وكأن زفافًا لن يتم دون أن تتصدر رقصته الأولى.

تمايل العروسان بخفة ونعومة والأضواء تخطف الأبصار إليهما، كان يناظر عتمة الليل الأسود في عينيها واعدًا إياها بالضي، وفى حركة غادرة سريعة نَهِلَ من شفتيها رحيق حبهما وسط تصفيق وصفير وصيحات مشجعة من الشباب وأخرى مستنكرة من الكبار، فيما تنهدت "ضحى" جاهرة برهيف مشاعرها، متناسية أحزانها الباهظة، وفتشت بين أحلامها عنه، الحبيب الذي سيجيء، يجتز أحزانها ويقْلَع انتظارها له.

اقترب منها "وليد" جارها في البناية المقابلة، وقف الطبيب الشاب إلى جوارها بحيث لم يعد يفصل بينهما شيء، كانت شفتاه تتحركان بما لم تسمعه، فقد وضعت بينهما عمدًا مسافة وهمية بحيث لا تفعل، إنما نظرة عينيه إليها أنبأتها أنه يمتدح جمالها أو يثني على طلتها، ربما لم ترد أن تسمع حتى لا تتجاوب معه وتضاعف انتباه الحاضرين لوقفتهما التي استرعت فعلًا بعض الأنظار إليهما، لتحط نظراتهم حيث تهطل عليها معه زخات مغرقة مشحونة بالتوتر بلا توقف!

هل أفكارها تحرضهم على الترصد بهما! هل يبدوان لهذا الجمع

كثنائي! هل يتباهى أمامهم بحسنها إلى جواره أم تتباهى أمامهم برجولته إلى جوارها! حانت منها التفاتة خاطفة إليه لكنها لم ترَ ملامح وجهه جيدًا في هذا الضوء الخافت، غير أن شعورًا متيقنًا بأنه يحمل شيئًا ما نحوها تملكها، ورغم أن عينيه لم تكونا تطالعاها لكن بدا لها أنها ترى فيهما بريقًا يختصها به، وربما كانت عيناها تشعان بالألق ذاته!!

توسطت العروسين لالتقاط صورة أخيرة بينهما، بعدما انقضى الوقت سريعًا كلمح البصر، لفرط روعته وذروة سعادتها شعرت وكأن الزفاف انتهى بعدما بدأ ببضع ثوانٍ، هذه الليلة كانت مختلفة عن ليالٍ كثيرة سبقتها، أزاحت همًّا كبيرًا كان يثقل قلبها، تخلصت منه في تلك الدقائق المعدودة، ليلة أشعلت فتيل "ضحى" مختلفة في ثوب أنثوي وزينة وجه ناضجة، نظرات الإعجاب وكلمات الاطراء كشفت لها أنها ليست بالقدر البخس الذي توهمته في نفسها في الفترة الماضية.

بدت كأميرة مختالة بين المدعوين، ربما لهذا كادت تبكي كمدًا والقاعة تغلق أبوابها خلفهم والكل يعلن الرحيل، فتمهلت في الخروج من مبنى القاعة بينما سبقها الجميع، وقد أدركت أنها بين أفكارها تأخرت بحق في اللحاق بهم حالما لمحت "فارس" مستندًا بقلق إلى الجدار الخارجي للمبنى الذي كانت داخله القاعة، أقبلت عليه بقلق مماثل، فتنهد بإرتياح ما إن رآها: أين كنتِ؟ لقد انتظرتكِ طويلًا، العروسان على وشك المغادرة دوننا.

- حقًّا! لكن لماذا تقف هنا؟!

- في انتظارك، أريدك أن تستقلي سيارتي.

قالها برقة وأردف مرتبكًا: سأوصلك ووالدتك إلى المنزل.

صمتت لبرهة مشدوهة ثم أبدت حيرتها: أليست سيارتك مشغولة براكبيها من الشباب؟!

أشار إليها أن تتقدمه ففعلت وهو يجيب بثقة: لم تعد كذلك، سيتدبرون أمرهم.

***

أطلّت "سلمى" برأسها من شرفة الغرفة الفندقية، تطالع أعشابًا خضراء ناضجة تلتمع في العراء تحت ضوء القمر الذي أرخى ضياءه على الحديقة العشبية الواسعة، بدرًا مستنيرًا معلقًا في ظلام إحدى ليالى شهر العسل الذي تقضيه بصحبه زوجها في إحدى القرى السياحية بالبحر الأحمر، اقترب منها الأخير ملهوفًا وطوقها بين ذراعيه بتملك، فتنهدت بحرقة تستكثر هنائها معه، واحتشدت بعض دموع في مآقيها وهى ترفع عينيها إليه وتغمغم: هل أنت سعيد معى يا "ناير"؟

عقد حاجبيه باستغراب وهو يجيبها: بدون شك يا حبيبتي، أنتِ فرحتي الوحيدة.

بلعت ريقها بمشقة وتمتمت بصوت مختنق: أعلم أنك لا تحبني مثلما أحبك، أنت لم تقل لي ذلك قط، كنت تنفي كلما سألتك ورغم ذلك كنت أقرأها في عينيك، ثم باتت واضحة صريحة عندما أردتَ أن يذهب كل منا إلى حال سبيله.

أفلتها وتلمس سور الشرفة الحديدى بكلتا قبضتيه وقال وهو مطرق الرأس: كنت أشك بدوري في ذلك، وأدرك أن حبي لكِ لم يكن مؤكدًا أبدًا، لكني وقتها كنت تائهًا ولم أكن قد اكتشفت بعد مشاعري نحوك، فتسرعت في الحكم عليها لأن لدي تطيرًا من أكون مجبرًا على شيء، صدقيني لا أصعب من أن يشعر أحدنا أنه مُسَاق.

شهقت بلوعة ودموعها تفر من عينيها الواسعتين:

-وأنت كنت مجبرًا علي يا "ناير"! لمَ تزوجتني إذن؟

أسرع إليها يضمها بحنان ويمسح على شعرها برقة: لا يا حبيبتي، كنت موهومًا، الشك تمكن منى عندما عددت على يدي ما اخترته بإرادتي فلم أرفع إصبعًا واحدًا، لكن صدقيني الأيام كشفت لي أنكِ الشيء الوحيد الذي أردته وحصلت عليه فعلًا.

أرخت بصعوبة سرعة تنفسها وقالت بخفوت: أصارحك بأني كنت أقرر دائمًا أن أتركك ولم أستطع ولو لمرة، خاصة أنك كنت مستمرًا معي ولم تدعني أرحل عنك، وبت أقول لنفسي البقاء معك محض جنون إنما لم يكن من التعقل أن أكتب على نفسي الموت بيدى فأنت لي الحياة!

هز رأسه ضائقًا بما عانى كلاهما بسببه وقال بقوة: وأنا لا أتصور حياتي من دونك يا حبيبتي، والله أحبك يا فرحتي.

عقدت ذراعيها أمام صدرها بتحدٍّ: اثبت لي.

- ماذا تعنين؟

- لا يجوز أن تبقى العلاقة من طرف واحد يا "ناير"، انفتح علي، اكشف لي نفسك، لا تخبئها عني رجاءً، قل لي كل ما لا تستطع قوله لأحد.

ابتسم بجانب فمه مازحًا: مثلي لا يذاع له سر.

خبطته بقبضتها وهي تضحك: أيها المتحذلق! يسيئني أني لا أعرفك حق المعرفة، فيم تفكر؟ بمَ تحلم؟ ماذا تريد؟

قال بجدية: إنها قصة طويلة يا حبيبتي.

- أمامنا العمر كله، لا تكن بخيلًا.

***

طلب "وليد" وأسرته موعدًا قريبًا لزيارتهم، لم يخف عليهم غرضهم من الزيارة وإن تفاجئت "ضحى"، دائمًا ما يكون حدس "سلمى" صادقًا، لقد شعرت تلك الذكية باهتمامه وإعجابه بها وها هو يجعلهما رسميًّا بطلبه يدها من شقيقها! تناولت الأسرتان حديثًا عامًّا وترحيبًا قويًّا في البداية في صالون المنزل، ثم قررتا الانتقال إلى الشرفة حتى تتركا المكان لهما وحدهما، ليتحدثا قليلًا ويتعرفا على بعضهما، وهكذا جلست بمفردها على مقربة منه، فتمكن منها بإعجاب ملحوظ:

- لن أخفي عليكِ، لقد أحببتك منذ زمن طويل، كنت أراكِ تكبرين يومًا بعد الآخر أمام عيني، ومنذئذ لا أفكر في أخرى سواكِ.

ابتسمت بخجل غير مصدقة: ولم تواعد أي فتاة منذئذ!!

- ولم أواعد أي فتاة حتى قبل أن أراكِ للمرة الأولى، لست من ذلك الطراز.

لم تفهم "ضحى" يومًا مقاطعة الجرحى للحب وغلق الأبواب في وجهه برغبة مسبقة في تحاشي ألم سياط جلدت قلوبهم من قبل، لا ترى مثلهم الحب مكيدة آثمة تنافق المحبين وتلهث خلف عذابهم، بل إثم الحب يشي ببعض محبين لكنه يحصد آسفًا عنهم صورته المشوهة! هكذا عقدت قرانها على الحب الحقيقى بلا تردد أو خوف من الفشل المكرر، وافقت على خطبتها من "وليد" متسلحة بألم خبرة تمكنها من ألا تخطئ مرة أخرى.

أبدت "سلمى" امتعاضها من موافقة ابنة خالتها السريعة، وأرادتها أن تعيد التفكير، كانت تخشى أن تكون موافقتها كيدًا منها لـ"محمود"، فطمأنتها الأخيرة أنها أزالته من تفكيرها تمامًا ولا تسعى خلف إغاظته بأي شكل، فضلًا عن إحساسها براحة واطمئنان وحفنة من المشاعر لا تدري كنهها بعد! تعلم أنه ليس حبًا يهز الأعماق ويرجف الكيان كما أملت، لكنها تشعر به يلوح في الأفق، فلا أروع من أن تقول الأنثى كل ما يدور بخلدها إلى رجل تعلم أنه ينصت إليها بدقات قلبه! وهي على ثقة أنها على موعد قريب مع حب تستعد له بكثير من العقل والتروي، لن ترمي بقلبها وأحلامها مجددًا في بحر عاصف متلاطم الأمواج دون حتى طوق نجاة أو مرفأ أمان على مدى البصر.

إنما ثمة ألم أزلي متفش في قلبها، لو يعرف كم يأجج وجوده شعورها بالأسى نحو أمها! يضربها الذنب فى مقتل لأن الله رزقها به، يَصعُب عليها أن يبتسم لها الحظ بينما يظل مكشرًا عن أنيابه لوالدتها، لمَ يشعرها بالسعادة حد الذنب؟! ألم يكن جارًا لها ولم تهتم بمعرفته أو

حتى مطالعة وجهه! وحتى هذه اللحظة ليست واثقة تمامًا كيف هو! وعلى حين غرة ينقلب حالها فلا يفارق خيالها ويسهرها ليالٍ! وتذكر ليلة باح لها بحبه، قفزت على فراشها فرحًا، وبكت عندما وعدها بما حُرمت منه!

ألأنه قالب متكامل من العاطفة! أب حانٍ لابنة يتيمة وأخ عطوف لأخت وحيدة رغم أن أخاها حيّ يرزق! مكمل عاطفي لأحاسيس مفتقدة منذ الأزل مضافًا إليها فاتورة مُسَدِدة حساب ما أُلحق بها من أضرار جراء صدمة عاطفية! ربيع لم تكن في انتظاره خطى نحو قلبها في غمرة نسيان ملتحف بالذكرى، فأزهرت على يده بتلات يانعة كانت قد تبعثرت بقسوة خريف قلب معتدي يابس، وحينها تواطأت لوعة حاجتها إليه مع شهقة حبه لها، ففضت رغبتهما المتوحدة اشتباك أحلامهما!

اهتدت إلى أن الإنسان لا يقدر المصيبة ولا يعرف أي حكمة إلهية وراءها إلا حينما تنكشف أمامه، فالآن تذكر نكبتها مبتسمة مدركة أن تلك المأساة كانت خطوة في طريق سعادتها، عاشتها كي تقدر النعمة التي بين يديها الآن، كي تحفل بوجود "وليد" في حياتها، من فرط ما انتظرت السعادة أهداها القدر حبًا ينسيها شقاءها!

***

هبت تباشير الصيف على النفوس المقرورة، وفي إحدى أيامه التي هلت على استحياء حار، ودعت "ضحى" "وليد" بعيون مبللة فقد شد الرحال إلى إحدى مدن الصعيد، كان عليه أن يعود ليتابع عمله كطبيب

عظام في مستشفى خاص واعدًا إياها بزيارة قريبة فى أجازته المقبلة، فحان الوقت أن تلتفت إلى دراستها بعد فترة كافية من الانشغال عنها.

نشعت من الفرح وسط استقبال صديقات الدراسة لها بالحفاوة والترحاب والتهاني والقبلات، حتى انتزعتها "ندى" من بينهن بمشقة، وجذبتها نحو "علي" و"محمود"، حيثهما في مواجهة ابتسامة تملأ وجه الأول ونظرة حزينة من عينى الأخير تعجبت لأمرها.

تمتم "محمود" بارتباك: مبروك يا "ضحى".

ابتسمت بانتصاروقالت بثقة: شكرًا، العقبى لك.

- يا شباب، أسرعوا "باسم" يتعارك مع شباب كلية الحقوق وبحاجة للمساعدة.

دفعها "علي" جانبًا وهو يعدو تلحقه "ندى" خلف ذاك الشاب الصادح بطلب العون، فكادت أن تلحق بهم بدورها إلا أن همس "محمود" الضعيف أوقفها: "ضحى"، من فضلك انتظري، أريد أن أتحدث إليكِ قليلًا.

بللت شفتيها بتوتروتساءلت باهتمام: لماذا؟!

صمت لبرهة ثم اجتر صوته عظيم من الندم: أدين لكِ باعتذار، أنا آسف.

- لمَ تتأسف؟!

لا يمكنك أن تنظرفي عيني شخص كان يومًا بطلًا في حلم لك وتتجاهل أن ذلك الحلم داهمك ليلة في منامك، أجل، من الجائز جدًّا أن يكون

قلبك خاليًا منه، لكن سترغمك عيناه على العودة إلى الذكرى مهما مر عليها من الوقت، وستبقى تلك الخفقة الخفية التي تذكرك أن هذا الشخص يومًا كان لك غدًا، وأصبح الآن أمسًا.

كانت عيناه تحملان حنينًا تجاهلته بالقدر الذي استطاعت إبداءه من اللامبالاة: ماذا تريد يا "محمود"؟

- أتدرين بم شعرت عندما أطلعتني "ندى" على نبأ خطبتك وفي عينيها ذلك التشفي! شعرت بضيق شديد يجثم على صدري ومن يومها وأنا أفكر في الأيام التي جمعتنا لأجد أني أخطأت بحقك كثيرًا، أتدرين أن "باسم" عندما علم هو الآخر بأمر خطبتك قال لي معاتبًا "ألم تخسر!" فوافقته نادمًا واعترفت له أني خسرت درة ثمينة.

- لا تبالغ يا "محمود"، لقد فعلت ما أردت ولم يجبرك أحد عليه، فلمَ قد تندم؟!

- لأنني كنت أبله ولم أقدرك حق قدرك.

- أنت فقط تقول هذا لأنني لم أعد لك وأصبحت لغيرك، الممنوع مرغوب كما يقولون.

- ربما، لكن هذا لا يعني أنني أقل ندمًا.

تنهدت بملل وتساءلت بحيرة صادقة: ماذا تريد الآن إذن؟!

- أريد الكثير مما لا أستطيع قوله يا "ضحى" فقد اختلف الأمر تمامًا وتغيرت الظروف، كل ما أستطيع قوله الآن أني أرغب بصفحك عني، أريدك أن تسامحيني.

استنفر عتاب عظيم على أعتاب لسانها، هل يريد أن تسقط عنه ديونه الباهظة في حقها؟! استماتت كتمانًا.. لا تقعي في الهوة، لا تقعي في الهوة، ليس لكِ الحق في عتابه وليس عليه شرح موقفه يا فتاة، غير أنها بكل طيش دفعت بنفسها في قعر الهوة باستنكارها الواضح: أسامحك! لا أظنني قادرة على غفران ذنب كهذا، ربما نسيته لبعض الوقت لكني لم أسامح الجاني أبدًا.

- بحق الأيام التي كانت بيننا يا "ضحى"، سامحيني.

هتفت بقوة جردته من تعشمه بتلك الأيام مؤكدة أنها لن تشفع له بحال: هذه الأيام لا تعني لي شيئًا يا "محمود" ولا أحمل عنها أي ذكرى حلوة كما قد تتوهم، لقد عوضني الله بإنسان أدعوه في صلاتي أن يحفظه لي، وهبني الله بالحب الذي تمنيته عمري كله ولم يُبقِ هذا الحب على أي ذكرى لك في قلبي.

- حسن، فلتسامحيني بحق الأيام التي كنت فيها صديقًا لكِ أم مُحيَت من ذاكرتك هي الأخرى؟!

قالت بترفع: لا، أدرك الآن أنه لم يكن لنا أنا وأنت إلا أن نكون أصدقاء.

- إن كان هذا الأمر سيشفع لي فليكن، لكنكِ مخطئة يا "ضحى"، أنا لا أشعر على هذا النحو وكنت مؤمنًا بقصتنا، لكنى أخطأت بحقك وبحق نفسي عندما أنهيتها، فقط لو لم ترفضيني من البداية!

لوح بكفه معتذرًا بنظرة حانية: أنا آسف، لقد تجاوزت حدودي، معذرة.

أين كنت منذ زمن! ذات النظرة، ذات النبرة، تفيض عيناه ولسانه بما عذبها اختفاؤه ليالٍ طوال، تشعر أنها تقف أمام "محمود"، ذاك الشاب الجذاب الذي أحبها وأحبته في زمنين مختلفين، تمنت لو يستفيض حديثًا، يزيدها بهجةً، ويربكها بنظرات تشفي غليل أنوثتها وكرامتها وتعيد لهما رونقهما وماء وجههما المراق، لكن مع الأسف لم يكن لها الحق، ولم تستطع إلا أن تتساءل بحيرة حقيقية: لماذا تعشق قصص الحب المستحيل؟ أنت لا تحب غير الفتاة التي لا تستطيع الحصول عليها، لماذا؟!

بدا أنه قد أسقط في يده إذ حدق في اللاشيء لثوانٍ، ثم هز كتفيه بحيرة متمتمًا: لا أدري.

وأردف مستجديًا: هل سامحتِني؟!

هزت كتفها بدورها مغمغمة: فليكن.

أشرق وجهه للمرة الأولى بامتنان لم تفهم مغزاه ولم تدرك حجم احتياج شخص مثله إليه: أشكرك يا "ضحى"، أشكرك جدًّا.

رفعت إصبعها بتحذير في وجهه: لكن لي شرطًا.

- لكِ ما تريدين يا صديقتي.

- تعقل يا "محمود"، لا تلهث وراء الفتيات سعيًا خلف بضعة كلمات متأججة الغرام ينتهي مفعولها بعد أيام معدودات، سيأتي يوم تنظر خلفك فلن تجد إلا دمارًا وربما حينها لن تستطيع أن تتقدم للأمام.

وعدها مبتسمًا، واستأذنها أن يلقي على مسامعها قصيدة "لو أننا

لم نفترق"، أومأت بترحاب فشد ساعديه ملقيًا إياها بشجن أوقع بنات أفكارها في حيرة غير مجدية، هذه القصيدة المزيلة برهيف قبانى التي رجاها أن تسمعها منه، أهي لها! أيواصل شهادته للحب المعذب أم هي عن أخرى يحلو له التبجح بها أمامها! لن تعرف أبدًا ولا يهمها أن تفعل، هذا لن يغير من حقيقة الأمر شيئًا.

كل ما كان يهمها أن اللحظة التي طال انتظارها لها أتت أخيرًا وقد حسبتها لن تأتي، اللحظة التي يدرك فيها خسارته الجسيمة ويعرف أنه سقط هاويًا عن عرش قلبها ولم يعد لها ما كان، ولا يعود يستطيع التباهي أمام أصدقائه أو حتى بينه وبين نفسه أنها مغرمة به، فلم تعد له، لقد أصبحت لغيره، فيعض أنامله ندمًا ويسعى للعودة إليها دونما أمل. تلك القصة أتت تمامًا على نفسها وقد عاد القدر الأعظم منها إليها عندما تقدم "وليد" لخطبتها، لكن لم يزل ثمة قدر مفقود.. وقد استعادته اليوم.

***

مؤخرًا كشف لهم "محمود" عن ارتباطه الجدي بفتاة جديدة، صرعها تصريحه، كيف يفكر هذا الأحمق؟ لماذا هو معتوه إلى هذا الحد! كيف له أن يشكو خسارته لها منذ أيام ثم يزج بنفسه في غرام جديد؟ أيعقل أنه التقى بفتاة أحلامه بين يوم وليلة أم هي غيرة من سعادتها! أيلعب بملعب خالٍ من منافس ليثبت للجمهور أنه يسجل انتصاراته بمباراة جديدة، فقط لأن منافسًا -ألا وهى- لاعبه مرة يخوض الآن مباراة أخرى؟ حتى لو انعدمت المنافسة بينهما! أيثبت للجميع أنه

لم يزل بالساحة يحتل ملعبًا آخر وها هو يتوسط أرض الملعب وليس لاعبًا احتياطيًا!

لا يمكنها فهم "محمود" ولربما هو نفسه لا يفعل، مولعًا هو حد الإدمان بشهقة وانخطاف البدايات الأولى مع الفتيات! كل المتعة في حياته لا يجنيها سوى من نظرات أولى وكلمات أولى لفتاة تروقه، ولا تكلفه غير بعض من تَوق روحه إلى الإحساس بذاتها وجدواها وحقيقتها وإنجازها في جسد جامد لا يسوي شيئًا ولن يصل به إلى شيء في زمن.. مِن مَتَاعُه.. لا أرقى له ولا أسهل عليه غير انتشاء الوقوع في الحب، أو بالأحرى في بدايات أولى منه، مُزهرة تحطه وتنزله على جبل أخضر من مشاعر حلوة لا شيء آخر يعادلها في جلّ حياته، ليس بقادر على تحقيق ما يوازي حلاوة ومتعة هذه المشاعر الأولى، لا شيء في حياته مسببًا للفرح أو داعيًا له ومحفزًا عليه، فأي إنجاز يفوق إيقاعه أفندة في حبه ليرونه بصورة حتى هو لا يراها في نفسه! فيقع بدوره في حب نفسه! فلمَ عساه يفلته منه وفيه من تحقيق ذاته -وإن كانت ضامرة- ما لا يستطع العيش بدونه وما لم يمنحه إياه غيره! فماذا كان مرجوًّا من شاب خائب يستهين به أصدقاؤه، لا مستقبل له ولا حاضر، وماضيه متعفن بأسرة مفككة هجرت دورها في بناء شخصيته وتشكيل حياته معه! من يستكثر عليه حلم لم يقدر على تحقيق غيره.. فرحة وحيدة في حياته عجز عن الإتيان بغيرها؟ فاستنفر مطالبًا بحقه فيها بغيروعي مع كل فتاة تصلح للبدايات الأولى التي لا يتخطاها، فالحكاية بعدها لا تكون عادةً جميلة! فبعدما يُثبِت نفسه عليها، ماذا يبقى منه ليقدمه لها ولنفسه، وبذات الوقت

يفوت عليه فرحة غيرها؟!

***

تجلس "ضحى" على المقعد الجلدي الوثير المواجه للمرآة بصالون التجميل، تشرد أناملها بين طول خصلات شعرها التي تصل إلى خصرها، تلقي عليها تحية وداع، فخلال ثوان ستتطاير بكل صوب ولن يبقى سوى خصلات قصيرة لا تبلغ قمة كتفيها! قادتها خطاها إلى صالون التجميل كي تقتص من نفسها بعضًا مما يثقلها، عساها تمنحها قدرًا ولو يسيرًا من الالتباس تنشغل به، فأشتات واجفة تجوس مخيلتها بالآونة الأخيرة دون أن تدري لها سببًا مفهومًا!

لم تلقِ بالًا طويلًا لاستغراب "سلمى" إصرارها على قص شعرها مع معرفتها أن "وليد" لا يروقه الشعر القصير، هذا أمر يعنيها وحدها رغم أن "سلمى" ترى أنه يعنيه أكثر مما يعنيها، حسن، ربما تطيله له فيما بعد، قرب موعد زفافهما أو ما شابه، لماذا ينقبض صدرها لهذه الفكرة الأخيرة؟! وتحتار لأمر استقبالها الأخير له.. حيته بتوتر في وجه لهفته عليها وشوقه لها، فوبخها معاتبًا تسمرها وغرابة مقابلتها لحبيبها الغائب؟!

كذلك حينما اقتحم خطواتها معه بمدينة الملاهي مصور متجول صمم على أن يلتقط لهما صورة تجمعهما بين الخضرة وجداول المياه الصغيرة والألعاب الملونة، وافقه "وليد" بايماءة من رأسه بينما هزت هي رأسها نفيًا بتهذيب فابتعد الرجل، فيما اقترح "وليد" ركوب عربات ملونة ترتفع على شكل دائري، جلس كل منهما في عربة منفصلة مواجهة

للأخرى، وربما كانت تلك المرة الأولى التي يواجهها فيها "وليد"، المرة الأولى التي يحتل فيها نطاق الرؤية المباشرة، فتنظر له وتدير وجهها بعيدًا عنه، ينثر عليها هيامه في نظرات طويلة فترتعش أهدابها ارتعاشة مقلقة، وتغيم في عالم حالك خاص بها تهرب فيه من خوف تتضح معالمه رويدًا رويدًا!

أتت عليها أخيرًا محادثة هاتفية معاتبة منه، أنهكت قواها الدفاعية ضد ما يتهمها به، أنصتت لغضبته واستيائه مكتفية بالصمت، كانت تعلم أنه محق لكنها لم تدرِ بمَ تجيبه! أبدى ضيقه عندما لم يجد في صمتها ما يبتغيه، "لقد تغيرتِ حقا يا "ضحى"! تغيرتِ كثيرًا! فلتهاتفيني عندما تعودين إلى طبيعتك"، وأنهى المحادثة بينما دمعتان حائرتان تنسدلان على وجهها ببطء.

مشاعر خرساء تخشى البوح بحقيقتها، إيمان مجحف بالزيف وكبت أدنى إشارة صدق، تهيدة متصاعدة الحرارة تصاحبها نظرة حزينة ساهمة لا ترى ما أمامها، خفقات قلب يخلو من نبض الحياة، دموع ساخنة بطعم الملح، وفكر شريد تتلاحم أمامه مشاهد بعينها في مصارعة هزلية، الوهم غواية شرسة!!

ثمة درجة من القرب لا يعود بعدها مجال لخطوة أخرى، كأنما القرب لشيء يُزيد بعدًا عنه! أن تركض وتركض وتركض نحو هدف ما حتى تنتهي كل تلك المسافات التي كانت تفصلك عما ركضت إليه في بادئ الأمر، فإذا بك تصطدم بجدار ضخم يوقف عدوك ويجبرك على الالتفات إلى تلك المسافة التي قطعتها دون أنفاس متقطعة وبلا رغبة

جامحة في الفوز، اصطدامك بالجدار يجعل من مواصلة عدوك شيئًا مستحيلًا ويثبت أقدامك في محلها ويديرك للخلف، فتشرع نظرًا إلى كل تلك الأمتار التي قطعتها وحينها.. حينها فقط تعجز ساقيك عن حملك وتهوى أرضًا مشدوهًا.

كيف قطعت تلك المسافة وما زلت تشعر أن صفارة البدء لم تنطلق بعد؟! وأن قدميك لم تخطيا خطوة واحدة بعد؟! كيف قطعت الطريق ولم تزل تشعر أنك على مشارفه؟! هذا السباق لن يجلب عليك سوى الخسارة التي ستسلبك كل أمل في الفوز وكل رغبة في المواصلة، وحينها سيكون الطعم أمر ألف مرة، فلن تكون هناك دورة أخرى وسباق آخر، لن تكون هناك فرصة ثانية، وستكون قد أكملت سباق لم تسعَ يومًا إلى قطعه، ولم ينبض قلبك وأنت تصل إلى خط نهايته، بينما خسرت سباق آخر لم تخضه، وإن تمنيت كل ثانية أن تحمل بين يديك كأس الفوز به!

***

-6-

صفعة أولى لم تفيقني فاستحققتها مجددًا! ضربة من الداخل، انطرحتْ "ضحى" في مقتل عندما سطعت في وجدانها شمس صريحة تتوهج اتساع السماوات، فاشتد عليها الدمع.

كانت تنتظر منه أن يغازلها كما كان يفعل من قبله، أن يقول ذات الكلمات العشقية لتتدله في حبه، لكنه لم يملك سحر القول أو هكذا خيل لها! فباتت تستعيض عن الإحساس الذي لم تشعربه معه بالأغاني والألحان الغرامية، وكأنها دواء يجب تناوله في ميعاده للشفاء من حالة تبلد المشاعر التي أصابتها! وكأنها فيتامينات تضعف المناعة أمام حبه وتجعل قلبها يستسلم لاجتياحه! أرادت أن تغوص في حالة عشقية تغرق فيها حتى أذنيها، فتذكر الحالة الأولى وتضحك على سذاجتها كما يشاع عن الحكايات الأولى، لذا كاد الجنون يودي بعقلها عندما اكتشفت أنه كان زائرًا لم يحلْ لها قلبه الذي قدمه هدية عندما جاء طارقًا باب قلبها.

قلبها كان طوال هذه المدة يدقق النظر إليه عبر مرآته السحرية فلا يراه، لم يفتح له بابه ولم يدعه للسكن فيه، توهمت ضيافتها له في عقر الخافق الأيسر لكن الحقيقة أنه لم يخطُ عتبته حتى! من سبقه كادت تستعين بالشرطة لإخراجه عنوة، تدفع فيه فلا يتزحزح، تطرده خارجًا فيتمنع بابتسامة متشفية حتى اضطرها أن تخرج قبله، جعلها

تهجر مستقر روحها بين الأضلع، فقط الآن، أدركت أن "وليد" كان فترة نقاهة بين قصة انتهت وحكاية لم تبدأ بعد، لم يستطع أن يكون حكايتها الجديدة!

أولتها "سلمى" تعاطفًا بالغًا حالما رأتها ممدة على فراشها بلا حراك بمنامة غير مهندمة وشعر لم تمشطه فرشاة ودموع كحيلة جارفة تغرق وجهها بالسواد والأسى: "ضحى"، تقتلني رؤيتك على هذا النحو.

- أنا تعيسة يا "سلمى".

- كنتِ في قمة سعادتك منذ فترة ليست بالبعيدة!

- كنت، حتى اكتشفت أن ما عشته كان وهمًا مغويًا، لم يكن أكثر من ذلك.

مئات علامات الاستفهام استوطنتها مبيتة النية، مُغيَبة كانت عن نفسها حد أنها أطلقت كلابًا حبيسة من صدرها عدوًا خلف قلب بلون الحب، وإذا بها تركض خلف عظم مُشفًى! لم يتغير يومًا عما كان عندما تقدم لخطبتها! لم يتغير شكلًا ولا طبعًا، يبدو هكذا منذ ولد، فلمَ تغيرت هي؟ نظرتها إليه تغيرت، فباتت تراه بشكل آخر غير الذي وقع نظرها عليه يوم قالت نعم! غير أن حبه لها كان حصانة له أمام تصاعد مشاعرها السلبية نحوه بمرور الوقت، فتأخر المحتوم قليلًا.

- أشعر أن جلدي يتغير، لم أعد أنا التي كنت عليها من قبل.

- لمَ تقولين هذا؟!

وكأنما حظيت بانتقامها من غيره فلم يعد لوجوده من داعٍ! هذا

ما تعنيه رغبتها في فراقه، قد يكون الانفصال بين اثنين شيء عادى يحصل كثيرًا في خطوبة تقليدية، لكن في حالتها، هذه ليست حقيقة أمرها، إحساسها كان واضحًا منذ البداية، وقد وجهته جيدًا لأغراض شخصية، وحينما انتهت منها انتفت حاجتها إليه وباتت تتمنى حبًّا آخر! قلبًا جديدًا بلا أدنى خدوش تذكرها أن متوحشًا أصابه في حادث! أحيانًا ندعي شيئًا ليس فينا وإن كنا نظنه جزءًا لا يتجزأ منا! فلطالما اعتقدت في نفسها براءة تلازمها اسمًا ومعنى، والآن أيقنت بهتان لونها وربما فقد بعض حروفها، ففي الواقع هي المتوحشة التي أصابت قلبًا بريئًا في حادث مع سبق الإصرار والترصد، كيف سخرها الوهم حتى أصبحت ما هي عليه الآن! كيف فعلتُ هذا به وبنفسى، فعلتُ فيه ما فُعل فيّ؟!

- أتريدين حقًّا الانفصال عنه؟!

ترددت لثوانٍ أومأت بعدها بأسف: أظن ذلك، لا يمكنني الاستمرار معه.

- أحقًّا ما تقولين!!

- عفوًا، ولكني لم أحظَ أبدًا بمن يشبع حاجتي إلى رجل!

- ألا يوجد أي أمل!

- أنا تعيسة معه يا "سلمى"، والأمر لا يقتصر فقط على أني لا أحبه حبًّا حقيقيًّا، حب أنثى لرجل، لكني كذلك لا أملك ما يلزم نحوه كي أكون زوجة له، لا أستطيع أن أراه سوى صديق أو ربما أخ لكن لا يمكن أن يكون لي أكثر من ذلك، لا يمكن أبدًا.

حتى لمسة يده في مصافحتها لا تشعرها بأي شيء، ومؤخرًا أصبحت تزعجها، بل والأدهى نفورها مما هو أكثر، تنفر من مجرد تفكيرها في قبلة تجمعهما، تنفر حتى من مجرد الفكرة! "جابرييل جارسيا ماركيز" يقول إن (الجنس مجرد إرضاء للنفس عندما لا يحصل الواحد منا على الحب)، أيعقل أن تتزوج امرأة من رجل لا تحبه ولا تنتابها حتى رغبة فيه!

***

صرخت "كوثر" بذهول: لقد جننتِ حتمًا.

- لماذا تقولين هذا؟ لن أكون أول فتاة تنهي خطبتها!

- لكنكِ ستكونين أول فتاة حمقاء تفترق عن رجل لن تجد مثله أبدًا حتى لو لفت العالم كله، كيف يا "ضحى"؟! كيف تتخلين عنه أيتها الغبية!

- لم تصبه كلماتي بمكروه يا أمي، فقط لا أستطيع الاستمرار معه ليس لأن شيئًا ما يعيبه لكنه ليس الرجل الذي أتمناه.

- هل تتخيلين أن الله سيرزقك برجل أفضل منه! أنتِ واهمة إذن إن ظننتِ هذا، فمن يترفع على نعمة الله لن يأتيه أبدًا بأحسن منها.

ضربها عتاب أمها الصارخ في مقتل فتساءلت بإستياء: ألا ترين أني أستحق أن ينعم علي الله.

- لماذا يخيل لكِ العكس! أترين نفسك تستحقين هذا؟ أترين نفسك فتاة جيدة!

- أتربنني فتاة سيئة!!

- ألا توافقيني الرأي! تريدين أن تظلمي الفتى وتحطمي فؤاده وهو الذي لم يفعل شيئًا سوى أنه أحبك ولا ترين نفسك فتاة سيئة!

- نعم، لا أرى أني فتاة سيئة، لأني لم أقصد أبدًا أن أفعل به هذا.

- كيف لا تقصدين وأنتِ تريدين أن تقدمي عليه بكامل إرادتك؟!

- ألا يحق لي أن أهنأ وأستريح؟! لقد تعبت.

تخلت "كوثر" لوهلة عن حنقها واستمالتها بنبرة حاولت أن تبدو هادئة كي تتقبل ابنتها ما تقوله:

- "ضحى" يا حبيبتي، ماذا تريدين أكثر من رجل يحبك؟

- حب "وليد" لي لا يحرك ذرة فيَّ، كل ما أشعر به نحوه أني إن أكملت الطريق معه فسأكون قد جنيت على نفسي وعليه.

رمتها بنظرة احتقار: أنتِ أنانية.

صرخت بجنون حزين ودموع غزيرة تتساقط بعنف على وجنتيها: بل أنا تعيسة، لمَ لا تفهمين أنني أخطأت عندما ارتبطت به ولم يعد بمقدوري إصلاح الخطأ بآخر أكبر منه؟!

- فلتفهميني أنتِ كيف كنتِ تقفزين من الفرح به وبين ليلة وضحاها صرتِ تكرهينه!

- أنا لا أكرهه، ولا أنكر سعادتي به في البداية لأنه يحبني لكني اكتشفت أن هذا وحده ليس كافيًا.

- فلتتحفيني إذن بما يكفيكِ يا ابنتي الغالية!

تجاهلت سخريتها الغاضبة وقالت بعينين استنفدتا البكاء: أولًا وأخيرًا، أن أحبه.

***

ضاقت "ضحى" من تحرشات أمها وإجبارها على الإبقاء عليه، كأنه حبيبها ولا تريد التخلي عنه! كأنما تتلمس فيه ما فقدته على حسابها هي! تخيلت أنها ستجد متنفسًا لدى "ناير"، فانتحت ودموعها به ركنًا في منزله، وجلست بين يديه لأول مرة تفضي إليه بما لم يخيل إليها أبدًا أنه قد يدور بينها وبينه، فقد كانت بينهما تلك المسافة الشاسعة التي لم تزل حتى بعد محادثتهما تلك.

ارتأت أن حديثها إليه قد يجدي نفعًا، لأنها في هذه اللحظة وحدها تأسفت لحاله متذكرة أيامًا شبيهة مرت عليه مع "سلمى"، لكن وقتها لم ترأف به واتهمته بالغدروالقسوة والحقارة، في حين أكمل الطريق الذي تريد هي اليوم التملص من المضي فيه! أعطى لعلاقته بـ"سلمى" فرصة وهو ما لا تستطيع فعله مع "وليد"، تيقنت أن ظلمًا بينًا قد أوقعته على شقيقها وأنها بلا شك ليست بأفضل منه على الإطلاق كما توهمت دومًا، فها هي لا تستطيع تقديم سعادتها للذنب ضحية! في هذه اللحظة انكشفت على وجه آخر لها لم تكن تعرفه ولا تريد الاعتياد عليه.

ربت على كتفها فارتجفت للمسة حانية منه لم تعتدها: ماذا بكِ يا «ضحى»؟ لماذا تبكين؟

جواب مرتجف متقطع من بين عبراتها: «سلمى» حتمًا أخبرتك برغبتي فسخ خطبتي.

- نعم، لكن لمَ؟! هل يسيء «وليد» معاملتك أو يهينك أو شيء من هذا القبيل؟!

هزت رأسها نفيًا فتساءل من جديد بهدوء: أتظنينه بخيلًا أو وقحًا!

تمتمت عندما تمكنت من السيطرة على اضطرابها: لا.

- هل تثير أفعاله ضيقك؟!

تهاوت دموعها بنفاد صبر على وجنتها: لا يا "ناير" بل إنه يحبني بجنون ويغرقني بكرم أخلاقه ويحسن معاملتي، لكني أشعر بكل هذا يجثم على أنفاسي فتزمهر الدنيا بوجوده في حياتي حد إنني أشتاق إليها من دونه.

قطب "ناير" ما بين حاجبيه وتساءل بعد برهة من الصمت:

-ألا تمنحيه فرصة؟!

قالت بيأس مستجدية به: لا فائدة، أنا ببساطة لا أحبه.

تنهد "ناير" متفهمًا: علام تنوين؟!

- أريد أن أنفصل عنه لكن خائفة.

- لماذا؟!

- أخشى مما تنذرني به أمي من أني لن أجد زوجًا أفضل منه ما حييت!

- وما أدراها يا "ضحى"؟! ثم إنها ليست صفقة تجارية مرجوًا فيها أقصى ربح، راحتك وسعادتك ليست معه، وهل ثمة خسارة أفدح!

- وأخشى أن يكون الله غاضبا علي فيعاقبني بمن يحيل حياتي إلى جحيم أشتاق فيه إلى جنة "وليد".

حاول طمأنتها: أتشعرين أن حياتك معه نعيم؟

- أنت تعلم أني لا أفعل.

- كيف إذن تسمين حياتك معه جنة! أرى أنكِ تهربين من الجحيم.

- أحقًا ترى هذا!!

- هل ترين العكس!

- مطلقًا، لكنها أمي هي من تفعل.

***

الْتَحَدت "ضحى" إلى الله، سجدت بين يديه وتوسلته بفرط دموع محتشدة في عينيها. "اللهم إنى أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم، فأنت تقدرولا أقدروتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب، اللهم قدرلي الخيرحيث كان ثم ارضني به، يا سامع النداء يا مجيب الدعاء، قلت ادعوني فاستجب لكم فها أنا أدعوك فأتضرع وأتوسل إليك أن تستجيب لي، يا رحمن يا رحيم، يا أكرم الاكرمين".

أنهت صلاتها لتفاجأ بمن يحتضنها من الخلف، استدارت بسرعة لتجد أمها ترقد خلفها على الأرض فاعتدلت لمواجهتها بلوم: لماذا تحتضنين فتاة سيئة لا تستحق نعمة الله ورحمته بها؟!

- يقول الله عز وجل "قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّه إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ

الرَّحِيمُ».

تمتمت «ضحى» بخشوع: صدق الله العظيم.

- فحتى لو أذنبتِ يا «ضحى»، فالرحمن الرحيم يدعوكِ ألا تيأسى من رحمته الواسعة، وسينعم عليكِ بإذنه بما تتمنيه طالما أنتِ حسنة الظن به، ربنا عند ظن عبده به، إن ظن خيرًا فله، وإن ظن شرًّا فله، فأحسني الظن بالله يا حبيبتى.

احتضنتها «ضحى» بلهفة ودموعها تسابق دموع أمها التي أردفت: سامحيني يا حبيبتى، كل ما أريده لكِ أن تكوني سعيدة، وقد تخيلت أن «وليد» سيتدبر هذا الأمر لكن طالما لن يتحقق على يده فالصواب أن تنفصلي عنه، وإن شاء الله سيخلفك الله بخير منه وسيخلفه الله بخير منكِ.

***

استغرقت "ضحى" في قراءة سورة "يس" التي دعتها أمها لقراءتها كي تطمئن نفسها وتريح بالها وتطفئ النار المستعرة في قعر قلبها، حتى قاطعتها "سلمى" وأنبأتها بقلق عن مجيء "وليد" وانتظاره لها في صالون المنزل.

خفق قلبها برعب وشهقت بخفوت لا يسمعه سواهما: هل، هل سأقابله؟

- بالتأكيد يا "ضحى"، هيا ارتدي ملابسك.

مطت شفتيها بتوتر: لست مستعدة تمامًا، ماذا أفعل؟!

- لقد انقطعتما عن الاتصال منذ أكثر من أسبوعين، وقد جاء هنا الليلة مطالبًا بتفسير مقنع لتغيرك نحوه ويجب أن تمنحيه ما يرغب به.

هتفت بفزع: أسأصارحه بالحقيقة؟!

- القراربيدك، اختاري الأصلح لكِ، أستقبلين بزوج مثالي بين يديكِ أم ستتخلين عنه بحثًا عن حبيب لم تجديه بعد!

تكره عندما تخيرها الحياة بين عصفور في اليد وعشرة على الشجرة في زمن ندرت فيه الأشجار!!

كم تتوق روحها للخروج عن ثوب تقلصت فيه أنفاسها، وتحيك ثوبًا جديدًا يلائمها فلم يكن مقاس حبه مماثلًا لقالب قلبها، لكن الروح تخشى، فما أدراها إن خرجت فلا تعود تستطيع العودة إن أرادت! ولا تدري إلى متى ستبقى عارية حتى تجد رداءًا يلائمها! وربما لن تجد أبدًا، ويستحيل حينها مرجعها إلى ثوبها القديم لأنه لن يعود يسترها من ناحية، ويفوت أوانه ويختفى من خزانتها من ناحية أخرى!

ليالٍ طويلة كانت قد تعاقبت على عينيها اللتين استنزفتا تيهًا بين القناعة والرضا بما بين يديها أو الغدرونبش سعادة تشك أنها ستجدها خالصة بعدما أذنبت بحق بريء ما إن أدمنها حتى نوت رحلة هروبها من دمه، وها قد جاء اليوم الذي ستزف إليه الخبر ليصرخ من الألم! اختارت رداءًا بسيطًا وتمنعت عن التزين ولو قدرًا يسيرًا يخفي الهالات السوداء وانتفاخ عينيها اللتين أعياهما السهروالبكاء، أوجفاف شفتيها اللتين كانت تقطمهما في حيرة. أرادته أن يعرف أنها لم تكن رائقة البال

وهى تسن السكين التي ستنحر قلبه بها!

تقدمت بابتسامة باهتة وخطوات مرتجفة من مقعده، جلست إلى جواره بأناة فلم يتكلف حتى عناء التطلع إليها، فقط بادلها تحية خافتة سريعة ارتأت معها أن ما تنوي قوله سينهي عليه، فها هو يبدي وجهًا بائسًا لانقطاعها عن الاتصال به لفترة! كيف ليكون رد فعله إذن إن عرف أنها تنوي الانقطاع عنه للأبد؟! حاولت تزيين الحديث بينهما فلم تفلح، وهو بدوره لم ينبس، فتنهدت باستياء وغمغمت:

- "وليد"، أنا آسفة بحق على ما عانيته بسببي.

رمقها بضيق ساخر: أمرك غريب! الآن تتأسفين! هل انتهيتِ أخيرًا من لعبة الكرامة التي كنتِ تلعبينها لأنني جئتك؟ أتظنين أنكِ الرابحة الآن بمجيئي إليكِ!

طالعته لثوانٍ بدهشة: هل اعتقدت أن انقطاعي عن الاتصال بك كان لعبة كرامة؟!

حدجها بضيق مكتوم وهو يعقد ساعديه أمام صدره: هل لديكِ تفسير آخر؟!

- لديّ لكن أخشى البوح به.

- لماذا؟!

بللت شفتيها بلسانها مجيبة استغرابه: واضح أنه لم يطرأ على بالك أصلًا، فسيكون وقعه مدمرًا إذن، توقعت أن يكون قد جال بخاطرك على الأقل!

- ماذا تقولين؟ أنا لا أفهم شيئًا!

سكنت لبرهة توسلته بعدها: يجب أن تساعدني يا "وليد"، لا أستطيع قولها بمفردي.

زفر بحنق: أنا لا أفهم ما يجول ببالك أصلًا فهلا أسرعت بقوله؟!

تحجرت الكلمات فوق لسانها وتسللت دمعات حارة بين ثنايا الحدقتين، فطالعها طويلًا بنظرة لم تفهم مغزاها إلا عندما سألها ببرود: ما هذا الذي لا تقوين على قوله لهذه الدرجة؟!

خشيت وقع إجابتها عليه فلم ترد، فتهكم بحقيقة لا يدري أنها بعد ثوانٍ لن يكون وقعها ساخرًا كما أراده: ماذا؟ هل اكتشفتِ فجأة أنكِ لا تحبيني؟

بلعت تيبس ريقها بمشقة وتطلعت إليه قليلًا بذنب، ثم أخفضت بصرها وهي تومئ بخزي فصاح مستهجنًا: ماذا؟!!!

تداركت صدمته بلوعة نادمة متقطعة: أنا آسفة، لم أقصد إيذاءك، لكن الأمور بيننا تطورت سريعًا في حين أشعر أني لا زلت في بداية الطريق نحو قلبك، فارتأيت مصارحتك حتى تقودني إليه.

حدق بوجهها غير مصدق واحتشدت بعض دموع في عينيه، فالتقط مسرعًا مفاتيح سيارته التي كانت إلى جواره وهب من مقعده راكضًا إلى باب المنزل، وغادره صافعًا إياه خلفه بعنف.

***

استكانت نفسها فريسة لظلامها المؤرق، انتهكتها التكهنات والتساؤلات

وعلامات التعجب، أي امرأة لا ينفطر فؤادها حينما ترى متيمًا بها مجروحًا فيها! تطالعه بفوهتين قاتلتين! تجف عبراتها بمواجهة احتقان عينيه بالدموع! لا يكفي وقتها الذنب كله حياله، لا يكفي الخير كله له، يجب أن تنقلب بهكذا لحظة كل الموازين، فرصة أخرى هي السبيل، ستبقى معه، عسى إن بدأت قصتها معه بخطوات متمهلة تتغير الأمور!

انتفضت على رنين هاتفها به فالتقطته برعشة واضحة: أقلقتني عليك عندما هاتفتك ولم تجب.

صرخ بحرقة: لماذا فعلتِ بي هذا؟! لماذا؟ ما الذي فعلته بكِ حتى يكون هذا جزائي؟!

- لم أنوِ يومًا إيذاءك يا "وليد"، أقسم لك، لكن هذا شيء ليس بيدي!

- أليس كل ما كان بيننا إذن كذبًا! أليستِ خدعتك هذه الأكثر أنانية في الوجود؟!

تقبلت الإهانة بصدر رحب فله أن يقول أكثر من هذا: قل ما تشاء يا "وليد" لكن يجب أن تفهم أني لم أنتوِ هذا، اندفعت في مشاعري دون تريث لأني أردتها أن تكون هكذا بشدة وبدون تأخير، ربما تسرعت وأخطأت لكن كل ما قصدته أن أبادلك الغرام، ولم أدرك أني أنجرف وراء رغبة عمياء! كان الأولى أن أتمهل وأصبر على قلبي حتى يفعلها وحده.

- ولمَ تتكلفين هذا العناء؟! أكملي ما لم تستطيعي قوله الليلة، قولي إنكِ لا تريدينني، قوليها لأني لا يمكنني قولها، لا أستطيع.

احتشدت الدموع في مقلتيها وتنهيدة حارة تعربد بخلاياها:

- لن أقلها لأني لا أريد فراقك.

تساءل ممتعضًا كطفل صغير!!1

- لماذا؟! ما الذي يجبرك على الزواج من رجل لا تحبينه؟

- لا أحد، لأني أنوي الزواج من رجل أحبه وسأفعل بإذن الله يا "وليد"، فقط ساعدني.

صاح مستنكرًا: ماذا أفعل أكثر مما فعلت؟! لقد أحببتك بكل ما في صدري من نفس يعتمل!

- ليس عليك أن تفعل شيئًا، كل ما أردته أن تعرف ما أشعر به حتى أستطيع البدء من جديد، فلنفتح صفحة جديدة يا "وليد"، أرجوك.

***

- عندما أخبرتني خالتي بالأمر لم أستطع التصديق.

التوت شفتا "ضحى" بابتسامة تخلو من معناها: أنا بدوري لا أصدق.

- لماذا إذن بقيتِ معه؟!

أفرجت عن تنهيدة تحمل كل الحيرة التي تلج في صدرها: لم أستطع فعلها يا "سلمى" فنويت أن أعطي كلينا فرصة فهو يستحقها، وحمدًا لله، أشعر الآن بقدر كبير من الارتياح لأني لم أعد مضطرة لقول كلمات لا أعنيها.

ربتت "سلمى" على ظهرها بتشجيع: أتدرين! طالما تصرين على منحه فرصة فلربما تحبينه يا "ضحى" حبًّا جمًّا تذكرين معه هذه الأيام البائسة وتلعنيها.

- أتمنى ذلك.

قامت "سلمى" من مجلسها حاملة بعض الكتب بين يديها: يجب أن أغادر الآن، هل ستعودين إلى منزلك؟

- بل سأبقى قليلاً، لا أريد العودة الآن.

تساءلت بإشفاق: هل ستبقين وحدك؟!

أومأت "ضحى" فلوحت "سلمى" بكفها مودعة: كما تشاءين.

وحالما ابتعدت "سلمى" أقبل "علي" مبتسمًا واحتل مكانها الذي غادرته صائحًا: مرحبًا "ضحى".

هجم في إثره كلًا من "باسم" و"محمود" وأشار إليها الأول مقهقهًا: هكذا تكون وجوه الطلبة أيام الاختبارات، كيف أبليتِ أيتها التعسة؟

ابتسمت بالكاد متمتمة: الحمد لله.

وبينما انخرط الثلاثة في حديث سياسى عن مليونية سلمية وشيكة، أخرجت حافظتها وفتحتها لتملئ جوارحها بصورة "وليد" التي كانت قد وضعتها في مقدمتها، تأملت ملامحه مليًّا بوجوم وأغمضت عينيها بألم عندما أدركت أنها ليست صورة الرجل الذي تحب! وعندما فتحتهما من جديد حانت منها التفاتة مندهشة إلى "علي" بعينيه تكادان تخترقان الحافظة وتلميحه: تفتقدينه، أليس كذلك؟

تمنت أن تكون هذه حقيقة مشاعرها لكن هيهات! ورغمًا عنها أومأت فقلب "علي" كفيه بغيظ مصطنع: محظوظ هذا الفتى أن بين يديه هذه الشمس المنيرة!

فوجئت بـ"باسم" يزيد عليه: مؤكد أن "وليد" هذا طيب حتى يستحق فتاتنا الرائعة هذه.

اتسعت ابتسامتها وبينما تشكرهما بخجل لم يفتها ملاحظة توتر "محمود" ونظرات منه متعمدة إلى لا شيء، فخمنت أنه يشعر بالغيرة لأن صديقيه يقولان هذا عن غريمه، لكنها كانت تعرف أنها ليست غيرة محب، بل غيرة محارب لم يعتد خسارة غنيمة ربحها سابقًا، حتى لو كان قد تخلى عنها بمطلق إرادته!

***

توقف "وليد" عن توجيه الخطاب، توقف عن مناداتها بأسماء مدللة كما اعتاد أن يفعل، بات يتحاشى أن يلحق أي كلمة موجهة لها بلقب أو باسم حتى لو كان اسمها، بات يتجنب حميمية الحوار، وهى بدورها بعدما انقشع الوهم عنها لم تعد تقول ما لا تشعر به لأنه سيكون هذه المرة كذبًا واحتيالًا متعمدًا، وكأنهما كانا يريدان بغيروعي أن يبقى الحوار بينهما عاديًا لا يحمل أي صفة! واتخذت من اختباراتها حجة حتى لا يطول بينهما الحديث، لم يعد لديها شيء لتقوله فبدت البداية الجديدة التي وعدته أنها ما تسعى إليه بعيدة كل البعد، فكان أن احتد عليها بغلظة: هلا فسرتِ لى سر عزلتك تلك! فلتخبريني حتى سبب مقنع عن منعك إياي عن زيارتك؟!

أحكمت زمام يدها حول هاتفها بتوتر: ألا تعلم يا "وليد" أن هذه فترة اختبارات!

- فليكن! هذا ليس عذرًا.

ارتفع حاجباها بدهشة وإحباط أكيد: إن كنت لا ترى هذا عذرًا فأنا بدوري لا أرى عذرًا لاستخفافك بدراستي بدلًا من أن تشد من أزري وتدفعني نحو التفرغ لها!

جزعلى أسنانه بامتعاض: صدقيني ليس هذا بسبب مقنع، أنتِ فقط تختبئين خلفه لأنكِ لا تريدين رؤيتي.

زفرت بحنق وصمتت لبرهة قالت بعدها بشرود: فلنلتق إذن يا "وليد"، مرعلي غدًا.

تهدم جدار الشيء الذي كان بينهما أيًا كانت صفته، وليست لديها أدنى طاقة في انتظاره حتى يتعافى لتساعده في بناء جدار آخر وربما أيضًا لا تريد، بل مؤكد لا تريد، فانتوت الرحيل هذه المرة بحق، لا تستطيع البقاء معه والتخلي عن حلمها، وتظن أنها لن تكون له كذلك الحلم السعيد الذي يتمناه.

ويبدو أنها قد صارت عادة لديها أن تقضي اليوم الأخير بصحبة من يحبها في توديعه وداعًا لائقًا! فقد انتوت أن تخطو الخطوة الحاسمة في الرحيل، وارتأت أن تقضي معه ما لم يكن يدري أنه سيكون اليوم الأخير الذي يراها فيه.

***

تهاوى هاتف "ضحى" المحمول من بين يديها ليقع أرضًا وهى ترجع برأسها إلى مسند المقعد الذي اتخذته في شرفة منزلها المطلة على النيل

وقت المغيب، أغمضت عينيها على دمعتين احتشدتا فيهما وذكرى المحادثة التي أنهتها منذ أيام مع "وليد" تصول وتجول برأسها المسكين، ها هو قد أعفاها من المسافة العسيرة التي احتارت كيف تقطعها، أخبرها متزعجًا أنه يشعر بما هي مقدمة عليه فالأمر كما قال ليس بحاجة إلى قدر كبير من الذكاء، لكنه توسلها أن تستخير الله قبل أن تفعلها.

«هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ»، هكذا يقول الرحمن في كتابه الكريم، الله يقدس امتزاج الزوجين ليصبحا شخصًا واحدًا، لكنها لم تستطع أن تكون هي وهو شخصًا واحدًا، لم تستطع أن تحيا تحت جلده وترى بعينيه وتتحدث بأنفاسه، قلبها لم يخفق بدقات قلبه هو، فشلت المعادلة الصعبة ولم يكن الناتج رقمًا واحدًا كما أملت!!

اهتزت يدها رغمًا عنها عندما التقطت برهبة هاتفها الذي رن يعلن عن اتصاله، ألقى التحية عليها بأمل مزروع في قلبه: هل استخرتِ الله؟

تمتمت بصوت مرتجف: أجل.

- ما هو جوابك إذن؟!

- أنا آسفة.

وكأنما كان يعرف جوابها مسبقًا فقد صاح مسرعًا: من فضلك، لا تتحلي بالتهذيب في هذه اللحظة وقوليها كي أصدقها، أفيقيني بها حتى أقنع أن هذا ليس مجرد كابوس.

همهمت بصوت باكي: لا أستطيع.

- أريدك يا «ضحى».

ارتج قلبها وتوسلته بدورها من بين قطرات الملح: «وليد»، أرجوك.

صمت لبرهة فلم تسمع سوى أنفاسًا غادرت صدره وربما لن تعود إليه، اختنق صوته: هذه إذن هي المرة الأخيرة التي سأسمع فيها صوتك! سأشتاق إليه، وإليكِ، وإلينا، لا تنسيني يا «ضحى».

ألهبت الكلمات جوفها كغصة حارقة عندما أنهى المحادثة بضعف:

- الوداع.

توارت في ظلام شرفة منزلها تراقب ابتعاد سيارة «ناير» التي اتخذها في طريقه إلى «وليد»، سيلتقي به ليسلمه خاتمه، هربت من الشرفة وارتمت باكية بين يدي أمها الحانيتين وتدثرت بأحضان فراشها، لم تستطع تخيله وهو يتسلم آخر ما كان بينهما!

***

ثلاثون ليلة بعد الفراق، مرت وكأنها حُقبة طويلة على تورم جفنها وعذاب ضميرها، التجأت إلى الرحمن الرحيم، تتضرع بخشوع أن يغفر ذنبها بحقه، وأن يعثر على نصفه الآخر قبل أن تفعلها هي حتى يصحو ضميرها من موت يلتهمه حيًّا.

وبعدها كلما جال بخاطرها أو أتى أحدهم على ذكره كان ينقلب وجهها وتكفهر ملامحها، مشاعرها نحوه باتت مشتتة تمامًا بين النفور والذنب، يضيق ضميرها بفعلها البشع ويؤنبه الذنب، ولا يروق لها جحود نفسها، فكانت تعدو هربًا من ذكراه بالمشوار، وكانت دومًا تنجح

في ذلك لأنها أردت نسيانه بحق، وحينها أدركت لمَ كان من الصعب عليها أن تنسى "محمود" في وقته.

تسمرت مرة أمام الزجاج الخارجي لمقهى شهد لقاءاتها المعدودة بـ"وليد"، حدقت بمقعدي حبهما المزعوم الذين اعتادا الجلوس إليهما، لم تنتوِ الوقوف في إثر ذكراه بل باغتتها الفكرة على حين غرة، فهي تغدووتروح أمام هذه الأطلال طيلة الوقت، ولم تقف أمامها لمرة وتنعى لقاءاتهما أو تبكيها! بينما كلما تمر ببؤرة خطت بها قدميها إلى جوار "محمود" لا تنفك تباغتها دمعة أو تختلج شفتيها بسمة! حتى الآن يا "وليد"! في حين يفترض بها توبيخ نفسها لأنها لا تذكره بالقدر الكافي الذي يفيه حقه، تجد ذهنها مشغولًا بالبعيد عنه تمامًا...

هل ذاك "المحمود" كذلك لا تمثل له لقاءاتهما السابقة سويًّا ذكرى يقف أمامها؟! أيتخطاها كما تفعل هي مع "وليد" دونما ذنب! "يا إلهي! ماذا بي! لمَ يتحول تفكيري بك دومًا إلى الاتجاه المعاكس؟ تُرى هل يشعر "محمود" بذات الذنب نحوى أم...؟ لا، أنا حقًّا لا أطاق، أنا آسفة يا عزيزي". آمنت أنه فعلًا يستحق من هي أفضل منها، فعسى أن يكره "وليد" شيئًا وهو خير له! كان فراقهما لصالحه أيضًا، كان ليدرك هذا لو بقيا سويًّا، فلم تكن حبيبته تفكر فيه بقدر ما كانت تفكر في نفسها، بدعوى ملأى بالجرح الذي أصابت به نفسها وغيرها!

ماذا عليها أن تفعل كي تنسى أنها يومًا كانت طريدة لصياد لا يعرف سوى افتراس ضحاياه، ثم غدت صائدة مؤقتة لقلب يحبها لفظته عظمًا بعدما نهشته لحمًا؟!

ربت "نایر" بحنان أبوي على نعومة شعر تلك المستغرقة في نوم عميق في أحضانه، دائمًا ما يضطرب ليل "سلمى" لو أوت إلى الفراش وحيدة، ولا تهنأ إلا وعينيها تغفيان على صدره، لهذا يضطر كل ليلة أن يقاسمها الفراش حتى تغيب عن العالم، ثم يقوم ليبحث عن شيء يشغله لأنه لا ينام في هذه الساعة المبكرة، رغم أن عليه بدوره الاستيقاظ صباحًا للتوجه إلى عمله وبهذه الطريقة لا ينال قسطًا مريحًا من النوم، لكن لأن ساعات العمل تلتهم الجزء الأكبر من يومه، يجد نفسه تستميت في إطالة باقي اليوم حتى لا يفنى جل حياته في النهاية في عمل مجبر عليه.

يكره عمله بصورة كبيرة، ربما لأنه يظن أنه غير ناجح فيه، يقوم بالمطلوب منه إنما لا يميزه شيء عن غيره في هذا الصدد، مجرد ترس في آلة يمكن استبداله بسهولة، وما من شيء يتوقف عليه هو بالذات، وهو ما يعده أكبر إثبات على الفشل، يسائل نفسه كثيرًا لمَ يستمر في عمله، والإجابة لا تختلف في كل مرة، لأنه يعرف أن هذا ما يفترض بأمثاله من الرجال فعله، لا أكثر ولا أقل.

أسند رأسه إلى ظهر الفراش المغطى بالجلد، يسحب نفسًا عميقًا من لفافة تبغ، وينفث دخانًا وهمومًا وخواطر تسكنه، يرهف سمعه إلى السكون ساهمًا في الضوء الأصفر الخافت الآتي من الخارج من فرجة باب غرفة النوم المظلمة، هذا الجو المفخخ يصهر تفكيره فيما يتعبه ويثيره، تسوؤه بحق علاقته بوالدته خاصة أنها بدأت مؤخرًا تُظهر أن الأمر يسوؤها بدورها، وهو ما لم تكن تفعله من قبل.

يبدو جليًّا تصاعد حاجتها إليه بعدما بات يضني عليها بالزيارات منذ زواجه، يدرك تقصيره في حقها ويضبط لسانه أكثر من مرة متلبسًا بالكثير من الكلمات التي يود قولها لها، إنما لا فائدة ترجى، كلماته لن تقدم نفعًا، لقد فات أوانها منذ زمن طويل، ولا يجرؤ أن يقلب في صفحات ماض بما لا يمت للحاضر بصلة، إن كان بجعبته شيء ليقله كان أولى به أن يجهر به قديما.. منتهى الخزي أن يحاول الآن.

انتبه إلى أزيز خافت يصدر عن هاتفه الرابض على الكومود المجاور له، يتصل به رقم غير مسجل لكنه يعرف صاحبه، جيد أنه كان يبقيه على الوضع الصامت فلم يوقظ زوجته، أراح رأسها على الوسادة وخرج بهاتفه من الغرفة على أطراف أصابعه، علاقته بـ"سلمى" فيها بعض التعقيد الذي لا تدركه فهو يخفيه جيدًا عنها، لن يسرها أبدًا ما يجرى خلف ظهرها، وهو لن يحتمل لو عرفت أن يخسر هدوءه النفسى الذي تتكفل به بمجرد وجودها إلى جواره، هي الوحيدة التي تُبقيه على احتماله كل شيء آخر.

***

اجتازت "ضحى" تمهيدى الماجيستير بتفوق وتقدمت بخطة بحثها إلى مجلس الكلية الذي نالت منه الموافقة على موضوع رسالتها عن قياس وتوزيع عوائد الاستثمارات الاقتصادية، وبدأت التردد على مكتبة الجامعة ومراكز البحوث الملحقة بها وبعض الشركات المتخصصة أثناء إعداد رسالتها، وبين أيامها المشحونة بالبحث اتفق الرفاق على لم الشمل بعد غياب طويل عن رؤية بعضهم البعض، ولحظها أتت

و"محمود" مبكرين عن بقيتهم! فتبادلا التحية حول طاولة الأصدقاء في إنتظارهم.

لم يكن لديها ما تقوله وهو كذلك بدا أنه ليس لديه ما يقول، لم تعد الكلمات بينهما سهلة كما كانت بل أضحت تخرج منهما بحرص، فحل الصمت ضيفًا مهيبًا على طاولتهما، لم يكونا جالسين إلى طاولة حب، كانت طاولة أخرى، ليست أيضًا بطاولة صداقة، فبداخل كل منهما مشاعر مضطربة تجاه الآخر، لا تقرب من الحب ولا تبعد عن العداوة، مشاعر هزمها منطقها في ترجمتها إلى كلمات، فقط شعرت بالغربة عنه وكأنها لا تعرفه ولا تذكر أيامه المقربة منها!

من الغريب أن يكون شخص قريبًا منك وتكون قريبًا منه إلى الدرجة التي تتوهما فيها أنكما تحبا أحدكما الآخر، ويأتي الوقت الذي تشعر فيه أنكما أغراب وأنه لم يسبق لشعور بهذا الحجم أن داهم قلبيكما! أحيانًا عندما تلتقي عيناها بعينيه في لحظة كهذه تذكر مصارحته لها سابقًا بالغرام ووقوعها في هواه، وحينها لا تصدق أنها تقف أمام ذات الشخص! عقلها يعجز عن استيعاب الأمر ولا إراديًا يخيل لها أنها تقف أمام شخص آخر، فكيف لنيران حب كادت تأتي على قلب بالكامل أن تخمد تمامًا وتمسي رمادًا محترقًا على آخره هكذا!!

كيف نسيتُ وقع خطوك، صدى صوتك، شذى عطرك، نسيته كله حتى تلاشى! ما عاد قلبي يتوق إليك، وكما انتهى أمري لديك، لم يعد قلبك يعنيني، ولم تعد ذكرى ولهي به تلهب حنيني بعدما أخمد جفاؤك أنيني، وجذوة قلبي استحالت إلى رماد ولدت من بين ثناياه عنقاء حب

جديد، ومضت بلا رجعة ليالي السهاد بعدما عزم قلبي على نسيانك الجهاد، فتوقفت عن تشييعك بعد الفراق، توقفت عن مناجاتك حتى الاحتراق، توقفت عن الحياة في ظل ذكراك، نسيتك وتلاشيت كلك.

أشار إليها فجأة بحيرة تفر من وجهه: بكِ شيء غريب اليوم لا أفهمه!

أبدت له إصبعها الخالي من الخاتم فصاح بدهشة: متى؟!

- منذ شهرين تقريبًا.

ارتفع حاجباه لبرهة ثم ضاقت عيناه ورمقها بنظرة عهدتها من قبل: فلتنتظريني يا "ضحى"، أنا على وشك التخرج.

ضحكت طويلًا وقالت متهكمة: تعقل يا "محمود".

مط شفتاه بضيق ممتعض: لمَ تقولين هذا؟!

- لأن الأمر بيننا انتهى منذ زمن وإلى الأبد.

- فقط لو لم تهربي من حبنا منذ البداية!

تنهدت بارتياح ممتن: حمدا لله أني فعلت فأنت لم تكن تمامًا الحبيب المثالي يا "محمود"، فضلًا عن أن أسرتي لديها معايير ومقاييس عالية للغاية في زوج ابنتهم لم تكن لتبلغها وكانت القصة ستبوء بالفشل الذريع حتى وإن كنت حبيبًا مثاليًا.

أشاح ببصره خجلًا وضيقًا فرمته بنظرة مستهزئة لم يلحظها ورجت له من الخير ما لا تعنيه. عندما تعجز حبيبة سابقة لنذل على تمني الخير له، وليس من شيمها أن تبخل على الناس بدعوة قلبية صادقة، فهي لم تصفح حقًا عنه، ليس لأنه جنى عليها بتوحش بل عادةً لأن توحشه

يكون نمطًا متكررًا لا يكف عنه!

أليست التوبة لا بديل عنها لمنح العفو!

انتزعته من جلستهما مكالمة هاتفية تبلغه بنقل والده المريض إلى المستشفى، هب مسرعًا إليه، فلم تتركه تلك الليلة إلا وقد هاتفته بين الحين والآخر لتطمئن على حاله وتنثر أمنيات الشفاء، أليس انتقامًا ذكيًا منها أن يتأذى بطيبتها ونبلها، أن تحقره في عين نفسه حتى يدرك أن من أساء إليها بقسوة أحسنت إليه، ألا يُقَال (أحسن إلى من شئت تكن أميره) أم أن الإحسان في هذا الزمان ليس من الإمارة في شيء، أتراها الإساءة تُملِكَك على الآخرين!

ليلتها باتت روحها هانئة متشبعة بالرضا إلا القليل، وقصت على "سلمى" ما جرى فلمعت عينا الأخيرة انتصارًا مشيدة بها "رائع، أفحمتِه وقللتِ من شأنه ليعرف أنه لا يرقى إليكِ". لم تكن تقصد هذا بالضبط، لم ترفض عودته إليها تشفيًا فيه أو تعاليًا عليه، فقط أرادته أن يعلم أنها لا تندم على ماضٍ فرقهما أو مستقبل لم يجمعهما، ما لم تقربه أنها رغم استحالة عودتها إليه إلا أن خيبة أمل أنثوية أصابتها لأنه لم يحاول أن يستعيدها بالقدر الكافي.

***

احتوى "ناير" زوجته بين ذراعيه وغمغم بقلق جاهد ألا يبدو واضحًا: لا تقلقي، ستكون على ما يرام، والدك سيخرج الآن ويطمئننا.

حدقت "سلمى" في باب غرفة الرنين المغناطيسى بانتظار أن يُفتَح في

أي ثانية، وتخرج والدتها التي مضت عليها أيام أخيرة لا يدخل معدتها شيئًا إلا وتقيئه، فراغ جوفها أسبغ عليها ضعفًا عامًّا وعدم اتزان، أرسل والدها وقتها إلى المنزل طبيبًا يعمل لديه لأنه لم يجد وقتًا أو سببًا مناسبًا ليأتي بنفسه! لكن لم يظهر ما يصيبها في أيٍ من الأشعة والتحاليل التي قامت بها، فما كان من والدها إلا أن يبديها بعضًا من الاهتمام ويحجز لها غرفة في مستشفاه بحثًا عن ذاك المرض الغير المعلوم الذي تتدهور معه صحتها.

اهتزت عينا "سلمى" حالما خرج والدها وحيدًا، اقترب منهما قائلًا في سرعة وهو يطلب رقمًا على هاتفه:

- اطمئنا، والدتك في أيادٍ أمينة، كلفت أكثر الأطباء كفاءة برعايتها، أراكما قريبًا.

رفعت حاجبيها بانزعاج: إلى أين تذهب؟!

- لدي موعد طائرة يجب أن ألحق به.

تساءلت باستنكار: هل ستسافر وتتركنا؟!

- أنا مضطر يا حبيبتي، إنه مؤتمر طبي لا يمكنني تفويته، انتبهي لنفسك، اعتن بها يا "ناير".

قرب شفاهه من جبينها على شفا قبلة، لم يطبعها حقًّا، لربما لم يكن مخلصًا فيها كي تترك أثرًا محسوسًا! أو أنها هي التي انعدم إحساسها به! حملقت في إثره بعينين تملأهما دموع كذبتها. جئنا إليك في ملعبك لتنسحب! ماذا نفعل بعد؟! اذهب.. اذهب ولا تعد أبدًا، لقنتنا درسك

وتعلمنا جيدًا ألا نحتاج إليك، أصبحت غريبًا وسطنا، ولم يعد مرحبًا بك بيننا.

ما إن يصيبك الخذلان حتى لا يعد يُرجَى ممن سببه أملًا. خطى خارج المنزل وربما لم يدرِ أنه لن يعود ليجده كسابق عهده قبل الرهان وبقي عليه أن يتحمل خسارته، توهم أنه سيقبض على كل ما يريد بيد واحدة، لا يدرِ أنه لكي تنطبق أصابعه على جديد عليه أن يتخلى عن قديم، وما أغلى ما تخلى عنه!

***

لم يمر سوى أقل القليل على انفصالها عن "وليد" وإذا بخالها يفاجئها بعريس! ألم يعد هناك القليل من لمحات التهذيب والتعقل! استاءت كثيرًا فليس وكأنها تكاد تفقد معالمها كامرأة حتى تهفو العائلة خلف الأمل الأخير لزواجها!! رفضته رفضًا باتًّا وتقطرت عيناها بجنون عاصفة عاتية، ثم أعادت جدتها الكرة مرة أخرى بعدها بفترة متسلحة بقناعتها بأنه قد مروقت لا بأس به على تلك القصة، توسلتها أن تبعد عن تفكيرها تمامًا ذلك الأمروتذرعت بالمبررات فلم تعدها جدتها بشيء، وبقيت معلقة بأمل ألا يتقدم أحد لطلب يدها حتى يحين الأوان ويأتي إليها فارسها من تلقاء القدر، غير أن القدر يأبى بشدة أن يهديها أمنيتها.

فقد أصرت "ندى" على أن تجمع بينها وبين زميلها معيد كلية التجارة الشاب "سامح" الذي التقاها قبلًا بالنشاط الجامعي، وأعجبته منذئذ ويريد الآن التقدم لخطبتها، كان "سامح" في السابعة والعشرين من عمره

من أسرة ذات مركز اجتماعي ومادي مرتفع، مناسبًا تمامًا بمقاييس الجميع، لكنه ليس مناسبًا بمقاييسها الخاصة، إذ رفعت منذ زمن راية «لا لزواج الصالونات»، لكن أحجمت والدتها و«ندى» ثورتها وأسقطتا شعاراتها ودفعتاها رغمًا عن احتجاجها إلى اللقاء به بدعوى أنه ليس صالونيًّا إلى هذا الحد، على الأقل لم يدله أحد عليها وإنما تقدمه إليها في حد ذاته ينم عن إعجابه بها، هذا غير وابل من مواعظ عن ضرورة وأد خوفها من المرور بنمط مشابه لما مرت به من قبل، وعاقبة رفض النعمة وغلق الأبواب أمام الفرص الحقيقية.

ويا ليتها تمسكت بكلمتها! فإذا به لا يتخطى مرحلة القبول الأولى بالنسبة لها حيث كان حديثه عمليًّا محتدًّا، ملحقًا بابتسامة حسبتها مثيرة للغيظ كأنما يخال نفسه ظريفًا، «لا أقبل بعمل المرأة، فهى قطة أليفة لا تصلح لارتياد الشوارع»، سألته إن كان يعد مكان العمل شارعًا أم أنه يقصد الخروج من المنزل على وجه العموم؟! فأجهز عليها بما حسبها دبلوماسية لكنها كانت كفيلة بإراقة دم النقاش الخالي من الحياة، «منزل المرأة هو مملكتها وكل ما تأمر به يجاب دون أن تبارح مكانها». وبدا لها أنها لا تكتفي من خيبات الأمل! فقد رضخت مجددًا، هذه المرة لإلحاح جدتها لمقابلة ابن جارتها المسنة التي ترغب أن تخطبها له، وما إن وصلت وجدتها إلى مكان اللقاء المتفق عليه ورأته، حتى جذبت جدتها من كمها وشهقت بلهجة غريق «فلنعد إلى المنزل». كان العريس يكبرها بأعوام عديدة ولم يكن حتى حديثه أو مظهره بأفضل ممن سبقه، رسمت يومها بمهارة ابتسامة متكلفة طيلة الجلسة معه،

وأسئلة حائرة تتكدس بخلايا مخها المهترئة بدوى قنابل إحباط تفتك بها يومًا بعد الآخر.

لمَ يجري لها كل هذا؟ يزج بها القدر في تلك المعمعات الهمجية؟ وينحرف بها المسار عن الطريق المفتوح الذي تريد بلوغه؟ تتوه بين غياهب سراديب ودهاليز لا تملك إلا الضياع؟ وتنعطف اتجاهاتها المشاكسة وتودي بها نحو منحدر بلا قرار؟ لمَ تطبق على أنفاسها الحالمة تلك المتاهة الملتفة بأفعوانية مدوخة؟ أحلمها صعب المنال إلى هذا الحد؟! أم هي النفس لا تهدأ! معلقة في المنتصف بين الأرض والسماء، بطبيعتها مربكة، متلكئة، كأنما لا تعلو فوق الهمس أو أن الحلم أقوى مما تقدر عليه! لربما ناطح السحاب ومشيت هي بتؤدة على الأرض! عصي عليها في صحو قاس كذلك الذي تحيا به أو يحيا بها!

لم يعد أمامها غير أن تؤمن بألا أجمل من حب لا تنتظره! فتكف بحثًا عنه وتضييق الخناق حول عنقه كي يأتيها عنوة، تعبت بحق ولم تعد لديها أصلًا الرغبة في ملاقاته.. على الأقل في الفترة الحالية، هي أفضل حالًا بدونه، كل ما تريده الآن أن تستعيد عافيتها وكفى، تريد أن تشفى تمامًا من كل خيبات الأمل تلك اللاتي شوهت صورة جميلة له يسعى خلفها الجميع وأولهم هي، أو كانت!! فمنذ زمن ليس بالبعيد تمنت فتاة أن تجمعها وصورة الحب المغوية تلك إطار واحد، والآن وقد تحطم الإطار وتشوهت الصورة بعينيها، كل ما تريده الفتاة أن تشفى من الذكرى، وتلتفت إلى نفسها، لتنعم بصحبة خالية من الصورة والإطار وكل آخر عداها هي.

رفع "فارس" عينيه إلى ابن عمه إثر دخول الأخير مكتبه بمديرية أمن الجيزة، أشار إليه بالجلوس وهو يتساءل باهتمام: ماذا فعلت؟

مط "ناير" شفته حائرًا: تصور، وقفت ساعات في صف طويل وعندما حان دوري للدخول والإدلاء بصوتي عدت من حيث أتيت.

طالع "فارس" أنامله الخالية من أي أثر للحبر الفسفوري مبديًا دهشته: لمَ؟

- طيلة وقفتي في الصف لم يكف عقلي عن التفكير والترجيح بين المرشحين ولم أستطع أن أختار أيهم، لم أرد أن أحمل إثمًا جراء اختيار خاطئ، لم أعد أثق في أحد، لم أعد أثق حتى في رأيي، تشابه الصواب والخطأ حتى لم يعد يمكنني التفرقة بينهما، ألم تشب هولًا من الكم المكتشف من الفساد والأسماء المتورطة، لا أريد أن أكون مسؤولًا عن اختيار بهذا الشكل.

- خير ما فعلت، ما فعلته في حد ذاته اختيار، وأكثر عقلانية كذلك، لقد اختنقت من بلطجة الناس باسم حقوق التعبير وحرية الاختيار تلك، أصبحوا كالقطيع الهائج يصعب السيطرة عليه، همج! ولم يعد أحدهم يظهر لنا احترامًا كافيًا، لكنهم واهمون، هيبة الشرطة لا زالت حاضرة في الشارع وكل شاب لا زال يحلم أن يكون ضابطًا.

هب "ناير" من مقعده مبديًا ضيقه: أحيانًا تكون مستفزًا ومتعجرفًا وتتصرف مثل والدك، تعلم جيدًا كم يغضبني هذا.

أشار سريعًا بكفه: "ناير" لا تكن سخيفًا، اجلس، حسن، سأنتبه لحديثي.

واجهه بحدة: حتمًا لم تنسَ كم مرة اجتمعنا فيها نَسبُه سرًا لما يشابه ما قلته توًا.

ابتسم "فارس" متهكمًا: كنت تحرضني ضد والدي أيها العاق.

لان "ناير" قليلًا وعاود الجلوس: لم أحتج إلى ذلك يا حبيبي، هو لم يستطع أن يكسبك في صفه، أتذكر تلك المرة التي بكيت فيها لأنه أجبرك على دخول كلية الشرطة في حين كنت تتوق دخول الجامعة للإيقاع بالفتيات؟

ضحك "فارس" قائلًا: لكن اتضح أنها نعمة فيما بعد يا أخي، استطعت أن أهرب من تقريعه وأوامره واكفهرار وجهه حالما يراني، خمسة أيام في الأسبوع بعيدًا عنه، وأحيانًا كنت أتسبب لنفسي بالاحتجاز في الكلية يومي الخميس والجمعة حتى لا أعود إليه.

جز على أسنانه بحقد ساخر: وبعدها عملك خارج الإسكندرية أيها المحظوظ! بينما بقيت أنا في فوهة المدفع، ولم يعد يشغله غيري حتى مات.

هز "فارس" رأسه وغمغم: رحمه الله.

حدجه "ناير" باستنكار، أتجوز عليه الرحمة! زفر حانقًا وتمتم:

- رحمة الله على والدي.

تجاهله "فارس" مقدرًا وقال بتردد بعد برهة: "ناير"، أريد أن أفاتحك

في موضوع هام.

***

بين المطرقة الذهبية والسندان الرخامي هي، إنه لمأزق! وما أغربه من مأزق! "فارس يسري" بنفسه يلهث خلفها للفوز بها كأميرة في مملكته، يا إلهي العليم! أهو فارس أحلامها بحق وقد غفلت عنه على مرأى منها؟ هل يعقل أن يكون الرجل الذي أخطأته بواقع تجربتين في غاية المرارة؟ أهو نفسه من سيلقي القبض على سنوات الحرمان الشاقة ويُسجِنها الماضي؟ أقادر هو على أن يكسر إبريق إنتظارها ليتدفق حبه منسكبًا في غرامها؟ هل يمكن أن يكون البوصلة التي ستقود خطواتها إلى جادة الهوى وتنحرف بقلبها بعيدًا عن الألم فتصطدم بالحماقات القديمة في حادث سير يودي بحياتها، أم سيكون شبلاً من ذاك الأسد، مرآة لوالده، الابن سر أبيه؟!

دخلت المجلس بخطى بطيئة مترددة فهب "فارس" مستقبلًا إياها بابتسامة واسعة بادلتها بأخرى صغيرة كلها حياء، ثم انتقت مقعدًا فارغًا مجاورًا له فتنحنح بتهذيب: ما شاء الله، تبدين مثل القمر. أطرقت برقة وعيناها معلقتان بباقة زهور مستكينة بينهما، فبادرها: لقد ابتعدنا زمنًا طويلًا يا "ضحى" أو بالأحرى لم نكن مقربين يومًا.

- لكني لم أشعر يومًا أنك معجب بي!

ثم أردفت أمام صمته الواضح منه أنه لم يكن يتوقع أن تكون هذه أولى كلماتها إليه: أظن أنك تقدمت لخطبتي لأنك تراني عروسًا ملائمة لك، أليس كذلك!

- لا، هذا غير صحيح، أتظنيني أبحث عن عروس وكفى! أقسم لكِ إنني معجب بكِ منذ زمن وقد أردت أن أتقدم لخطبتك لولا أن سبقنى ذاك "الوليد" إليكِ، لكن الحمد لله يبدو أن لي نصيبًا فيكِ بعد كل شيء، فإياكِ أن تعتقدي أني فقط أراكِ عروسًا ملائمة لأنكِ ابنة عمي وما إلى ذلك.

وأمام صمتها الذي استشعره عدم تصديقها لما يقول عاتبها: أكان هذا خطأي أني احترمت صلة القرابة ولم أشأ أن ألفت نظرك إلى إعجابي بكِ حتى أتقدم لكِ رسميًّا! لا تظني أني كنت أغض البصر عنكِ، لطالما راقبتك دون أن تريني فلا يمكنني أن أقسو على عينيّ وأحرمهما من مطالعة رقتك، لم أكن بقادر على أن أغفل عنكِ أيتها الجميلة.

ابتسمت رغمًا عنها فتساءل بشقاوة: هل من مزيد من التهم؟!

واجهت مزاحه بجدية مطالعة إياه بثقة: أتأسف لما سأقوله لكنني أعلم أنك زير نساء.

حدق في وجهها مبهوتًا ثم نفى بضيق حاول أن يخفيه:

-معلوماتك خاطئة.

- لا أظن ذلك، معلوماتي استقيتها من ابن عمك، أحيانًا كانت مغامراتك مع الفتيات تشكل حديثًا بين أخي و"سلمى".

ابتسم بخفة مراوغًا: ليس الأمر كما تظنين، وأصدقك القول، شقيقك معلمي، ما أنا إلا تلميذه.

تساءلت بقوة مستنكرة: ومن أخبرك أن هذا سيشفع لك؟!

- لكني سأكون مخلصًا لكِ.

- لكنى لا أريد حبيبًا يشبه عمي، أنت ابنه ولا بد أنك تشبهه، وسمعتك تسبقك على أي حال، أنت عنيف تمامًا كما كان، وأنا لن أستطيع التعامل مع هذا، يكفيني ما نالني من والدك!

- لكن معاملتي لكِ ستكون مختلفة، اطمئني، أنتِ أميرة جميلة وسوف أبذل ما بوسعي كي أكون جديرًا بكِ وأعاملك المعاملة التي تستحقينها.

توتر قفز إلى أناملها فارتعشت بفوضوية، ثبتتها بنفس عميق تنصلت بعده من عرضه بتهذيب: "فارس" أنا لست مطمئنة، لست مرتاحة لهذا الأمر.

- لمَ يا "ضحى"؟! فلتعطِيني فرصة لأثبت لكِ حسن نواياي، ألا أستحق!

وأردف مترددًا بترغيب: من يحب يفعل الكثير لأجل حبيبه كما تعلمين.

تصببت حرجًا: لكن أنا لا أحبك.

أطرق برأسه وقال بهدوء بعد ثوانٍ من الصمت الثقيل على أنفاسهما:

-أما أنا فأحمل شعورًا كبيرًا نحوك.

هتفت بضيق: من فضلك لا تقل كلامًا لا تعنيه.

صاح بضيق مماثل: ومن قال إنني لا أعنيه؟!

غمغمت بتبرم: لا أصدقك.

- وماذا أفعل كي تصدقي أني أهتم لأمرك أيتها الفاتنة؟! لا أستطيع أن أخسرك، أتمنى أن تعيدي التفكير ولا تقحمي والدى بيننا، فضلًا لا

تأخذيني بذنبه.

أطبقت شفتيها لوهلة بعجز ثم غمغمت بوجوم: دعني أفكر.

***

obeikandl.com

obeikandl.com

-7-

كانت "ضحى" ترى والده شخصًا سيئًا ولم يبخل في إعطائها سببًا وجيهًا لظنها هذا! تشوهت صورة عمها أمامها وهذا التشوه نأى بأي رغبة أو محاولة منها أو من "ناير" ليكون مثلًا أعلى يقتديان به، تؤمن أن الطباع تتوارث فإن شب المرء على ازدراء طبع فسيشيب على عدم التطبع به، وهكذا لم تتوارثه هي أوشقيقها، لكن ما أدراها أن ولده لم يتوارثه بدوره! تخشى "فارس"، تخشاه كثيرًا، وليست مستعدة أن تقدم له حسن نيتها وظنها به حتى وإن كان هناك احتمال أن تكون على خطأ بشأنه، فيظل هناك احتمال أن تكون على صواب، وفي هذه الحالة يحبذ الابتعاد عن المخاطرة.

اضطربت خفقات قلبها عن قافيتها المعتادة ما أن استهل "فارس" المحادثة بسلامه المحموم، بلعت ريقها فانزلقت كلماتها معه غارقة فيه حتى انتشلتها بصعوبة لتسكن شفاهها وتخرج منهزمة من بينهما، توترت أنفاسه فقست على تأنيب ضميرلم يجدها يومًا الإنصات إليه: كان لي الشرف أن فكرت في شخصي المتواضع كشريكة لحياتك، لكن أخشى ألا أكون على قدر أحلامك.

ردد بخفوت مندهش: لستِ على قدر أحلامي!!

عضت على شفتها بأسنانها متعشمة ألا ينقم عليها، وأن يكون ما أسمعها إياه من غزل وما أبداه من مشاعر لطيفة تجاهها كذبًا، لأن هذا سيريحها من ذنبها الكبيروسيحمل عنها عبئًا ثقيلًا: لا أظن أن الأمر سيفلح بيننا، أنا آسفة حقًا، وأتمنى لك من كل قلبي الأفضل.

أوقفها سريعًا بلهجة خاوية احتارت في أمرها: لا تتأسفي يا "ضحى"، هذا الأمر ليس مقدرًا لنا، أنتِ لازلتِ ابنة عمي وأخت لي، وأتمنى لكِ التوفيق.

***

كان يومًا صيفيًا حارًا هذا الذي رن فيه هاتف "ضحى"برقم مألوف، اقترب المساء ولم يفقد الجو بعد حرارته، ربما للصيف طريقته في توديعهم إذ كانت تلك آخر أيامه معهم! لا تنكر عظيم دهشتها لاتصاله بها وهو الذي لم يفعلها منذ زمن لم تعد تذكره! أقبلت على الهاتف بحماس لكشف سر هذا الاتصال، ومضت الثواني الأولى معه في تحية لا معنى لها بعدما انتهى الشيء الذي كان يجمعهما وانتهى خلفه المبرر لمعرفتها به.

- لا يمكنني إخفاء دهشتي من اتصالك بي يا "محمود"، فلا أظنك فقط هاتفتني لتلقي التحية عليَّ وتطمئن على حالي، لم أعتد هذا منك!

جاءت إجابته تحمل ضحكته: أنتِ على حق، لقد هاتفتك كي ألومك لأنكِ لم تهنئيني بنجاحي في اجتياز اختبارات السنة الرابعة.

- ألم تقل لي آخر مرة رأيتك فيها إنك على وشك التخرج في الكلية! كان

من البديهي أن أستنتج أنك اجتزت هذه السنة بنجاح.

قال متبرمًا: لكن نتيجة الاختبارات وقتها لم تكن قد اعتمدت بعد!

- حسنًا، هذا خطئي، مبارك عليك النجاح والتخرج.

- كدت تُنسيني، صديقك يا عزيزتي يعمل الآن في طاقم التدريب الرياضي بنادي الجزيرة.

- حقًا! هنيئًا لك يا "محمود".

تمنت لو كان أمامها لتحاصره بتشفي عينيها، أرأيت كم يؤلم أن يحط شخص من قدرك. ها أنت تتلوى أمامي كي تثبت لي أنك بأفضل حال أيها الأحمق!

- بالمناسبة، لقد ارتبطت مؤخرًا بـ"هبة"، صديقتنا من اللجنة التنظيمية بالنشاط، تعرفينها، أليس كذلك؟ سأخطبها قريبًا.

انعقد لسانها المُسْقَى بلعقة من المر. "هبة"!! تلك الفتاة الناعمة كقطعة من الحرير! البريئة كندفة ثلج بيضاء! أيها النمر الجشع! تلهث خلف كل غزالة شاردة تهرب من بين أنيابك! مجبول أنت على الأخذ بالفتيات لتسمو بعاطفتهن دون استحقاق أو مراعاة - لا حتى الأدنى منهما- مشاعر لست أهلًا لها ولا قادرًا على تقديرها ومبادلتها!!

انتصر عليها مجددًا، أين جزاؤه؟ أين عقابه إن حصل على فتاة مثلها؟ لم تحظَ يومًا بانتقامها منه، وكانت تعد الأيام والليالي في انتظار اللحظة المشهودة التي ستتشفى فيها منه، وها هو أملها يذهب أدراج الرياح فقد حظي بـ"هبة".. تلك الفتاة التي ليس مقدرًا لمن هو مثله أن يحظى

بها! شعرت أن ثمة منطق يصرخ بألا يحق لها الاستياء من علاقتهما، لكن ليس كل ما هو ممنطق مقبول! لا تستطيع أن تقبل هذان الاثنان تحديدًا سويًا، أيهما تعدى الحدود، علاقتهما أم رفضها لها؟!

تبًا، لمَ كل انتصار له بمثابة هزيمة فاضحة لها؟ يتركها عن طيب خاطر ويجد ما يسره لدى أخرى! أبدًا لا تريده ولا تراه فارسًا لأحلامها التي تعالت قامتها الآن عن أي وقت مضى، لكن يقتلها أنها كذلك ليست فتاة أحلامه وأن هذا لا يقتله. لطالما رأت نفسها فضيلة آدمية، إنما هذا الاستياء الذي تشعر به لأن سواها ربحت ما نازلت هي لأجله وعادت أدراجها بدونه خائبة الرجى، يؤكد لها أن الانسان حتى وإن لم يكن شيطانًا لكنه أبدًا لن يكون ملاكًا!

ما أبقت على علاقتها به إلا لرغبتها في أن تُشعره أنها أفضل منه، وأنه تسبب في أذى عظيم لإنسانة لم تؤذه يومًا عن عمد، كانت تريده أن يشعر أنه خسر جوهرة ثمينة، لكن طالما لا يفعل! وكل ما يسببه لها هو كم متجدد من الأذى حتى بعدما كف ما كان بينهما ولم يعد يجمعهما شيء، فقد انتهت منه، وإن كانت لا تدري كيف فكرت يومًا فيما يمكن أن تبدأه معه!

***

فيما تغوص شمس المغيب في قلب الأرض، وتطل السماء بلون برتقالي خافت على جلسة الفتاتين في سيارة "ناير"، التي صفها إلى جانب الطريق وترجل منها ليبتاع مقرمشات تسلي طريقهم إلى الإسكندرية

في زيارة لعمتهما المريضة، تواجه "سلمى" ابنة خالتها بمكر: "أحمد وحيد"، صديق "ناير"، رأى صورتك بين صور زفافنا وأعجبته ويريد التقدم لخطبتك.

حدقت "ضحى" بوجهها بدهشة لثوانٍ ندبت بعدها غير مصدقة: حتى أنتِ يا "سلمى"!!

- ماذا بكِ! ماذا تقصدين؟!

- حتى أنتِ لا تفهميني وتلهثين خلف زواجي بأي شكل من الأشكال، وبهكذا طريقة مثل الكل تمامًا! وقد تنازلت وطاوعتهم رغمًا عني، وحاولت مرارًا رغم أني لم أكن قادرة أو حتى راغبة، لكن لا أصدق أنه حتى أنتِ لا تدركين كم أحتاج إلى فترة نقاهة من كل خيبات الأمل تلك التي أصابتني في مقتل! حتى أنتِ لا تدعميني وتشدين من أزري لانتظار الفارس الذي أحلم به، ترمينني هكذا بمنتهى البساطة في تهلكة زواج الصالونات!

ظهر الأسف جليًا على وجه "سلمى": معذرة يا "ضحى"، لم أدرِ حقًا أن هذا الأمر يثير مشاعرك لهذه الدرجة! ظننت أنه قد مرت فترة كافية.

- ليست فترة كافية أبدًا طالما لا زلت غير مستعدة لفصل جديد من حياتي، والأهم أنه لن يكون أبدًا بهذه الطريقة.

- وماذا يعيبها هذه الطريقة؟!

أغمضت عينيها بتخوف وهي تضم ذراعيها إلى صدرها: مرعبة، أساسها هش وسطحي، تضطرنا إلى الاستمرار طوال العمر مع رجل

عبارة عن ضربة حظ قد تصيب وقد تخيب.

- ضربة حظ! لم تهولين الأمر؟! إنها ليست سوى فرصة لملاقاة رجل من المحتمل جدًا أن يكون هو من تحلمين به وتبحثين عنه.

- كيف؟ وهو حتى لا يحبني! قدري أوقعني في طريقه فحسب، لم يرَ فيَّ سوى اسم عائلة سمع بها ومركز اجتماعي ومستوى تعليمي يناسبانه، ثم يتقدم ليرى هل العروس على قدر من الجمال يسمح له بإمضاء بقية حياته معها، وإن كانت تتم الصفقة.

- كل ما ذكرتيه وكان دافعًا له ليتقدم إليكِ جزء منك يا "ضحى"، يشكلك، ولو كان مختلفًا لكنت أنتِ بدورك مختلفة، وفترة الخطوبة تقدم له الفرصة أن يحاول التعرف عليكِ في إطار رسمي مسموح به، وإن اتضح له أنكِ فتاة أحلامه سيكمل معكِ، وإن لم يحبك لن يجبره شيء على البقاء معكِ.

- وماذا عني؟! ربما عندما أتعرف إليه لا أحبه.

- وربما تحبين أحدًا خارج المنزل ولا يكون شخصًا جيدًا ولا يقدرك حق قدرك، المسألة لا تقتصر على الحب، ثمة اعتبارات أخرى بمثل ذات الأهمية إن لم يكن أكثر.

- أعلم، وأدرك ما تلمحين إليه، لكن المسألة بالنسبة لي لا يمكن أن تخلو من الحب، والمشكلة أنه غالبًا لا يأتي من النظرة الأولى، فكم رجل إذن سأعطي علاقتي به وقتًا وصبرًا حتى أعرف إن كنت سأحبه أم لا؟ كم رجلًا سأوافق عليه ثم أعود وأفسخ خطبتي منه حتى أجد الرجل

الذي أحب!!من سيسمح لي بهذا أصلًا؟ هل سيوافقني أحدهم على ذلك! كوني صادقة يا "سلمى"، الزواج بهذه الطريقة الحب ليس شرطًا لإتمامه!

- وأين ستجدين إذن حبيبك هذا؟ هل سيحمل على جبينه هويته التي تثبت أنه فارس أحلامك؟!

- أنتِ تتهكمين لكني صدقًا أتمنى ذلك، على الأقل سيعفيني من خوض هذه التجربة.

- أتفترضين أنه يجب أن تصطدمي بفارسك في الشارع فحسب كي يكون هو المختار!

- أظن ذلك، فأي لقاء غير مدبر يتخطى عتبة المنزل فرصته أكبر، لأن الارتباط سيكون باختيار ورغبة كلانا وليس لأننا نريد الزواج من شخص ملائم وكفى.

- وهل لازلتِ تثقين في فرسان الشارع يا "ضحى"؟!

أجفلت "ضحى" ولم ترد على سؤال "سلمى" المبطن، فرفعت الأخيرة حاجبها الأيسر لأعلى فجأة، ونطقت ملامحها بلهجة ماكرة أدركت منها رفيقتها أنها تحاول بها التسربة عنها: حسنًا، ربما تكونين اليوم على موعد مع رجلك المنشود هذا!

تطلعت إليها بتساؤل فجعدت "سلمى" أنفها لتغيظها بنبرة حالمة: الفارس المغوار.

- ماذا تقصدين؟!

تراقصت ابتسامة آثمة على شفتيها: رجل المعادلة الصعبة.

زفرت "ضحى" بحنق وهتفت غاضبة من تلاعبها بالكلمات: "سلمى"، بم تهذين؟!

أشارت "سلمى" بطرف خفي خارج السيارة، حيث كان "ناير" يتقدم نحوهما إلى جوارشاب معتدل القامة لم تستطع "ضحى" تبين ملامحه بعدما خيم الظلام على الأجواء، فصاحت بعصبية: "سلمى"، أنتِ تقودينني إلى الجنون!

قفزت "سلمى" مسرعة من مقعدها الأمامي إلى جوار "ضحى" بالأريكة الخلفية، قائلة بكلمات لاهثة عندما اقتربت يد "ناير" من مقبض باب السيارة الأمامي: أقصد "فارس"، ها هو يلتف حول السيارة كي يعتلي المقعد الأمامي الذي غادرته للتو ليذهب معنا إلى عمتك.

تساءلت "ضحى" بسرعة و"ناير" و"فارس" يفتحان البابين الأماميين للسيارة في ذات الثانية: ولمَ لا يستقل سيارته ويذهب بها؟ لمَ لا يزورها أصلًا في يوم آخر؟!

ردت "سلمى" تحية "فارس" الخافتة، وهمست في أذن رفيقتها عندما استقل الشابان السيارة وجلسا في مقعديها الأماميين: سيارته بتوكيل السيارات للصيانة، ولمَ برأيك يذهب معنا؟!

اومأت "ضحى" بتفهم، بينما يشغل "ناير" محرك السيارة لتنطلق بهم: كنتِ تعرفين أنه آتٍ بصحبتنا لهذا انقضضتِ على كنمرة مفترسة!!

أسرعت "سلمى" تضع كفها على شفتيها لتكتم ضحكتها بصعوبة وهي

تومئ- أجل.

- ولماذا لم تخبريني؟ كان يمكنني ألا آتي، أشعر بحرج شديد وأظنه متبادلًا.

- الأهم أن تتبادلا شيئًا آخر غير الحرج.

نظرت لها منذرة وهمهمت بتحذير: "سلمى"!

- صدقيني لن تجدي أفضل منه، ولا تضيعيه من بين يديكِ للمرة الثانية.

خبطت "ضحى" بأناملها على رأس "سلمى" بانفعال خافت: هذه الأوهام لا تدور إلا في عقلك لأنه سبق لي أن قررت أنه ليس الرجل الذي أتمناه.

همست بإلحاح: أعيدي النظر.

صرفت "ضحى" ذهنها بقوة عن طيش التفكير بـ"فارس" الذي دفعتها إليه "سلمى" بكلماتها وإشارتها المغوية، متناسية في غفلة من كلتيهما ماضٍ عريض لا يسعها الصفح عنه! ستبرهن حماقتها إن انصاعت لأفكار لحظية تراودها بشأنه وهي تشعر بأنفاسه قاب قوسين أو أدنى من مشاعرها الهشة طوال زمن يقتسما فيه مشوار بالسيارة!

***

حثت "ضحى" الخطى نحو المقصف كي تبتاع شيئًا مرطبًا ريثما تنتهي استراحة مؤقتة فرضتها على نفسها وسط جدولها المزدحم بالبحث في مراجع مكتبة الجامعة. فاجأها نداء قوي بحنين غريب، استدارت

بسرعة فلمحت شابًا أسمر طويل القامة يقترب منها بخطى سريعة متلهفة أصبحت قاب قوسين أو أدنى منها، حياها "علي" بابتسامة عريضة متبادلًا معها أحدث الأخبار، مبديًا تعجبه فتشاركا ضحكة شقية.

- خطبتي لم يكن مقدرًا لها أن تتم، لم يكن هو المنشود يا "علي".

- هي فرصة مثالية إذن أن يحاول معكِ شاب معجب مثلي.

انفلتت منها ضحكة عابثة فتساءل باستهجان: لم تضحكين؟!

- على مزحتك، ألم تكن تمزح!

- وماذا لو لم أكن أمزح؟!

خفتت ابتسامتها وتمتمت: لكنك تمزح، أليس كذلك!

- لا يا "ضحى"، أنا لا أمزح.

حدقت بدهشة في عينيه الثاقبتين فأجبرتها جدية نظراته على خفض بصرها: ماذا تعني؟!

- أنا بحق معجب بكِ بشدة يا "ضحى" ومنذ البداية، مذ وقعت عيناي عليكِ أول مرة، لكن "محمود" اختطفك مني آنذاك، وحين قلت لنفسي أن أمنحك فرصة للتعافي منه، عدتِ إلينا بخاتم ذهبي في إصبعك! هذه المرة يجب أن أقتنص الفرصة قبل أن يسرقك مني آخر.

حملقت بذهول في وجهه وقالت بخفوت غير مصدقة: أنت تمزح؟!

- قلت لكِ لا أفعل، وأدرك تمامًا أن الوقت ليس ملائمًا، لكني أخشى أن أفقدك مرة أخرى.

تيبس حلقها فبلعت ريقها بمشقة وتخطت مجلسها بوجل مبتعدة عنه بخطوات مسرعة: لقد تأخرت، يجب أن أرحل.

لحق بها بلهفة: "ضحى"، يجب أن أراكِ مرة أخرى.

تمتمت بوجه ممتقع وضربات قلب متزايدة: ربما.

***

"تبًا"، تمتمت "ضحى" بها وهي تصعد الدرجات الرخامية المؤدية إلى منزلها، فقد قضمت للتو ظفرها الطويل بحركة طائشة لم يسبق لها القيام بها، لطالما اعتنت بأظفارها لكنه ذاك التوتر اللعين الذي تسرب إلى أفكارها حتى أغرقها بـ"علي" وتصريحه لها بإعجابه بها، تاهت عنها حقًا نظراته وتلميحاته، لم تعتقد أكثر من أنه يمازحها بغزله، لم تتخيل مرة أنه يعنيه، "سلمى" كانت على حق، أشارت لها قبلًا لكنها لم تتعلق باستنتاجها واستثنت جديتها.

دقت جرس باب المنزل بعصبية، ففتح لها شاب معتدل القامة لم تكن عيناه الخضراوان اللتان تطالعانها تحملان شيئا مميزًا أكثر من أنهما كانتا تشعان بخبث جذاب.

- كان يكفي جرس واحد، لقد صممتِ أذني.

حدقت في وجهه بذهول لم تستطع إخفاءه، فاتسعت ابتسامة "فارس" كاشفة عن أسنان صغيرة مصطفة، وأفسح لها المجال للدخول متبرعًا بإجابة تفسر وجوده: خالتك بالداخل تحضر بعض الأغراض التي تحتاجها والدتك في المستشفى.

تبخر ما خامرها لوجوده في منزلها في غمرة انفعالها: أمي بالمستشفى!! ماذا بها؟!

أشار بكفه مطمئنًا جزعها: لا تهلعي، إنها بخير الآن، لقد أزالت الزائدة الدودية.

- يا إلهي! حقًا!

- تعلمين أن "ناير" بمهمة عمل في مرسى مطروح، وما أن عرف بالأمر حتى هاتفني كي أكون إلى جواركن لأنه لن يصل إلينا قبل المساء، وحتى خالك خارج البلاد.

أومأت بتفهم مشيرة له بالجلوس حالما انتبهت إلى أنه لا زال واقفًا ليجيب تساؤلاتها، وأسرعت بانفعالها تقتحم غرفة نوم أمها لتجد خالتها تعد حقيبة سفر صغيرة: كيف يحدث كل هذا ولا يبلغني أحدكم؟!

- لم نستطع الوصول إليكِ، هاتفك مغلق.

تحققت "ضحى" من هاتفها بسرعة لتجده حقًا خاليًا من الحياة، فزفرت بحنق بينما استطردت خالتها:

- "سلمى" قالت لي إنها ستتصل بكِ على هاتف المنزل في وقت عودتك إليه لإبلاغك، لماذا عدتِ مبكرة على أي حال؟!

ارتبكت لوهلة إثر ذكرى البحث الذي فوتته، لم يكن مفترضًا أن تعود الآن لكنها هلعت وفرت من الجامعة كأرنبة مذعورة يعدو وراءها ذئب مسعور، فتغاضت عن الإجابة ببرود: هل لي أن أعرف ما الذي يفعله "فارس" هنا؟!

هزت كتفيها مجيبة ببساطة وهي تغلق الحقيبة وتناولها لابنة أختها كي تحملها: يسدي لنا معروفًا، هو من أودع "كوثر" في المستشفى، وأوصلني لإحضار هذه الأغراض.

تساءلت بخفوت عندما همت خالتها بالخروج إلى صالة الاستقبال:

-مهلًا، أين تذهبين؟

- إلى المستشفى طبعًا، "فارس" سيوصلني، هل ستأتين معنا؟

- بالتأكيد.

كتمت شعورًا غريبًا لم تدركه لكنها لم تشأ التعامل مع تصاعده، وأسرعت إلى مرآة غرفتها تهندم ثيابها وتحسن زينتها وحماس غير مفهوم يتلاعب بمشاعرها.

طيلة الطريق إلى المستشفى الذي قطعته السيارة اتخذت أريكتها الخلفية مجلسًا، تحدق بثبات في رأسه من الخلف، حفظت طول عنقه ومنابت شعره والتواءات خصلاته القصيرة، أسئلة لم تفلح في الإجابة عنها تعربد في رأسها لم ترحم حيرتها وأنهكت جهلها، أتكون قد تخلت بطيب خاطر عن رجلها المنشود أم أنه حقًا ليس فارس أحلامها! ألا تزر وازرة وزر أخرى، أم لعلها اجترحت الصواب عندما لم تأمن جانب رجل أهان والده عائلتها وذل ناصيتها! التوى ثغرها بامتعاض عاجز عن الإجابة في اللحظة التي تقابلت فيها عيونهما في مرآة السيارة، فتراقصت على شفتيه ابتسامة وكأنما كان يسترق النظر إلى أفكارها! فتخضب وجهها بحمرة مضمخة بتوتر لا تدري له سببًا.

طرق "فارس" باب جناح المستشفى برقة ففتحت "ضحى" الباب ليطالعها بتهذيب: هل أجد معكِ شاحنًا كهربائيًا للهاتف؟

أومأت فمد يده لها بهاتفه برجاء: هل يمكنك أن تصليه بهذا الهاتف من فضلك؟ بطاريته أوشكت على الانتهاء.

تناولته منه مبتسمة: بالتأكيد.

بادلها الابتسامة، وتراجع مغلقًا الباب خلفه: شكرًا، أنا بالخارج إن احتجتن إلي.

توقفت لبرهة محدقة في الباب المغلق بتفكير مشتت وعقل لا يستقر على فكرة واحدة، حتى انتزعها مكر معتاد من "سلمى" التي تمددت براحة على أريكة جلدية مستندة إلى الحائط، على بعد نسبي من الفراش المعدني الذي ترقد فوقه "كوثر"، وإلى جوارها تجلس شقيقتها على مقعد جلدي وثير.

- ألن تصلي هاتفه بالشاحن أيتها الحالمة؟

أسرعت "ضحى" تكتم فمها بأناملها كإشارة لها أن تصمت: ماذا تقولين؟!

- لا تتذاكي.

أشارت بيدها بحنق إلى أمها وخالتها اللتين استغرقتا في ثرثرة ممتدة: فلتصمتي، ستسمعانك، سأخرج قليلًا لأحضر مشروبًا باردًا من بوفيه المستشفى، هل تريدين شيئًا؟

- فقط أوصلي سلامي للبوفيه.

لم تلقِ "ضحى" بالًا لضحكات "سلمى" الساخرة، واندفعت خارج الغرفة بعصبية تلاشت تمامًا حالما لفحتها النسمات الباردة المندفعة من النوافذ العريضة التي ملأت ردهة طابق المستشفى، بحثت عنه بعينيها حتى رصدته مستندًا بمرفقيه إلى الإفريز الحديدي لإحدى النوافذ، توقفت لبعض الوقت على بعدٍ منه خشيةً ووجلًا.

تريد المجد لكن يبدو أنها تهت في الضوء! ترى حلمها عاديًا لا يرتفع قيد أنملة عن الأرض، لكن يبدو للقدر وكأنه يشق عنان السماء! أكثر من أي وقت مضى تعرف جيدًا ماذا تريد، لكنه للأسف ليس في متناول يدها وتخشى أنه يومًا لن يكون، تنظر حولها وتراه نابضًا في القلوب فيُزيدها رغبة حائرة، لماذا إذن يتعفف عن الدنو من تلهف قلبها عليه! توهمت أنها زهدت فيه وأنه لم يعد يعنيها، لكن يهيأ لها أنها فقط زهدت فيما اعترض طريقها مما تنكر في ثوبه ولم يكن هو، فأبدًا لا يمكن لمرء أن يزهد فيما يثمل القلوب ويسكر العقول! وهي لا تختلف عن البشر، فتعاهدت مع نفسها التواقة إليه أن تنتظره كراهبة لا تسعى خلفه، ألا تفي بالوعد!

حانت منه التفاتة كشفت مراقبتها له، فتوجهت إليه بخطى مترددة واستندت بدورها إلى إفريز النافذة التي تطل على ساحة إسمنتية واسعة، تتوسطها حديقة عشبية صغيرة، تزينها أشجار قصيرة لم تنمُ كليًا بعد. أدار عينيه ببطء إليها فلفحت نظراته الحادة وجهها الذي تفرس في ملامحه، توقف لوقت طويل عند انفراجة شفتيها، وانتهى به المطاف في عمق حيرة عينيها اللتين بدا أنهما أعادتاه إلى صوابه، فصرف

نظره تمامًا عنها، ومرت ثوانٍ صامتة مشوبة بتوتر حاد. تخامرها نحوه مشاعر مترددة، مغلقة تأبى أن تنفتح له، ربما يجب أن تخلي طريقها منه طالما يثير بداخلها كل هذا القدر من الخوف.

التقطت نفسًا عميقًا محملًا بالبرد: كنت في طريقي إلى البوفيه لإحضار مشروب، آجلب لك واحدًا؟

اعتدل على الفور بتهذيب: هذا واجبي، ماذا تشربين؟

- لا، لم أقصد أن أدفعك إلى هذا، لقد....

- "ضحى"، أي مشروب تفضلين؟!

قالها بتحذير فألجم لسانها أمام ابتسامة منه ونظرات كلها رقة: مياة غازية.

- عودي إلى الغرفة وسأحضره إليكِ إذن.

هزت رأسها نفيًا مبتسمة: سأنتظر هنا.

- "ضحى"، من فضلك عودي إلى الغرفة، لا يمكنك الوقوف وحدك هنا في الممر.

- لن يحدث لي شيء.

تجاهل عنادها ودفعها بخفة نحو الغرفة، انتفضت فأزاح أطراف أنامله التي مست بالكاد كتفها في لمح البصر، وشدد على كلماته وهو يشير بطرف خفي إلى بضعة شباب انتشروا في الردهة: ألا ترين هؤلاء الشباب! لا أريد أن أعود لأجد أحدهم يحاول مضايقتك.

وأردف بنفاذ صبر: من فضلك عودي إلى الغرفة.

زفرت بغمغمة حانقة وهي تبتعد، فعاد مقتربًا منها وضيّق عينيه متسائلًا: بم تغمغمين؟

- أرأيت كم أنت عنيف!

كررت غمغمتها بحدة غير متعقلة فوقعت الكلمة على مسامع كليهما بدوي هائل، اتسعت عينيها بذهول لما تفوهت به للتو، وأنبت نفسها بحدة، كيف؟ كيف جهرت له بتلميحٍ عما مضى؟ في حين ارتفع حاجباه بدهشة لوهلة، ارتسمت بعدها على شفتيه ابتسامة لم تدرك مغزاها وهو يتمتم معتذرًا:

- لم أقصد.

- لا عليك، سأذهب إلى الغرفة.

- فتاة مطيعة.

***

فتحت "ضحى" باب الغرفة برفق وتلصصت على خارجها، لتجد فارس لا يزال غارقًا حتى أذنيه في حديث على الهاتف، فزمت شفتيها بضيق، منذ نصف ساعة أحضر لهن المشروبات الباردة وغاص في حديث ودي على الهاتف الذي حملته له بيدها عندما أضاءت شاشته باسم فتاة ما، أغلقت الباب بسرعة فورما فوجئت به ينهي المحادثة ويتقدم نحو الغرفة، وعندما سمعت دقاته الرقيقة فتحت الباب بتثاقل وكأن دقاته انتزعتها من شيء ما، فاعتذر بلباقة: عذرًا على إزعاجك، لكن هل يمكنك أن تعيدي إيصاله بالشاحن؟

- طالما تتحدث طيلة هذا الوقت لابد طبعا أن تفرغ بطاريته دومًا!

قالتها بامتعاض فطالعها بنظرة مستمتعة وأشباح ابتسامات تسكن شفاهه، لعنت حماقتها وانتزعت منه الهاتف فقال ممازحًا: رفقًا.

هز نظراتها الغاضبة وقع أقدام على الردهة عائدة لـ"ناير"، كان يقترب منهم مناديًا "فارس"، فأغلقت الباب في وجه الأخير وهو يستدير لاستقبال شقيقها، وأسرعت بأنفاس متلاحقة تجلس إلى جوار ابنة خالتها وكأنها لم تقم من جانبها في المقام الأول، فضحكت "سلمى" ساخرة: أنتِ طفلة حمقاء!

وأردفت باستمتاع عندما زجرتها "ضحى" مشيرة إلى الأختين الغافيتين إلى جوارهما: سيعلو صوتي كما أشاء، "ناير" جاء على أي حال وسيوقظهما بنفسه.

***

لعنت "ضحى" حظها العاثر، فقد ضبطها "علي" الذي كانت تحاول باستماتة مرتجفة طيلة الأيام الماضية التهرب منه، لمحها هذه المرة في طريقها للمغادرة بعدما فرغت من بحثها في مركز البحوث والدراسات الاقتصادية والمالية التابع للكلية، اعترض طريقها فتوقفت.

- "ضحى"، كنتِ تتهربين مني، أليس كذلك! هل أفزعك إعجابي بكِ!

طالعته بتوتر فأضاف بحزن مستتر: لا تخافي، لن تحاصرك مشاعري فقد قهرتها تلك النظرة التي اعتلت وجهك عندما بُحت لكِ بها؟!

أخفضت بصرها وقضمت شفتيها بأسف ممتعض. منطوق حزنه

شرخ قلبها ألمًا لأنها لم تطل يومًا التفكير فيه أو تلتفت قبلًا إلى مشاعره:

-عذرًا يا "علي"، لم أقصد، لكن وقع الأمر عليَّ كان هائلًا. لطالما اعتبرتك أخًا ولم يخيل إليَّ مطلقا أن شعورًا كهذا قد يراودك نحوي.

فرقع إصبعيه أمام عينيها ونطق وجهه فجأة بالمرح:

- لا تعبأي بشيء، انسِ كل ما قلته.

زاغت عيناها أمام مرحه المصطنع فرسمت بدورها ابتسامة زائفة:

-كما تشاء.

مسَّد جانب عنقه الطويل الذي علقت به تفاحة آدم مرات عديدة كأنما يربت على أفكاره، فانفلتت عيناها رغمًا عنها تطالعان باطن كفه الممتلئ المتشرب بنقاط حمراء متداخلة، وأصابعه القصيرة وأظفاره بالغة القصر مقضومة الأطراف. خطر على بالها حينها أن تنصحه بأن يطيل أظفاره حتى يتحسن شكلها وتبدو كما تحبها، وحالما رفعت عينيها إليه لتخبره، تشبثت بها عينان سوداوان هائمتان في الأفق المكشوف، أبتا أن تفكا حصارهما حولها.

كيف لتلك العينين القاتمتين الضيقتين أن تحملا كل هذا القدر من الجاذبية الساحقة؟! فبشكل ما لم تكن النظرة الكاملة إلى وجهه تشي بوسامة طاغية، وكأن سحره الكامن في عينيه لا يخطف الأبصار السريعة! ما دعاها إلى التساؤل.. لِمَ تستأثر تلكما الحدقتين بكامل نصيبه من كمال الأوصاف؟! كانت عيناه تتدحرجان من احتواء الأفق العالي بينهما حتى وصلتا إلى تيه عينيها، فتساءلت سريعًا بدون تفكير

مطول: لمْ تقل لي ماذا تفعل بالجامعة، ولم يعد هناك تجمع في النشاط كما سبق.

غزا الوجوم وجهه كمستعمرة دُكت حصونها وتنهد: هل يمكنك أن تعفيني من الإجابة!

انزلقت كلماته على مسامعها بوهج صارم، فاهتزت ملامحها بغير تصديق، هل يعقل أنه يجوب الجامعة أملًا في الاصطدام بها!

- على الأقل أخبرني ماذا تفعل في حياتك الآن؟

كشف ثغره عن ابتسامة فضحت جبالًا شاهقة يكسوها الجليد وهو يجيب بحبور: ألا تعلمين! أنتِ صديقة مخيبة للآمال حقًا! كان يجب أن أتلقى منك التهنئة بدلًا من جهلك المشهود بعملي الوشيك في النيابة العامة.

- صدقًا! التحقت بصفوف النيابة العامة! هذا رائع، أي أنك تمثل الآن سلطة قضائية وتملك صفة قانونية في التحقيق والتصرف في كل شيء! أنت حتى تحظى بحصانة قانونية!

- أجل، لكن لا زالت خطواتي بها في بداياتها، فقد التحقت بدورات تدريبية ملزمة بمعهد الدراسات القضائية، لم أتسلم العمل بعد، لكني حلفت اليمين بمجلس القضاء الأعلى.

انبهرت ابتسامتها وسعادة منتشية كست عينيها: أنا بحق سعيدة لأجلك وأتمنى أن تعتلي أرقى المناصب فأنت كفء لها، وأصدقك القول، هذه المهنة تليق بك تمامًا، فأنت تتميز بنظرتك الواسعة وأحكامك

العقلانية.

- أشكرك يا "ضحى".

غمزت له بعينها اليسرى بتشجيع: بالتأكيد رفاقك يتميزون غيظًا لأنك سحقتهم بتفوقك.

***

ألا تكره عيادة طبيب الأسنان! تُقَيد تحت يديه كسمكة يتلذذ طفل شقي باصطيادها من حوض زينة صغير وإعادتها إليه من جديد، فتشهق السمكة بعنف حالما تخرج من الماء، وتتجرعه بلهفة بمجرد عودتها إليه. إحساس مقيت أن تتمدد على تلك الأريكة الجلدية وهكذا أداة حادة مزعجة تعبث بأسنانك، فتدفع معدتك للتقلب وتثير غثيانك وتشج رأسك! لكن مجبر أخاك لا بطل، فقد كاد ألم ضرس "ضحى" المسوس أن يأتي على البقية الباقية من خلايا مخها.

فما بالك لو كان الطبيب أيضًا ثرثارًا متطفلًا، يحشر أنفه في تفاصيل اهتماماتها وأحلامها في الحياة وعائلتها، حتى تمنت لو يغلق فمه المزعج قليلًا ويركز في عمله، وما فتئت تمنع نفسها بأعجوبة من الانقضاض عليه وتلقينه درسًا هو وأداته الحديدية المزعجة التي سببت لها صداعًا مزمنًا.

خرجت من عيادته مبيتة النية ألا تعود إليها مرة أخرى، وقطعت الدرج مسرعة حتى تنشقت الهواء البارد في الشارع الواسع الذي سارت إلى جانبه في طريقها إلى منزلها، وضحكت ملء شدقيها حالما هاتفت

"سلمى" بصدد تفجير مفاجأة عرض الطبيب: "سلمى"، كنتِ على حق، لقد فعلها اليوم، طلب يدي.

هللت "سلمى" بانتصار: أرأيتِ!

- يا لكِ من مجرمة! كيف تفهمين هذه الأشياء؟

ضحكت "سلمى" بدورها حتى تأوهت وقالت بترفع: هكذا أنا، توقعاتي لا تخيب أبدًا.

تشاركتا ضحكة مجلجلة فوجئت "ضحى" على إثرها بسيارة تعترض طريقها وتعمي بصرها بأضواء كشافاتها الساطعة، ولم تدرِ إلا وقائدها يترجل منها ويجذبها من ساعدها وينتحي بها ركنًا جانبيًا على مقربة من مدخل البناية، مفرغًا غضبه: ألا تخجلين من عبثك هاك على قارعة الطريق!

انتزعت يدها من قبضته بدهشة ممتزجة بغضب مماثل: "فارس"! ما شأنك أنت؟!

صاح بلهجة تحذيرية: كيف لتكون صورتك في أعين الناس بضحكاتك العابثة تلك؟!

- انتبه لحديثك! ضحكاتي ليست عابثة، ثم كيف تجذب يدي على هذا النحو؟ لا يحق لك.

التقط نفسًا عميقًا وقبض على كفيه مسيطرًا على أعصابه النافرة: -أنا آسف، لكن عذري هو اهتمامي بكِ يا "ضحى".

تلاشى إنزعاجها وخفتت حدتها تمامًا وهي تتمتم بأنفاس واجفة: ماذا

تعني؟!

تسلل شيئًا من الوجوم إلى وجهه وحارت عيناه في إجابة، فسألته بحماقة: هل لا زلت مهتمًا بأمري يا "فارس"؟!

حدق طويلًا في عينيها فتلاحقت ضربات قلبها المتعشم بإجابة لا يدري لم ينتظرها بهذا الشغف! وهل ستشفيه من إصابته المزمنة بالتيه الأزلي! لكنه ضرب غرورها في مقتل: أهتم فقط لأنكِ ابنة عمي.

وأردف مشددًا على كلماته التي تثاقلت على إثرها دقات قلبها وترقرقت عينيها بعبرات واهنة: أنتِ لستِ على قدر أحلامي يا "ضحى".

واستطرد مفسرًا بقسوة متعمدة: قلتها لي من قبل، وأوافقك الرأي فيها.

***

- تخيلت أن يكون مختلفًا عنه، لكنه يشبهه فعلًا، إنه مثل والده تمامًا.

قالتها "ضحى" بانهيار وشيك في حضرة "سلمى" التي قلما تعجز عن القول، لكن هذه المرة علقت الحروف بحلقها لفترة طويلة حتى أخرجتها أخيرًا بعدما تنحنحت بخفة: لعله قصد فقط إثارة حنقك يا "ضحى"! رد فعل عنيف على مشاعره التي انتقصتِ من قدرها قبلًا.

زفرت بغيظ وقالت بعيون دامعة: لكلمته مغزى قاسٍ وآخر يُرضي غروري، لكني لن أجازف بالتوقف أمام معناها الثاني فلعله قصد الأول، وهذا ما أرجحه فبعد كل شيء إنه ابن عمي "يسري"، وقد كنت

مغفلة بما يكفي أن فكرت يومًا في ابن ذاك الرجل، أنا في غنى عن المزيد من الألم وخيبات الأمل، لقد اكتفيت.

مسَّدت "سلمى" ظهرها بحنان: لا تفكري هكذا، أنا واثقة من أنه يُكِنُّ شعورًا لكِ.

- لا يهمني، أنا فقط مستاءة من الطريقة التي تحدث بها إليَّ، وكلماتي نفسها التي تعمد أن يجرحني بها في حين قلتها له قبلًا لمواساته، لقد قللتُ من شأني أمامه كي تسمو مشاعره، خطأ آخر لم أنتبه إلى تكراره، وكأن التاريخ يعيد نفسه، فإن كان يقصد معاقبتي على ما لم يكن بيننا فهو إذن ليس بالشخص المناسب لي.

- ربما هو بحاجة إلى...

قاطعتها بغضب: أيًا كان يا "سلمى"، لا يهمني أمره مطلقًا.

بدا لها موعدًا حاسمًا مع رجل تتعرف عليه لأول مرة رغم تاريخهما المشترك! كأنه دعاها إلى طاولة قرار آن له أن يُتخذ بلا تأخير، فطلبت أخيرًا الانسحاب ومغادرة المكان بعد النظر إلى قائمة كل ما مر بينهما وكل ما قد يأتي، لم تعد هناك حاجة بهما إلى الجلوس سويًا على طاولة واحدة لم تجمعهما حقًا بموعد لا يشبههما فعلًا. كان الحب غائبًا عنهما ولم يكن هناك داعٍ لاستجداء قدومه، يبدو لها مستحيلًا بحجم إخفاقاتها المتكررة، فليس هناك من عجب أن ينتهي الموعد قبل بدايته! فقد مر نادل الحب حولهما دون أن يتوقف لخدمتهما، لم يرَ بهما حبيبين يلبي طلباتهما!

- كنت أظن أن ثمة انجذاب بينكما!

- فضلًا يا "سلمى"، أنا لست مأخوذة به، أنا حتى لا أريد أن أراه مجددًا بعد اليوم، فلتكفي إذن عن دفعي إليه.

***

تعثرت شهقاتها على أعتاب صرخة، صرخة أردت الوفاء الذي حسبته بينهما قتيلًا بواقع شعيرات شقراء طويلة انتزعتهن من فرشاتها الخاصة، استندت "سلمى" بعنف إلى طرف طاولة الزينة مقاومة غثيانًا مخضبًا بالصدمة،تعذرت دموعها عن الإيفاء بحق قلب يتلظى، وترفعت تأوهاتها عن التعبيرعن انتهاك حرمة ما بينهما. اندفع "ناير" إلى حيث رفعت أمام عينيه المشدوهتين آثار جريمة ممثلة في شعيرات شقراء طويلة توقف على إثرها مهوتًا، وبينهما أمتارًا من الخيانة والصدمة.

تحشرجت أنفاسها: من تكون؟!

صمت مطبق وكأن شفتيه التحمتا ببعضهما، فصرخت بلوعة مجنونة: من تكون الشقراء التى جلبتها إلى منزلي؟! لا، لا أريد أن أعرف، قل لي فحسب كيف استطعت أن تفعلها بي؟!

لم تكن يومًا ساذجة كي تنطلي عليها حججه الواهية، لكنها ارتضت تصديقه وتجاهلت كذبه المفضوح، لم يكن بدوره كاذبًا بارعًا، مفضوح دائمًا بجرمه، غير أنها تورطت بحبه ولم تشأ أن تقحم الحقيقة بينهما، شكت في أمره كثيرًا ولم تحاول يومًا أن تثبت التهمة عليه، ففعلها هو ووفرعليها الخديعة، والآن ليس بإمكانها معاودة الإنكار، مدينة لكرامتها

باعتراف.

كتمت شهقاتها بيدها بحرقة: أنت تخونني يا "ناير"!! تخونني! كنت أشعربك وأنت تحادث فتيات على الهاتف، وكنت أعلم عندما تعود من موعد بصحبة إحداهن، لكن لم أجرؤ يومًا على تصور أنك قد تجلب إحداهن إلى منزلي!! أنت لم تحبني يومًا أيها الكاذب.

تجمعت الدموع في عينيه بغزارة حتى تساقطت متدحرجة، فتأوهت مستنكرة: لا تبكي، لا تبكي، لماذا تبكي؟؟ لا يحق لك!

أتراه يبكي على اللبن المسكوب؟! أبعدما غرس في قلبها خنجرًا مسمومًا وأطلق على حبها له الرصاص! قتلها بيديه بشتى الطرق وبكل هدوء، بمنتهى البرود، لم تكن ضربة قدر مباغتة.. لا، حتمًا اختار موتها بأعصاب ثابتة وضمير خائن. أهو فى حاجة الآن إلى مناديل ورقية لدموعه؟! فليمسح بها أولًا خنجره الملوث بدمائها، وليبرد فوهة مسدسه، أرديتني قتيلة وانتهى الأمر.

***

- وقف أمامي جامدًا يا "ضحى"، لم يحتج، لم يدافع، لم يقل شيئًا على الإطلاق، فمه مطبق وعيناه مبللتان وجسده متصلب، وبينما أصرخ أمامه وجعًا من خيانته لي، أردت بغبائي أن أندفع نحوه وأجذبه إلى أحضاني، أمسح دموعه وأربت على أحزانه، أسأله ما خطبه!

غمغمت "ضحى" بتأثر: لم أره في عمري يبكي!

التفتت إليها فجأة بعيون غائرة: هل رأيتِ في حياتك كلها من هي أكثر

جنونًا مني؟ أصادفتِ يومًا ضحية تخفف عن الجاني!

تنهدت "ضحى" والتوت شفتاها مشفقة: أنتِ تحبينه.

حبها له بحجم محيط تستدرجها إليه أمواجه الشاهقة، ويغرقها فيه قاعه العميق، ولطالما خشيت "سلمى" ألا يرتوي قلبه به، ويقذف بها عطشه إلى الشاطئ، وقد كانت مخاوفها حقيقية!

قالت "سلمى" بعنف دموعها: لكنه لا يبادلني الحب.

- لا يمكنك أن تكوني واثقة من هذا!

- لعله يحبني، لكن ما جدوى هكذا حب إن لم يكن مخلصًا له!

لم يكن لدى "ضحى" جوابًا، ولم تدرِ بما يمكن أن تخفف عنها ألم السؤال، بينما غشيت عيني "سلمى" عبرات حارقة مغرقة في السكون، أنا اليتيمة بكل ما أوتيت من الخذلان، من أب وزوج على قيد حياتي!

***

مالت السحب ببطء أنثوي متعمد، بانحناءة باردة تضرب الوجوه، بعنف لم ينجُ "علي" من براثنه المثلجة. كان يضم ياقة سترته الصوفية إلى عنقه الأسمر الطويل وهو يقبل على انتظار "ضحى" له بإحدى طاولات المقهى الجامعي. تقلصت الخطوات بينهما فوقفت في استقباله بامتنان: شكرًا لأنك خصصت لي وقتًا في خضم عملك.

لوح بكفه وهو يدعوها للجلوس مبديًا قلقه: لا عليكِ، أخبريني ماذا بكِ؟ لم يبدُ صوتك على ما يرام عندما هاتفتيني.

وافقته بإيماءة من رأسها وقالت بضعف: عذرًا يا "علي"، ليس هناك

من رجل في حياتي يمكنني الحديث إليه، وأنا بحاجة ماسة إلى الحديث إلى رجل ولم أبحث عن سواك.

انتفخت أوداجه رغمًا عنه وهو يشجعها على الحديث: كلي آذان صاغية.

أطبقت أصابعها على ذراعيها الذين عقدتهما أمام صدرها بضيق:

- لا أدرى من أين يمكن أن أبدأ الحديث فهو طويلٌ مترامٍ!

- أخبريني بأكثر ما يقلقك أو يزعجك وستكون هذه بداية ممتازة.

قالت بدون تردد بعينين التمعت فيهما دموع أزعجته:

-"سلمى"، أكره رؤيتها تتأذى على يد أحب الناس إلى قلبي، أقف بينهما عاجزة، هي على حق وهو أخطأ في حقها، لكني لا أريدهما أن يفترقا، لا أستطيع أن أدفعها إلى الإقدام على الرحيل عنه، وفي ذات الوقت لا أرى سبيلًا آخر أمامهما، لو لم يكن أخي لكنت دفعتها دفعًا بينما أنا مضطرة إلى إرغامها على البقاء!

- مهلًا، ألا تخبريني كيف أخطأ بحقها إلى درجة أنكِ ترين أن عقابه رحيلها عنه!

- ليس مخلصًا لها، يواعد أكثر من فتاة في الوقت نفسه وجلب إحداهن إلى المنزل في غيابها.

ارتفع حاجباه بدهشة أخفاها سريعًا: وهل واجهَتْه بما عرفت؟

أومأت فتساءل بفضول: وماذا كان جوابه؟!

- لم يتفوه بحرف، وقف أمامها كتمثال جامد لا يتحرك.

هز رأسه متفهمًا في حين أردفت بإشفاق: تحبه حتى النخاع وهو لا يبادلها الحب!

رفع كفه محتجًا: اسمحي لي، لست واثقًا من مدى حبه لها لكن أعتقد أنه يحبها، ربما ليس بالقدر الذي يغنيه كرجل اعتاد آخريات في حياته. وطالما يواعد أكثر من فتاة فهذا يعني أنه ليس متعلقًا بإحداهن، الأمر بالنسبة له ليس متعلقًا بفتاة بعينها، إنه للأسف حدث متكرر في حياة العديد من الرجال، ولا أظنه بقادر على التخلي عنه إلا بكثير من التفهم والتسامح.

صاحت باستنكار: كيف لها أن تتفهمه وتسامحه على هكذا جرم؟!

- حبها له يستحق منها أن تفعل، إنه أندر من أن تجده مرتين في حياة واحدة!

انفلتت منه نبرة حزينة لم يستطع السيطرة عليها، وحالما تقابلت نظراتهما قرأت بوضوح في عينيه ما يعنيه، فاختلج قلبها رغمًا عنه.

***

اعترض "ناير" بيأس طريقها فزفرت "سلمى" بغضب: ابتعد عن طريقي.

لم يتزحزح من مكانه فأشاحت بوجهها عنه: فلتغرب عن وجهي يا "ناير"، لا أريد رؤيتك.

أحكم قبضته حول معصمها فتأوهت بألم متشنج:

-اتركني، أنت تؤلمني.

خفف قبضته لكنه لم يكن ليترك لها منفذًا للفرار منه بعدما رفضت مرارًا الاستماع إليه: لن أتركك حتى تسمعيني.

تطلعت إليه لثوانٍ انفجرت بعدها في بكاء متقطع من فرط حاجة شهقاتها إلى أنفاس الحياة، فضمها إليه معترفًا بندمه بقوة تنسل قهره من نفسه وعليها: لقد أخطأت، أعترف بهذا، أنتِ لا تستحقين أيًا من هذا، ولا تستحقين حتى مزيد من الكذب.

جهلها بالأمر كان مسكنًا لوجع ضميره، لكن ما أن علمت حتى تلبسته كل الذنوب بحقها!

ابتعدت عن أحضانه بعنف واضح، وقد بدا أنها استمدت منها ما يكفي لمواجهته، وكأن قربه منها أمدها بالقوة التي تحلت بها أمامه، لطالما كانت قوية، أقوى من المعتاد! لكن ليس كل من يتحلى بالقوة تتحلى القوة به، في الأغلب تنسحب عنه في أشد لحظات الضعف، وقد كانت تلك لحظة من هذا النوع.

لا تملك كلمات ملائمة تقولها له، تتقلص المعاني في حروف مجردة، لن تخذل إحساسها بكلمات لا تشفي غليله أو حتى تفيه قدره، فلتسترح أذنه، لن تُسمعه ما يؤذيه، يكفيها عينيه تتأذى برؤيتها، وقد حرصت على أن يبدو هذا واضحًا في نظراتها إليه، فتراجع عنها باضطراب: هل صرتِ تكرهينني؟!

هزت رأسها نفيًا، وخبت مع كلماتها القاسية ابتسامة أمل كادت تتألق في عينيه: أكره أني لن يسعني مسامحتك مهما فعلت، وأخشى عليك من

دعواتي الصادقة الخالصة لله بمعاقبتك على ما اقترفته بحقي.

- ألا تسمعينني فقط؟

***

في أيام قليلة ماضية التقيا وتحدثا عن نفسيهما حتى الشبع، لكن هذه المرة أقبل "علي" عليها غريبًا عن كل مرة، بعينين مغبرتين بالغضب ووجه حانق لم تعتده منه، وما أن جلس إلى جوارها متناسيًا تحيتها حتى بادرها بسؤال مربك ،كأنما يريدها أن تنضم إليه في تلك الحالة التي تلبسته. أبى أن تنفرد به وحده أو يغرق فيها بدونها، وعرف كيف يستدرجها إليها.

- كيف هي الحياة بدون أب يا "ضحى" ؟

استطاع بمهارة أن يفعلها، إذ زفرت بتوتر بعدما تنحت عنها ابتسامتها، نظر إليها مطولًا بإشفاق شاعرًا بذنب طفيف لما اجتره سؤاله عليها عندما دمعت عينيها مبدية ألمها: قاسية، غير آمنة.

تمتم بتهكم حائر وكأنه بحق يريد إجابة:

- أتظنين ذلك؟!

ربت على كفها بحنان في لمسة أولى منه فارتعشت أصابعها لا إراديًا، ثم استكانت تحت ثقل كفه الدافئ الذي أزاحه ليدسه في جيب سرواله، ويخرج منه سلسلة مفاتيح يتدلى منها مفتاح معدني طويل بقبضة بلاستيكية سوداء لوح بها بهدوء: هل يمكنك أن تنضمي لي في سيارتي نجوب بها الشوارع قليلًا، كم أرغب بلفحة هواء باردة بصحبتك!

ابتسمت بمزح: من أين لك هذا؟

- هذا من فضل ربي أيتها الشقية، لقد اشتريتها بالتقسيط وأريدك أن تكوني أول من يستقلها إلى جواري.

- ومن سيكون غيري إلى جوارك بعدها؟

هز رأسه قائلًا بتودد: أنتِ فقط، لا أحد غيرك.

تنحنحت بتوتر فصاح بحماس: هيا بنا.

هزت كتفها وقامت إلى جواره محذرة: هذه المرة فقط.

أومأ موافقًا ولم تفارق الابتسامة شفتيه حتى سألته حالما احتل مقعده خلف المقود: تجهمك الذي استقبلتني به يا "علي" يخفي شيئًا خلفه، أليس كذلك!

وافقها مبديًا ضيقه فتساءلت بقلق: ما خطبك؟!

أطبق أسنانه بشدة: إنه أبي، رغم طموحاتي التي تتحقق يومًا بعد الآخر لا يراني سوى طفلًا صغيرًا ساذجًا لا يفقه شيئًا.

- كيف تكون هذه هي نظرته إليك؟! ألا يعرف أن وضعك لم يكن ليصل إليه إلا رجل محنك! ألا يعي معنى عجزه عن تقديم أدنى مساعدة لك واعتمادك على ذاتك منذ سنوات مضت! كيف تكون حينها ساذجًا؟!

خبط بعنف على المقود وصاح بشراسة: عجزه عن فهم هذا يخرجني أحيانًا عن شعوري.

عضت شفتها بقلة حيلة عن مواساته وقالت بتوتر: اهدأ، لا تزعج نفسك.

زفر بحنق: تصوري، وبخني لشراء السيارة وقال إن بائعها لص وإنه كان ليحصل عليها بسعر أقل وشروط تقسيطية أكثر راحة، دومًا يقلل من شأن قراراتي واختياراتي.

- تناسَ الأمر، إنه رجل متقاعد لم يخالط الحياة منذ فترة ولا يعلم كم أنت رجل ذكي ومقدام! فلتفتح معه حديثًا وتنقل إليه أخبارك دومًا حتى يعرف بشأنك.

يقود الطريق متجليًا أمامه يتمه بفقد أمه، ومحاولات غريبة على أب أن يحبط ابنه ويهد قواه. لوالده نظرة سوداوية عامة مفعمة باليأس، لذا لم يكن أيًا مما يخصه شاهدًا على نجاح يُحسَب له.. عمل وحياة اجتماعية وأسرية باءت بالفشل لأنه أصر عليه، أثبت بأسوأ طريقة ممكنة أن للإصرار على الشيء جدوى في تحقيقه! رأى في ولده من ميل لقراءة الألغاز البوليسية وحل الكلمات المتقاطعة ما يؤهله ليفشل دراسيًا، وكأنما هي عدوى نفسية وبائية، فلم يُخِب "علي" ظن والده وفشل حتى انتهى به المطاف في أسفل قائمة الكليات بمجموع هزيل.

كان الابن سر أبيه، حتى خلع جلبابه عنه أثناء دراسته الجامعية حينما تعرف على حركة سياسية التحق بصفوفها مدفوعًا بعزيمة لم تخلُ بعد من الروح ونَفَس طفح الكيل من ضعف وانسياق منها غير مستساغ له. سابقًا هيأ من نفسه امتثالًا لامتهان والده له، قنع بقبول فكرته عنه طالما لها أساس من الصحة يجسده بنفسه، فحق عليه أن يغير ما بنفسه أولًا قبل أي تغيير مرجو من غيره، وقد أدرك في الحركة السياسية الناشطة أن التغيير من نفسه وإصلاح صورته أمام الآخرين

لا يتأتى بمطالباتٍ ودعواتٍ إنما ببدائل وحلول حقيقية.

فثار محتجًا على الفكرة المتأصلة في نفس والده باجتهادٍ جامحٍ في دراسته، وعمل أثناءها تحت التمرين في مكتب محاماة، وبعد تخرجه بتقدير عالٍ عُيّنَ فيه بدوام جزئي، وترك بصمته في تكوين نشاط جامعي يقدم دورات تدريبية متخصصة، وثابر حتى تمكن من الالتحاق بصفوف النيابة العامة، وظل محسنًا لوالده رغم سلبيته معه وفرضه أحكامًا ظالمة عليه دون وجه حق! وما انقلب وثار باستماتة عليه إلا سلميًا، حتى وإن لم يجنِ مرجوًا بعد! لكن أولًا وأخيرًا كان يتبع قوله تعالى "وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا».

أما والسلطة ليست من الأبوة في شيء، وتطرفها في إمارة رعاياها لا يرفعها إليه في منزلة مودة أو حتى رحمة! فصوتٍ منه معارضًا وإن كان يُوَاجَه بالقمع الأمني لم يخفت في زمن السكوت، بل وبلغ مداه من العلو في انتفاضة ثورية من أبناء الوطن.. داعيًا لها، ومشاركًا فيها، ومستمرًا عليها، ثائرًا لتصحيح غلط الأوضاع، ولم يزل، كجلمود صخر لا يهزه السيل.

ربتت «ضحى» على كتفه فابتسم بامتنان، وطالع بشغف أناملها المستقرة على كتفه، بدت وكأنها انتزعت فتيل مقاومته لمشاعره نحوها، ذلك أن كان بشفتيه ولعًا للتمرغ بين يدها، فخلع تماسكه واقتصر تجاوبه معها كصديق، وانحنى ببطء ممررًا عينيه المشتعلتين بين عينيها المأخوذتين به وأناملها المرتعشة التي لم تبارح مكانها، كأنها تأبى أن تغادره قبل أن يفعل ما تظن أنه مقدم عليه! كم ارتعشت أهدابها

وكادت أن تطبق على عينيها أكثر من مرة! لكنها قاومتها محاولة الاحتفاظ بتفاصيل انحنائه المتقد في ذاكرتها، تمعن النظر بشفتيه اللتان كانتا تقتربان متراقصين ببطء حتى توقفتا على شفا أناملها.. لكأنها إن لامستها ستحترق، «ما باله مترددا». تراجع موليًا أناملها جانب وجهه، تاركًا إياها فائرة بما كان ممكنًا وبات مستحيلًا.

- شكرًا لكِ يا «ضحى»، ارتحت كثيرًا بالحديث إليكِ، ويسعدني أنكِ ترينني هكذا.

انتزعت أناملها من على كتفه بحدة وكأنها تلقت إهانة، وتمتمت بحنق خافت: لا عليك.

***

obeikandl.com

-٨-

رائحة الشتاء في الجو مُتضوِّعة، حَبَب من البرودة تجوس في مسام «ضحى» ، وتُترع خواطرها بالذكرى، تكتنف رأسها المسكين أسراب من الحلو والبشع على حد سواء، أسوأ ما في الأمر هي الذكرى، فقط لو تنتزعها من معقلها ستعود سليمة معافاة وكأن روحها لم تنشرخ قط ولم يمسسها سوء، لماذا يا رب، يا إلهي العليم! لماذا تهون على النفس كل اللحظات التي يومًا كسرتها وشتتتها حتى ولو مر في أعقابها دهر من الزمان!

ألا يلتئم جرح ناسغ أبدًا وإن كان صاحبه جارحًا أو مجروحًا! أقصى غدر نافذ في روحها وأكبر ذنب مقيد في سوء أعمالها! لمَ تختلج شفتاها كلما ساقت إليها الذكرى هوان نفسها؟ ولمَ تتوهج عيناها كلما أدركت أنها لم تكف أيام وليالي الشتاء والصيف عن اجترار العبرات، على أفعال فاضحة عليها وأخرى منها؟ لمَ لا تزل تعقل هذا القدر الهائل من الذكرى؟! لمَ لا تزل قادرة على منازعة دموعها وابتساماتها رغم أن عينها تغيضان كل تلك الصور من مخيلتها؟ أذكرى الأيام تفعل بنا هذا القدر من الوجع.. من الفرح!

ألا يمكننا أبدًا نسيان الذكرى! ستبقى عالقة بذهننا ما حيينا فنعلق بها كلما تعثرنا بها بين فكرة وأخرى ولن تخرج منا أبدًا! كأنما النسيان

لا يتعرف على الذكرى، فتبقى معلقة على مشجبه دون أن تجف! وكأن الذكرى تجهل النسيان، فلا تُعِر انتباهًا لهمسه في خضم ضوضاء لا تَكُف! فلا يَبقىَ من النسيان شيئًا تذكره، ولا تُبقِي الذكرى على شيء ينساه.

- ماذا بكِ؟

قالها «علي» باهتمام عندما شردت عنه في أفكارها الخاصة، فأعلنت شكوكها: لم يحدث أن رأيت ألمًا إلا وكان الحب هو السبب فيه!

- كذلك لم يحدث أن رأيتِ فرحًا إلا وكان الحب مسببه، ليس ثمة فعل يحتمل التعميم.

ابتسمت مجاملة وغمغمت بلامبالاة: فليكن.

- لا تهربي من النقاش، ما الذي يجعلك تلصقين به هكذا تهمة؟

نظرت إليه بتحدٍ قائلة: إنه متلبس بها.

قال بتحدٍ مماثل: فلتبرهني لي.

انفلتت منها ضحكة ساخرة وهي تجيبه بنبرة متأثرة نوعًا: هل تريد دليلًا؟ حسنًا، أنت لم تطلب الكثيرعلى أي حال، ألقِ نظرة فحسب على ما سببه لي وكنتَ بنفسك شاهدًا عليه.

- يا إلهي! بعد كل هذا الوقت يا «ضحى»؟!! فضلًا لا تبخسي الحب قدره، أنتِ و«محمود» لم تتبادلا شيئًا غير الوهم، مجرد تلبية لحاجتك إلى حالة حب مراهقة أغلبنا يمر بها، حالة تحتشد فيها طيلة الانتظار والأماني والخيالات نوقعها على شخص هو الأول لنا، فيتعاظم شأنه

وهو صغير، ولا ننساه أو نتجاوزه بسهولة لقدر الإساءة والأذى الذي دائمًا ما يتسبب فيه أمثاله من الراحلين عنا بذنب قربنا منهم. أظن مفهومك عن الحب سطحيًا، أو ربما لم يصادفك سوى قشور واهية تشبهه لكنها لا تكونه، لذا تسيئين الحكم عليه.

هتفت بنزق: أتعلم! ما زلت لم أيأس منه بعد، لكن متى أصادفه؟ متى؟ أبحث حولي لربما أجد حبيبي المنتظر لكنه لا يأتي أبدًا.

توطدت صلته بها بما يكفي أن يمط شفتيه بغير اقتناع ويقول: لا أحسبك تنشدين حبيباً أصلاً يا «ضحى».

أن يواجهك أحد بنفسك، يفضح ما توجهك نفسك إليه، لتبصره حقيقة مرئية، وتسمعه علنًا، خروجه من فم الآخرين له وقع صادم وإن كانت ذاتك تدركه قبلًا! وإن كنتَ تردده بنفسك على مسامعك كل ليلة! فثمة دور محدد مطلوب ممن تقلب عنه، مجرد تعويض عاطفي، ليس حبًا بمعنى الكلمة، حالة تتقمصها وتخرج فيها شحنتها الجاهزة من العواطف والأمنيات لاحتياجها الواضح إلى إعطائها وتلقيها في نفس الوقت، شيئًا قريبًا إلى متلازمة حب الحب، ربما تتوسم فيه حلًا جاهزًا سريعًا ومنقذًا سحريًا، لذا تبحث عن قصة حب بشدة وحالًا، بغض النظر عن مشاعرها التي تكتشف مؤخرًا أنها ليست في محلها، فتتدارك نفسها، لأنها في الوقت نفسه ليست بفتاة قد تعقد قرانها على ارتباط خالي من الحب.

ألهمها «على» الكم والكيف فيما أوقعته على نفسها في حين كان

يفترض بالأمر أن يكون أسهل من ذلك، وهيء لها الخلاص فى انتظار أن يدق قلبها ببساطة وحده دون اندفاع وتحريض، أو إحياءً للحالة ذاتها وليس بالضرورة مع مالك حسها تتصالح مع نفسها، وتفتح صالون منزلها أمام المتقدمين إليها، تقبل أيًا ممن يحمل الصفات المعينة التي تحلم بها وتعوضها بما يكفي لها، حتى وإن لم تستجب مشاعرها له.

طردت الفكرة من رأسها وبلعت تهمتها بصعوبة وهى تستجدى همته فى التدبير: هذه أنا! لكن ماذا عساى أفعل؟!

قال بحنان أبوي: حسبما أرى، أنتِ قابعة في مكانك، تشحذين من غيرك أن يحل عنك همومك لذا تعولين على الحب كثيرًا، والمؤسف أن رغبتك في الشيء تفوق رغبتك في شخص بعينه، وهذا لا يستقيم، فراجعي نفسك واكتشفي ماذا تريدين.

***

انشغلت «سلمى» متعمدة عن نداء «ناير» لها، فبادرها بقبلة سريعة على وجنتها، انتفضت على إثرها من مكانها، فهتف مستجديًا: فلتسمعيني أرجوكِ.

صرخت رغمًا عن حنينها إليه وشوقها إلى توسد صدره والبكاء بين أحضانه: فلتسمعني أنت، لا تحسب أني سأعود إليك بواقع اعتذار، لن أسامحك ما حييت، فلتفهم هذا، أنا باقية معك فقط حتى أستطيع المغادرة، صدقني عندما سأتمكن منها سأفعلها.

جثا «ناير» أمامها على ركبتيه مستجديًا: فضلًا استمعي إليَّ وبعدها

لكِ الخيار.

- ستكذب ولن يصدقك عقلي، وسيشطح خيالي متصورًا الحقيقة فلن يقوى قلبي على تصديقها، فما الجدوى؟!

تمرغت شفتاه بين يديها وهتف منتهزًا صمتها: أقسم لكِ لن أكذب، سأقول لكِ الحقيقة كاملة. واعدت فتيات فعلًا، لكن لا تربطني بإحداهن علاقة عاطفية، فقط لا زلت أمارس طقوس عزوبيتي مع رفاقي، خرجت مع أكثر من رفيقة لأكثر من ليلة، لم ألتزم بواحدة بعينها لأن أيًا منهن لا تعني شيئًا لي، في بداية زواجنا عندما كنت أذهب للسهر مع رفاقي وحدي شعرت بنفسي غريبًا بينهم ولم أستطع الاندماج أو التمتع بالصحبة، ولم يكن ممكنًا أن اصطحبك أنتِ إلى الأماكن التي نذهب إليها أو أن أطيل بكِ السهر مع فتيات رفاقي، فكان الحل أن أجلب واحدة مثلهن.

عضت على شفتها بقهر بينما واصل: أقسم لكِ أن تلك الفتاة لا تخصني ولم أجلبها إلى المنزل، لم أكن لأفعلها بكِ، إنها صديقة «فارس» وقد جاءت هنا بصحبته بعدما اقترض مني مفتاح المنزل ليقضي معها وقتًا بعيدًا عن الأنظار.

- أتلتمس العذر في وقاحة واتتك لتدنس منزلي؟! كيف قبلت؟! لمَ لم ترده؟ كيف لم ترفض؟

تطلع بندم إلى الصرخة المتحجرة على قسماتها:

-أنا آسف، فلتسامحيني أرجوكِ.

صاحت بحرقة وقهر بادٍ:

-أبدًا، أن تفعل كل هذا وتتوقع مني أن أُبقي على حبي لك وأنت لم تعد حتى نفس الشخص الذي أحببته وسلمته روحي أو أنك لم تكنه يومًا! أبدًا، أدعو الله بجوارحي أن ينزعك مني وينجيني منك.

ألا يفترض بها أن تكرهه؟! الغريب أنها لا تكره فيه سوى حبها له، تقف على عتبات زواجها منه فتتوق قدماها لمغادرته وصفع ما بينهما خلفها، لكن لا يتحرك قلبها قيد أنملة! كأنما اختارت أكاذيبه عقدًا ملتفًا حول عنقها وخذلانه خلخالًا يقيد ساقيها عن الرحيل، لكنها لن تحتسب هذا خنوعًا. هل أخطأت عندما سامحته ومنحته فرصة أخرى؟! ربما لم يكن يجدر بها البقاء معه منذ البداية مع شكوكها في حبه لها، كان لابد ألا تصبح الخيانة اختيارًا بدعوى الحب، وعاجلًا أم آجلًا ستضع حدًا لهذا الحب، رويدًا رويدًا سينتهي كل ما يربطها به.

***

غمرها «علي» حتى أذنيها بانضمامه ومؤازرته لوقفة احتجاجية أمام نقابة المحامين، استياء بليغ أمطره في لعن وسب المتسببين في حشدٍ من الناس لا تصل مستحقاتهم من الكرامة والعدل إليهم لقصور القانون وجموده عن نصرة الحق. استغربت «ضحى» تهيجه رغم ألا مصلحة تربطه بالأمر برمته فهدأته: لمَ تزعج نفسك هكذا؟ لمَ تهتم بأمر لا يخصك!

أتت محاولتها تهدئته بعكسها.. استفزته: لا يخصني!

- أجل، ستتعب كثيرًا لو فعلت، يكفيك نفسك، وحدها جاهزة للتعب، فأبقِ طاقة احتمالك لها حتى لا تنفد.

ثمة دخان كان يتطاير في نظرته إليها سلفًا أشعلته نارًا بجوابها:

-سأتعب أضعافًا لو لم أفعل، كيف لا تفكرين فيما حولك، وكل شيء فيه يخصك، وحتى لو يخص غيرك فبشكل ما يخصك، فأين أنتِ منه وبيدك تغييره للأفضل؟! إن لم تتبنِ قبلًا ثقافة التغيير لأسباب شتى يمكن التماس العذر لكِ فيها، فالآن بات واجبًا عليكِ، وعلى فكرك وفعلك أن يتواءم مع الوضع الجديد.

- الوضع كما هو عليه، التغيير لا أول له ولا آخر، ولا أراه يحدث أصلًا، لقد كان الأمر ضربة حظ، أو لعله كان توفيقًا من الله، لكن أتراه يؤول الآن إلى أي تغيير! الناس ليسوا مؤهلين للتغيير ونفسهم قصير في المطالبة به، فما بالك بمجاراته!

- وأنتِ من هذه الفئة، الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، ويبدو أن نَفْسك لا زالت على حالها! لم يقل أحد أن الطريق ليس طويلًا، وأمثالك من يطيلوه بالمناسبة، لا أقصد تجريحًا ولكن هذه حقيقة، فكل شيء يأتي بالمثابرة والسعي والكثير من الصبر والإيمان.

- أنا واقعية، ليس كل الناس ثوارًا.

اجتاحها بغضب عاتٍ: بل أنتِ سلبية، وانهزامية كذلك، ماذا ينقصك لتكوني ثائرة على الباطل ومنصفة للحق؟! هل رفعتِ صوتك يومًا يا «ضحى»؟

حدقت لحظات في وجهه كأنما لم تتوقع سؤالًا كهذا، ثم هزت كتفيها وهي تغمغم بحيرة: لا.

- لمَ؟! لمَ لزمتِ مكانك ولم تغادري عهدًا بائدًا؟! لمَ ووجه البلد تغير والمجتمع انقلب رأسًا على عقب!

قالت بخزي تلبَّسها من نظراته إليها: في البدء لم أكن مستوعبة أيًا مما يحدث وكنت مستهجنة إياه، ثم فهمته واعتدته وأردته، لكن ظل الأمر بعيدًا عن مشاركتي فيه، ربما خوفًا من موت قد يصيبني وينهب مني حياة لم أعشها بعد ويميت أمي عليَّ.

- هل حياتك التي تعيشينها الآن أو تلك التي ترجينها تستحق كل هذا الخوف عليها؟! ربما أنتِ تنتظرين من غيرك أن يقوم عنك بالمهمة، يهتف بالنيابة عنكِ، يعبر عن رأيك ويحصل على حقك، أليس كذلك! لم تعتادي أن تفعلي شيئًا من أجلك بنفسك، إلا أقل القليل، ما لا يعبر أصلًا عنك ولا يحقق ذاتك! تقتليني يا «ضحى»، لا زلتِ تتقمصين دورًا هزيلًا لا أدري فيم تمسكك وحبك له، فأنتِ لا تجيدينه ولا هو لائق عليكِ! الحياة مسرح فعلًا، لكن ألا تستحقين دورًا أكبر من شخصية ثانوية؟!

قالت بتردد: «علي»، الأمر لن يقف عليَّ!

- تصوري، يبرع المرء في الخطأ في حق نفسه أكثر مما يفعل الآخرون وبطريقة أكثر إيلامًا كذلك! حسنًا، لندع أفكارك المخجلة هذه جانبًا ولنفترض أنكِ مرتاحة في وضعك وهذا مستبعد، فعلى الأقل لمَ لا

تفكرين فيمن ليس كذلك وبحاجة إلى دعمك؟! لمَ لا تلتفتين إلى سواكِ يا «ضحى»! ولا تفعلينها حتى بطريقة مجدية! لمَ لا تشعرين بغيرك!

- أشعر، أشعر وأتألم، لكن ليس بيدي شيء لتقديمه.

- إذن لا تتألمي بالقدر الكافي! فقَولك يفرق، كل من له رأي حقًا ويغلق عليه شيطان أخرس، رأيك يغير الكثير، قد يكون فارقًا في شعور إنسان للأفضل، في إمالة كفة حق، في دفعة إضافية لأذى عن طريق خير لولاها ما يتزحزح الشر ويُكَف عنه، في ضربة زائدة على صخرة جاثمة على أنفاس لولاها ما ينفلق الحجر وتتحرر النفس، وتَحرُكِك يفرق أكثر ويغير أكثر، فلا تيأسي من تغيير لم تقدمي حتى عليه، دعيني أخصك بقصدي ربما تفهميني، شقيقك.. تشكين من البعد كله عنكِ وأنتِ لم تقربي منه خطوة واحدة، لم لا تفكرين أنكِ مثله تضعين بينكما ألف حاجز؟ لا أدري من أسبابه شيئًا لكن ما أسبابك أنتِ؟ لمَ لا تقدمين على حل الأمر معه قبل أن تيأسي من تغيير لم تفعلي شيئًا من أجل تحقيقه!

كم تأذت من صدقه وخيبة ظن وأمل فيها بادية كليًا منه! من شَظِيَّة عين، ودفْعَة لسان! سامحك الله يا عمي، أرأيت إلام أوصلني المناخ الذي فرضته على عيشتي؟! هذا الحد من اليأس في كل شيء! ولولا أن العاطفة لي كالماء والهواء لكان أصابها الشيء ذاته وما أصررتُ عليها أبدًا، وحتى إصراري عليها مغلوطة كان بشكلٍ ما يأسًا.

***

جلست «سلمى» بينهما مترنحة بحزن ثمل، عيناها تتطلعان إلى

مواساتهما بانطفاء، وشفتاها ترتجفان كطير جريح. التفتت «ضحى» إلى أمها تنشد المساعدة فوجدتها ليست أفضل حالًا من تلك المكلومة التي كانت تشد وتُرخي قبضتها بحركة لا إرادية، فدمعت عيناها بدورها وانقضى وقتٌ طويل بصحبة صمت منتحب، حتى غادرت «ضحى» استكانتها وحشدت منتهى بغضها لخيانة الرجال وذهبت بها إلى ناير، متمنية أن تغير في نفسه شيئًا لو بيدها، وقفت أمامه آبية أن تتناهَب الخيانة على سيمَائه، واجهته بقلب متأزٍ وعينين وضعتاه في قفص الاتهام: لقد وعدت «سلمى» بحبك وإخلاصك.

رفع «ناير» إليها عينان داميتان وأقر بخفوت: لا زلت أفي بوعدي.

- بل أبدًا لم تفعل، لماذا لم تفعل؟ أليست «سلمى» المرأة التي تريد؟!

- أسبابي بعيدة كل البعد عن أفكارك، لا تمس «سلمى» على الإطلاق، لا تتعلق بما بيننا، إنها فقط عادة رجالية سخيفة لا أستطع التخلص منها.

تطلعت إليه مبهوتة بمبرره، هل ما بينهما يستحق أن يعرضه للخطر بسبب عادة سخيفة! هل تذوي «سلمى» أمام عينيه لأنه لا يستطيع أن يكون رجلًا لامرأة واحدة! هل تجلدها سياط الخيانة لأن حياته لا يمكن أن تكون خالية من أخريات! وبكل الدهشة المتفجرة من إجابته غير السوية هتفت: وهل أنت راضٍ عن هذه العادة؟! هز رأسه نفيًا، كيف يرضى عما يجرح حبيبته!

- لماذا أطلقت عليها إذن عادة وليس فعلًا أو حدثًا؟ هل تنوي

الاستمرار؟! لم يجب فورًا، فكر مطولًا معتصرًا نفسه قبل أن يتنهد بيأس: أتمنى أن أُطمئنك بما أنا قادر عليه، لكن في قرارة نفسي لا أعرف إن كنت سأتوقف! تفهمي أنه ليس اختيارًا، ولو كان لما أقدمت عليه، أليس كذلك! لم أكن لأفعل بها هذا بإرادتي الحرة!

- ماذا؟! أتعنى أنه واقع، شاءت أم أبت!!

تنهد بنزق وأجاب باقتناع صادق: لا، إنه أشبه بالإدمان أو يمكن أن يكون طبعًا بي، لا أدرى أيهما أقرب إلى الصواب! إنهن لا يعنين شيئًا لي، أنا لا أفتقد شيئًا مع «سلمى» حتى أبحث عنه خارجًا، لكني أفتقد شيئًا بنفسي عندما أبتعد عنهن، أنا أحبها صدقًا وعلاقاتي بتلك الفتيات مسألة منفصلة ليست معنية بها ولا تؤثر على مشاعري نحوها.

- فجمعت بينهما حتى لا تفقد نفسك! أنت تسيء إلى نفسك عندما تصفها بهذه الطريقة، كان أجدر بك أن تعترف أنه مجرد خطأ.

- أنا سيء بقدر الآخرين، أعترف أنه عيب بي كعيوب الآخرين، لأنه لو كان مجرد خطأ سأكون مجرمًا كبيرًا، نحن الرجال مختلفون يا «ضحى»، العبث جزء من هوية بعضنا، أنتِ لن تفهمي هذا قط لأنه يناقض طبيعتكن.

عقدت حاجبيها بشدة عندما تناهى إليها حديث «علي» الذي يطابق كلمات شقيقها الأخيرة، لن يتخلى إذن «نايد» عن أفعال الرجال التي تقصف عمر المرأة ومشاعرها إلا بكثير من التفهم والتسامح من قبل «سلمى»! تفهمها أن طبعه السيء لا يقلل من حبه لها ولا يهين كرامتها،

وتسامحها اللامشروط عن كل ما قد تشعر به بمواجهة هكذا عبث! ستموت إذن كمدًا قبل أن يتخلى عن طبعه.

أشارت إليه محذرة: طبعك سيكلفك خسارتها لأن الخيانة تناقض طبيعتنا كما قلت.

***

السلاسل المُثبِّتة قدمي «ضحى» في أرض من الألم تُرجِعها إلى الخلف وتعوق تقدمها. أشار «علي» بكفه مستحثًا إياها أن تنزعها من معقلها، فلا يستطع أيًا كان التخلص من الألم بالصمت، لكنه قد يفعل إن أشهر لسانه في وجهه، فيخرجه من نفسه ويضعه نصب عينيه، ليسهل عليه إفراغه بأعيرة نارية، وينفث عن الدخان المكتنف بقلبه فينقشع عنه.

طالعته باستهجان وضحكت بدهشة: لم أكن على علم بنزعتك السادية!!

ثم تظاهرت بالتشمير عن ساعديها: إليك عني، فلتحترس.

قال بجدية نافذة الصبر: بحق يا «ضحى»، فلتضعي حدًا لأكثر ما يحزنك ويؤلمك، لا يجب أن تدعي له الفرصة لتسييرك على أهوائه.

تطلعت إلى جديته لبرهة ارتعشت بعدها شفتاها مغمغمة: أنت تعلم، إنه أبي، أفتقد أبي وأحتاج إليه.

لوح بكفه مشجعًا، فتسللت دمعات منتهكة بين الحدقتين: لا أستطيع إلا أن أفكر كيف كانت حياتي لتكون به، بالتأكيد كانت لتصبح أجمل وأهدأ، بالتأكيد لم أكن لأخطأ، وقد فعلت لأني كنت بحاجة إليه، لن

أشفى أبدًا من احتياجي إليك يا أبي، آسفة يا «علي» لن أخلع عقاله بمجرد كلمات.

تطلع إليها باستنكار ونفي بهزة من رأسه وكل وجدانه، لا ينكر أنه لم يزل يتأثر من والده مذنب الأبوة إنما ليس سلبًا، صحيح أنه يقلل من شأنه بينما يرفع غيره مقامه بين الناس، يراه وحده صغيرًا في حين يرى نفسه كبيرًا في عيون المحيطين به، ولم يزل يهتم فعلًا بنظرته له، لكن هذا فقط لأنه رفع سقف التحدى بينهما منذ زمن ولم يطله بعد. لم يجهر قبلًا بذنب أبيه لأحد سواها، وإذ بها تزيد الذنب ذنبًا في غفلة منها! تجره إلى الانصياع لإحباطات وخيبات لو كان لإرادته أن تَهزل في مواجهتها ما كان ليصبح الشخص الذي هو عليه الآن!

وهزيمتها تخرجه عن طوره، تسأله أليست الأحلام دائمًا ناقصة لا تتحقق بالكامل! وتستشهد بأنها لن تتطهر من خيبة وخذلان أيًا ممن مروا على حلمها وحسبتهم جميعًا فارسًا منقذًا في حين لم يكن أحدهم كذلك مسببًا لها حرمانًا مضاعفًا! «محمود» لم يكن أكثر من درس اختبرتْ به معادن الرجال، و«وليد» كان درسًا آخر عندما لم يكن القلب حاضرًا، و«فارس» مزيجٌ من هذا وذاك، ها قد أرداهم لها قتلى بطرفة عين، فلمَ تبقيهم هي أحياءً في ذاكرتها وحاضرها!

- أنتِ مسكينة، كم أشفق عليكِ!

تساءلت بحيرة وجلة: لمَ؟!

صاح بضيق منتفض: إنها لنكتة سبعة آلاف سنة حضارة إنما معكِ

معكوسة، أنا بحق مستاء لأجلك، تعانين من خطب لفت نظرك إليه أكثر من مرة وحتى الآن لا تسعين لإصلاحه!

ارتعدت شفتاها أمام انفراط تحكمه في أعصابه، فهدأت وتيرة غضبه شيئًا فشيئًا أمام نظراتها الملتاعة وذراعيها اللذين ضمتهما إلى صدرها بتخوف، قال بهدوء عال النبرة: ما مضى قد مضى واندثر ولن يعود بخيره أو شره، فتوقفي عن العيش في ظله، وهذه المشاعر الضائعة منك التي ترفضين أن تكون حياتك خالية منها، بسعيك خلف تملكها بهذه الضراوة باتت حياتك بأسرها خاوية من كل شيء بدونها، رغم أنها في الأساس لا يجب أن تقتصر عليها وتتلخص فيها!

تجلدت وهبت من محل الاتهام رافعة هامتها باستنكار حاد: هل تحصر كل ما مربي في سلة واحدة وتستخف به وكأنه شيئًا لا يذكر؟! وكأنى لم أعايشه بنزف من الدم والدموع؟!

استشاط غضبًا من استقوائها بالضعف لأنها أضعف، ألم يأن لها أن تكف عن النواح وترفع عليه؟!

صاح بعصبية: من أنتِ يا»ضحى»؟ ضحية! هذا ما تريدين أن تكونى عليه فحسب! كم مرة نبهتك أن تدفعي عنكِ هذا الدور وتقاوميه وتنتصري عليه لأنه يقلل منك؟! تعالي عليه بحق الله، ألا تملين من تشبثك بحظ عاثر قد لا يكون اعترض طريقك أصلًا، فتصرين على وضعه على دربك بطريقتك الخاصة!! دومًا ترين أن هناك شيء ناقص فيما تملكيه رغم كونه أكثر من كافٍ لغيرك! ولو أوقفتِ حتى نصف

تفكيرك العليل هذا فيما ينقصك وشغلتيه بما بين يديكِ بحق، لن تجدي وقتًا لتنظري لغيره.

واجهته بتحدٍ: ماذا أملكه ولا أضع عينى عليه كما تقول؟!

رد عليها بتحدٍ مماثل: مستقبلك المهني على الأقل.

- ماذا تقصد! لقد اهتممت به وبحثت عن عمل ولم يحالفني الحظ، لكني لم أستسلم وأقدمت على الدراسات العليا!

- لا، لقد اعترفتِ لي أنكِ لم تبحثِ عن عمل بجدية يا «ضحى»، والماجيستير، هل تنكري أنكِ ما فعلتِ ذلك إلا خروجًا من المنزل بحثًا عن الفارس المنتظر؟!

- ماذا يعيب هذا؟!

ارتبكت ولم تجد ما ترد به عليه غير سؤال مخزٍ، تدرك هي كل العيب فيه ويجيبها هو بأكثر مما تدركه: حبًا بالله لا تخيبي أملك في نفسك، أنتِ لستِ مراهقة صغيرة!

دمعت عيناها معاتبة: بلى، لست مراهقة، أنا معقدة نفسيًا، استرحت، أيعجبك هذا أكثر؟!

تجاهل رثاءها نفسها محفزًا إياها: هذا أدعى لئلا تندفعي بدون تحديد لتلبية حاجة تُفرِغك من ذاتك، كما تنتظرين حاجتك من الآخرين وتطالبين بها، فلتفكري فيما تحتاجه نفسك منك وتلبيه لها، بالله عليكِ أهذا ما تستحقه منك؟!

ماذا إن فقدتِ أبًا وفعل بكِ عمك و«محمود» وغيرهم منكرًا! هذا

ما تمكنوا من فعله وإن كان شرًا، فما كان منكِ غير أن وقفتِ أمامهم مغلولة اليدين وما استطعتِ فعل شيء خيرًا كان أم شرًا، فمن تلومين؟! لا، قد أوقعتُ عليكِ ظلمًا بينًا فقد استطعتِ شرًا فعلًا في حق «وليد»، أتذكرينه!

سحبها من استكانتها يربها شتى ألوان من بشر تتضاءل جانبهم حتى تُصفِر عداداتها.. ابن شارع مطرود من سعة أب حي يرزق فيطوف حول السيارات سعيًا خلف رزقه، وأم ثكلى تَنكَّر لها فلذات أكبادها على قيد الحياة لا يزالون فتفترش الطريق دارًا، وعائلات تحت خط الفقر ضن عليهم الجناة بحق شهيد منهم طالب بعيش حرية عدالة اجتماعية فلم ينل أيهم وبات حقه عند الله وحده.

للموت شرعية ربانية فيما أخذ منها، وللحياة شرعية تعليمية فيما خَبَّرتها به، أما عن هؤلاء، فما أقسى من شرعية يُندى لها جبين الإنسانية! معاناة يتقبلونها ويتعاملون معها كأمر واقع، ويعمدون إلى حلها وينتشلون أنفسهم منها بعزم، بينما هي تقحم نفسها في الهزيل منها بكامل إرادتها، وتنتظر العون من غيرها.. المعاناة دائمًا ما تشكل النفس وتثقلها، والغريب معها أنها تطمسها وتعجزها!

***

ألا يفاجئ الحب بسحره الاعتيادي وقدرته المباغتة التي تُخضع الألم رغمًا عنه وتختلس منه الكثير! وقلب ممتلئ به عن آخره كقلب «سلمى» لم يكن ليصمد أمامه، لم يكن ليتمنع كثيرًا عن مغفرة خطيئته، وقد

تجاوزت «ضحى» نهنهة الحبيبة وتعلقت باستعدادها للصفح عندما دفعتها دفعًا إليه.

- لا ترحلي عنه يا «سلمى»، لا يستحق حبكما القتل، يكفي ما فعله طيشه به فلا توجهي إليه طعنة أخرى كي لا ينزف حتى الموت، حافظي على ما بينكما، إنه أندر من أن تفرطي فيه بإرادتك، ولا تحسبي أنه أقل منكِ خوفًا عليه أو رغبةً فيه، فقط تتلبسه عادة خرقاء لم يشب على الابتعاد عنها لافتقاده لمثل أعلى يوجهه في حياته ويبعده عن صحبة السوء، أعيديه أنتِ إلى صوابه.

أحنت «سلمى» كتفاها بتثاقل. كان لابد أن تقوم بشيء من ترتيب مشاعرها، تنفضها جيدًا عنها حتى تنسلخ عن بعضها وتُبقي على البعض الذي أبى أن يغادرها، وقد حاولت أن تتخلص من شعور بعينه، لكنه تشبث بها ولم يقبل بالرحيل عندما استشرت لمسات «ناير» بروحها في ساعة حب اشتاقت إليها، فارتعشت أطرافها مستسلمة له، غابت معه في عناق محموم انتزعها منه بغزل صريح: شفاهك مُسكِرة بنكهة العنب المركز.

سكبت عيناها الأدمع واهتز قلبها الخافق بين الأضلع، فتلمس وجهها بلوعة وتسللت أنامله تزيح دمعاتها: سامحيني يا حبيبتي.

طالعته بمرارة من بين عبراتها، فاستطرد برجاء: ساعديني ألا أكون بعد اليوم الرجل الذي فعل بكِ هذا، انتشليني من خيبتك التي تسببت بها، لا تتخلي عما بيننا.

فتح كفه أمامها باستجداء: مدي يدك إلي.

تلمست أناملها الطريق إلى كفه حتى قبض عليها بقوة، فقالت بتحذير: إياك أن تفلتها.

- لا أجرؤ.

- لقد فعلتها قبلًا، ولست واثقة أني سأمد يدي إليك إن أفلتها ثانية.

أومأ متفهمًا وهمس بأمل: فلتساعديني يا حبيبتي، لا يمكنني أن أفعلها من دونك.

زفرت بامتعاض، فأردف بذنب: لو أنه فعل عادي كان بإمكاني ألا اجترحه، لم أكن لأستحق مغفرتك، لكنه عيب متأصل أستجديكِ أن تستأصلي معى جذوره المحفورة بأعماقي، امنحيني هذه الفرصة.

انفلتت منها تنهيدة حارة لفحت أنفاسه التي انتعشت سريعًا مع تعهدها: سأفعل إكرامًا لثمرة حبنا.

تحسس بسعادة بطنها التي استدارت مؤخرًا في غفلة منه، وتعهد بدوره بتصميم: أعدك أني لن أخذله.

***

تأمل «علي» قدوم «ضحى» المتبختر نحوه، اقترابها منه بوقع كعبها العالي، فانعقد حاجباه المتعاقدان سلفًا، وازداد ضيق عينيه لكأنه اختزلهما في خطين رفيعين حانقين، انتفختا فتحتا أنفه الطويل بغضب، وأطبق شفتاه الرقيقتان على كلمات بدا أنه يعرقل اندفاعها من بينهما بأعجوبة، فوفرت «ضحى» عليه عناء كبت اعتراضه عندما

بادرته ساخرة: فلتقل ما تكتمه حتى لا تنفجر عروقك النافرة.

- حذاؤك ذو الكعب العالي وسترتك القصيرة التي لا يناسبها سروالك الضيق ملفتين للانتباه حتى يبدو وكأنكِ تنشدينه!

تأوهت بانزعاج مستنكر: لكنى قطعًا لا أنشده!

لوح بكفه بحدة: فلتعودي إذن إلى طريقة ملبسك القديمة التي غيرتها فجأة بدون سبب وجيه، فلتقطعي الطريق أمام شكوك الآخرين.

قالت باعتراض طفولي: لكني نحيفة وجسدي لا يمت لتلك الشكوك بصلة.

- من الأبله الذي أقنعك بهذه الفكرة؟!

تبادر فورًا إلى ذهنها «محمود» الذي أهانها بسخريته من نحافتها مشيرًا إليها وكأنها لا تليق به، في حين أمال «علي» رأسه نحوها مغازلًا:

-فلتفهمي مغزى حديثي دون الحاجة بى إلى التورط في كلمات قد تخرج عن حدود اللباقة.

تخضب وجهها بحمرة مفاجئة ابتسم لها وقال: فتاتي ذكية.

- فتاتك كذلك تلميذة نجيبة.

- ماذا تقصدين؟!

- كخطوة أولى في تطبيق الدرس، نجوت أنت مني.

- ماذا؟!

اتسعت ابتسامتها بزهو: أقصد أني استثنيتك من حلمي الهزلي.

بادرها بأغرب إجابة تتوقعها منه ردًا، سؤال متجهم تلخص في أداة استفهام: لمَ؟!

قالت بتردد عندما فهمت أنه قد حسب استثناؤه رفضًا له للمرة الثانية: لأني أحاول التوقف عن تحويل كل رجل يمر في حياتي إلى عينة بحث عن تعويض.

أومأ موافقًا فكأنما أعاد الثقة إلى قناعتها الجديدة التي تشوشت قليلًا بتجهمه، فقط إيماءة منه دفعت بنشوة غير محدودة إلى أوردتها التي باتت تجري في نفس أخرى لم تكن عليها من قبل.

على هامش الحياة، محبوسة هي في فكرة ضيقة منغلقة على نفسها، كأنما تدخر الوصول إلى بنيانها لشخص غيرها، تضع في عهدته ما انتظرت منه أن يفعل، وإن كانت لم تضع أيضًا تصورًا حقيقيًا لذاك الذي تنتظر أن يخرج منها على يد الآخر! كينونتها مهمشة تكاد تكون معدومة الأبعاد والزوايا، ماذا أرادت بخلاف من هو سواها يدلها على ما تريده ولا تعرفه بعد؟! ولابد يعرفه هو أكثر منها كما يقتضي إيمانها بقدرتها غير المحلوم بها!

الآخر دائمًا أكثر دراية، مجرد قدومه جديرًا بألا تفكر في غيره، ففيه من قيامة ما صبرها على شحذ الانتظار، في سكون وترقب مجهول يصوره الخيال خيالًا، لا يستحيل واقعًا عاديًا مرأى العين وخاطر على القلب، حلمًا مرصودًا بكل الهباء، إنما شاطحًا عن النفس معدوم الأنا!!

حين تنغلق نفسك على هاجس، تغمس روحك فيه، وتقصر أفكارك

وتمنياتك وتمحور حياتك عليه، ظنًّا أن غيره ليس له من سبيل إليك، إلى نفسك وحلمك، رغم أنه أبعد ما يكون عنك، يحيد عنك، لا تنتمي إليه، إنما ينتمي هو إلى توجسك، تخوفك، ضعفك، قصر بصيرتك، استسهالك، استسلامك، احتياج ملح منك، ورغبة مغلوطة أمارة بالسوء!

فرشاة الأيام وألوان الاعتياد ترسم صورة حية لمشاهد متتالية في شريط الحياة، تعكس كمرآة مشاهد بعينها تحتفظ بها ذاكرتك ولا تقع على مغزاها إلا عندما يمر الزمان عليها، وتبقي لوقت طويل بمثابة أرقام كثيرة لا تحتمل سعة تخزين آلتك الحاسبة عددها، ويومًا غير معلومًا تنفضح هويتها، غاية تتوسط حروفها الأربعة واو عالقة ببنية أحاسيسك، غواية تستدرجك إليها بملء إرادتك وبدون تحريض عليها، تتنصل بك من الواقع، وتولي المجرد منها اهتمامًا طائلًا بغير اهتداء إلى منطق في تحقيقها على أرض ليست من الخيال في شيء.

لا بد لها من وقفة حقيقية، تولعها حرائق مندلعة، وتواريها ترابًا تسكنه نسيًا منسيًا، تدفنها في أرض أخرى بلا رجعة إليها، هي حياة ليست لك، لا تخصك ولا تعنيك، أليس رماد القبور هو سجنها الوحيد الذي لن تفلح معه فكاكًا ولن تقوم لها منه قائمة! ما أحمق ما نحتفظ به حيًا للذكرى! ذلك ألَّا أجدى من أن نقتل بغرض النسيان. وحتى لا نغدو صفحة ناصعة البياض بعد تشييع جثث المحرقة، فلربما تحتلنا فيما بعد ذكريات أكثر إغواءً وأقل قدرةً على الاشتعال، لزامًا علينا ألَّا ننسى في الوقت نفسه! ويعود إلينا اختيار ما لا نذكره وما لا يُنسى!

بعد سبعة أشهر.. كان الحب يسير في ليلة صيفية إلى جوارهم، بقدرما كانت حياة جديدة تسيروتتنفس بينهم في مراسم احتفالية، وحياة قديمة على هيئة شمعات مضيئة انطفأت بنفخات من «ندى» صاحبة العيد، احتفالًا بعام جديد حمل لها في يومه الأول اعترافًا متجددًا بالحب من زميل عمل تمت خطبتها إليه مؤخرًا. أمسكت «ندى» بسكين ضخمة وشرعت في تقطيع قالب الحلوى فيما احتوى خطيبها كفها بكلتا يديه، مبتسمًا لها والسكين تغوص بقالب الكيك.

- كل عام وأنتِ حبيبتي.

صفقت «ضحى» بجذل وهلل «علي»، في حين تخضبت وجنتا «ندى» بحمرة قاتلة وهي تعض على شفتها بخجل دون أن تجيبه. لم يكن ضروريًا أن تقول شيئًا بلسانها فقد تكفلت عيناها بكل الحديث، كان فيهما شيئًا من الغرق اللذيذ في عمق عيني حبيبها عندما تنظر إليه، وكان في عينيه نظرة اعتذار متأخرة لأن قصتهما لم تبدأ قبل اليوم، وكان في عيون المحيطين أمنية لطيفة بانتهاء حبهما على خير.

أحيى الحفل «باسم» الذي اجتاز عدة خطوات بمشواره الطربي عندما التحق بمسابقة غنائية حصد فيها مركزًا متقدمًا، وتعاقد بعدها مع شركة إنتاج لإطلاق ألبومه الغنائي الأول، وأثناء فقرته الغنائية حانت من «ضحى» التفاتة إلى «علي» الجالس بجوارها، يطالعها بنظرة أرغمت نفسها على ألا تفهم معناها الذي يهئ لها أنها تدركه من لغة

عيونه المغوية، نظراته لم تكن عبثية بل كان لها مغزى أكيد، فقط كانت مراوغة، لكن الغريب كيف تطابقت مع أفكار لم تُرسَم بعد في مخيلتها ومشاعر لم تَجرِ بعد في أوردتها، لكأنه يقرأها بعينيه قبل أن تُكتب!

شحذت حواسها أسلحتها الدفاعية حالما شن جسدها هجومًا عليها لقربه منها، فغمرت أناملها بالقطرات الغزيرة الباردة المنهمرة من نافورة المقهى المجاورة لطاولتهم، حتى أثلجت أطرافها وتفرق الخدر البارد على أنحاء جسدها، تشتت إحساسها تمامًا كما أرادت، فلم تكن لتهيئ فرصة ساخنة أخرى بعدما تجاوبت معه مؤخرًا بتوق معني، أزعجها أن ينال منها مرة أخرى خاصة معه هو، فاستعدت بعدها للحظة مماثلة، وها هي تنحسر مهزومة أو هكذا خيل لها.

أجفلت رغمًا عنها عندما وضعت «ندى» يدها على كتفها وضحكت بخبث: عذرًا، قاطعت انسجامكما على حين غرة.

اشرأب عنقها بانزعاج: ماذا تقصدين؟!

- ألا تفهمين! ألا ترين نفسك معه؟!

- إنه فقط صديق، لن أخطئ وأضعه في غير محله كما فعلت مع غيره.

هزت كتفيها وهي تشير إلى قلب صديقتها: ربما هو لا يشبه غيره، عليكِ أن تعرفي محله هنا.

لكم سكن ذاك الخافق الذي أشارت إليه «ندى» حيرة أخذت منه مبلغها، وإذا بها تُسكِنه المزيد في غفلة منه، وكأن لا أحد يرضى إلا بتخبطه ويزجه متعمدًا في أزقة ملتفة ولا يمهله هداية طريقه! لا تريد

قيادة فؤادها مجددًا كما فعلت لمرات فضلت الطريق في كلهم، لقد تعهدت إليه بأنها ستنفض يدها عن قلبها ولن تحرك ساكنًا بدون إقدام منه، وهو لم يفعل بعد لذا لن تحركه عنوة، وستولى اهتمامها بما عداه كما وجب عليها الوعد.

***

قبل اليوم لم تشعر «ضحى» بغدر النيل، فقط اليوم بدت مياهه مخيفة في عمقها، ثقيلة في حركتها، لكأنها تخلت عن صداقتهما ووقفت إلى صف «على» في مواجهتها. كان هذا عندما أغرتها رغبته في ركوب النيل فانصاعت لها دون تفكير مطول، وإذا بشراع المركب الصغير الذي يحملهما يتحرك عابثًا بين مياهه في نهار خريفى بارد.

أسندت طول ذراعيها على سور المركب الشراعي، فاحتكت أناملها بظهره الذي أسنده إلى ذات الجانب، فاحتوت ذراعيها سريعًا بوجل لاحظه «علي» وتمكن منه: ماذا بكِ؟

نفضت كتفها وقالت بلهجة خاوية: لا شيء، فقط لا أدرى لم وافقتك على الحديث في عرض النيل؟ أي حديث هذا الذي لا يمكن أن يتم إلا في هذا المكان!

سلط نظراته عليها وتسلل كفه إلى يدها، هامسًا: ربما يكون اعترافًا أردت أن يكون شاهدًا عليه.

تسكعت عيناها بدهشة على ملامح وجهه التي انقلبت صرامتها المميزة، وإذا بملامح أخرى حانية تتأملها وتبحث في وجهها عن جواب

لاعتراف مثقل بالإغراء: أحبِك.

لم تكن تتوقع لحظة كهذه بينهما، أو ربما لم تعد لقدومها ما ينبغي، فتبعثرت لغتها وتلاشت كلماتها واضعة أمام موجة الحب التي أغرقها بها أكثر من تيار هواء يؤرجحها، خشية أن تجرفها معه نحو عمق لم تكن مهيأة بعد لاكتشافه. أيعقل أن يُبدي وجهها إجابة قبل أن يستجيب قلبها! لكأنها تحدق به مسلمة إليه نظرات بعينها دون حساب، وإذا به يبتسم برضا أحنقها، فابتعدت على الفور عنه. استشعر أن بها خطبًا ما واقترب منها معاتبًا: ألم تسمعي ما قلته للتو؟!

بلعت ريقها بصعوبة والتفتت إليه مواجهة بقدر ضئيل من اللوم:
-كيف لك أن تقول هذا؟

هز رأسه بغير فهم، فقضمت شفتها بأسى متمتمة: أنسيت ما اتفقنا عليه! لا أريد أن أظلم نفسي مجددًا وأظلمك معي.

تساءل بضيق عينيه: هل تظنين أني يمكن أن أعرض عليكِ قلبي دون بادرة تشجيع مسبقة منكِ؟!

- وهل فعلتُ؟!

وضع جفوتها في مأزق باقترابه منها، بعينين غائمتين ورموشٍ ناعسة ولعًا بها حتى لامست سترته قماش ثوبها محتكة به، لم يُبقِ بينهما أكثر من بضع بوصات، فأجفلت وأفلتت من بين شفتيها شهقة خافتة، فيما اتسعت الحلقة السوداء التي تتوسط أبنوس عينيه بصورة غريبة أعجزتها عن النطق، وهو يحيط بكفه الكبيرين يديها ويضم بقبضته القوية

أناملها الطويلة. انحسر الهواء حولهما وانحبست أنفاسها المتقدة في صدرها، بينما اضطرمت عينيه بهالة حضور تطغى على اتزانها، فانتصبت أهدابها بتوتر واهتزت أوصال شفتيها المكتنزتين بالتواءات غير مفهومة، واصطكت ركبتاها ببعضهما بوجل، وبجذع ثقيل وكأنه مكبل بأسلاك حديدية ابتعدت رغمًا عنها بطول ذراع، مشيحة النظر بالكاد.

همس بثقة: مم تخشين يا حبيبتي؟

توارت عيناها الزائغتان عنه فرفع ذقنها إليه مجبرًا إياها على مبادلته النظرة: هل تعلمين بمَ أجبت والدتك؟

تطلعت إليه فورًا بفضول فأجاب بابتسامة واهنة: أخبرتها أن حبي لكِ على قدر ثقتك في، ووعدتها بألا أخذلها هي أو ابنتها، أترين؟! والدتك نفسها قرأت ما بيننا دون أن تعترفي به.

- لا أريد أن أعدك بما لا يمكنني التنبؤ به.

- ماذا؟!

- لست واثقة من مشاعري نحوك، أخشى أن يكون حبك لي محركًا وقتيًا لها كما كان الأمر مع كل من سبقك، أخشى ألا تزيد عن ارتياحي وتقديري لك.

- لكأنها واهية بحيث لا تستطيعين الحكم عليها!

قالها بتهكم متأزم وهز رأسه مغمغمًا: معكِ حق، لا تتعبي نفسك، لو أحببتني لكان الأمر مختلفًا.

صاح فجأة بسائق المركب العجوز: فلتعد بنا يا رجل إلى المرسى.

والتفت إليها آسفًا: فلتعذريني يا «ضحى» لأنها المرة الأخيرة التي ستريننى فيها.

اتسعت عيناها بذهول وهتفت باستجداء: لا يمكنك أن تتخلى عن صداقتنا، أرجوك.

- آسف يا «ضحى»، ليست ثمة صداقة بين الرجل والبنت، وأنتِ لم تكوني لي يومًا صديقة ولن أفلح بعد الآن في مواصلة القيام بهذا الدور.

وما أن اقترب المركب من المرسى حتى قفز إليه وتلقف يدها يساعدها على مغادرته، وبمجرد أن لامست قدماها المرسى نفض يده عنها، وأشار إليها مودعًا بخطوات متباعدة.

***

اقتربت «سلمى» من «ضحى» ببطن منتفخة متغلبة بمشقة على ركلة قوية من جنينها المتلهف على الخروج إلى الحياة. طالعت صمت الأخيرة المتأجج وأبحرت قليلًا بين عينيها التائهتين ثم ألقت قنبلتها: «فارس» طلبك من «ناير» مجددًا. يبدو أنه لم يستطع مقاومة مشاعره نحوك طويلًا!

التمعت عيناها دهشةً وهزت رأسها بغير تصديق، فأردفت «سلمى» بتهكم غير مقصود: أو لعله يريد أن يتعفف على يديكِ!

مطت شفتها باستنكار، فاستطردت «سلمى» بصدق: أنا لا أنصحك به، لكن ربما يكون هذا ظلمًا له، لا أحد يمكنه التبجح بالقدرة على سبر

أغوار الآخرين، لم تسنح لكما هذه الفرصة، كان هناك دومًا ما ينوء بكما عنها، لربما يكون في صالحكما أن تستغلاها وتتعرفا على ما يمكن أن يحدث بينكما.

اختلجت أهدابها مرارًا ولم تشِ عيناها إلا برفض دون هوية، فأبدت «سلمى» استغرابها: لا تبدين متحمسة!!

- قلت لكِ قبلًا لست مأخوذة به، لن أقرب ابن «يسري» ذاك مرة أخرى، ناهيكِ عن أن الشقراء الرخيصة تخصه.

دققت «سلمى» النظر إلى ملامح وجهها المتوترة وتساءلت: لمَ أشعر أن هناك سبب آخر لرفضك؟!

- أحيانًا لا يجب أن يخوض المرء التجربة بالكامل ليحكم عليها بالفشل، بدايات بعضها تكون كفيلة بهذا.

***

ويلٌ لي! حشرت نفسي في زاوية معزولة بين الممكن والمستحيل، وصرت أقيس عليها الموجود والمعدوم، يوم بعد الآخر نحو الحلم على شفا جرف.

على الحافة.. وهم وهواجس مغوية، وطريق إلى الأذى، بغير عبء بجراح وخدوش القفز في الفراغ، ثم تجمد الهبوط قبل أبعد نقطة في الهاوية، ثمة ما أوقفني على حافة السقوط، حد فاصل للوقوع الأسهل من الوقوف على قدمين، رفعني إلى حقيقة علياء.

على الحافة.. حلم قد تهوي بحثًا عنه بالقاع، ولا تدرى أنه في انتظارك أعلاه!

لطالما كان الحب طريدة «ضحى» ، غير أنها باتت تدرك وإن اصطادته فريسة قد لا تشبعها! ذاك الأثر المنصرم على حياتها مؤخرًا وشمها بهذه الحقيقة وشمًا مدموغًا على النفس، فقد اهتمت فعليًا بنفسها متعجبة أن كانت تنفق قدرها كله على عاطفة دون سواها وإن كانت تستميت احتياجًا إليها! الكثير مما تخبئه نفسها عنها.. ثمة ما يمكنها أن تحققه ويرضيها في ذات الوقت دون شعور بالنقص! ملأت حياتها عملًا ومرحًا، فامتلأت نفسها وروحها.

داومت على زيارة دور الأيتام، تُسَرِّي عمن يشاركها الحرمان فيبث الله في نفسها شبعًا من الحاجة، ويُنزِل عليها اكتفاءً بأم قلما يجود الزمان بمثلها، حَبَتْ إلى «نابر» في بادرة لمشوار طويل في القرب منه، وحثته على الاهتمام باحتياج والدته إليه، والتي لم تتركها بدورها إلا راضية، شغلت عملًا طموحًا في مجال تخصصها، والتحقت بورشة عمل حول النصوص الأدبية العربية التي تهواها، مُكرِسة الكثير من إنتاجها فيها عن الحث على تغيير الباطل من النفس والغير، كما أشرفت ضمن مجموعة كبيرة من الشباب على التوعية بحملة «ابدأ بنفسك»، وباتت تنزل العديد من الوقفات الاحتجاجية والمظاهرات السلمية حتى لو لا تعود عليها بنفع، وكان بعضها كذلك، لكنها كانت كلمة حق ستُسأَل عنها إنسانيتها.

والآن وهي بصدد مناقشة رسالة الماجيستير، لا تتخيل أنها يمكن أن تفعل بغير أن يكون حاضرًا، مؤازرًا لسعيها كما اعتادت منه، شاهدًا على نجاحها كما تمنى لها. لقد كان بينهما وعد من شقين، وما لم تدركه

إلا الآن أنها لم تفِ به كاملًا، وعدته أن تبحث عن نفسها كما يلزمها من الحق أن تفعل، تكف عن مصادرة كيانها، ولا تلحق بحاجة مغرضة إلحاحًا في كل صورة قد تتراءى لها أنها يمكن أن تكونها، فأوفت بجدارة بالنصف الأول من الوعد.

ثم لم تميز السمين من الغث، فأحرقتَ ما بينهما ومضت على رماد متفحم! أطفأت أعقاب الحرقة في قلبها كما قلبه، لكنها لم تُمِته بل أحيته، أفاقته من غيبوبة ثلجية باردة! فتحت قلبها لغيره مرارًا لكنه لم يكن يومًا لسواه! في حبها له انتماء تكشف أمام بُعدَها عنه، تهجيره إياها من موطنها أيامًا وليالٍ وَشَى بما توارى عنها مما استكثرته عليه وتملصت منه بدعوى الوفاء بوعدها له! كأنما أوفت بالنصف الأول من الوعد، وأخلفت نصفه الآخر!!

***

كانت «ضحى» تحمل مقدارًا هائلًا من الثقة في حبيبها، في نواياه بشأنها وفيما سيكون بينهما، ورغم ذلك كانت بحاجة إلى ذات القدر من الثقة في أخوتها لـ «نایر»، ثقة في قدرة كلاهما على الاعتماد على بعضهما البعض، تعشمت أن يكون شقيقها خط دفاع وحدود أمنية، قررت أن تحظى بمباركته وحمايته هذه المرة، أن تتعلم من أخطائها السابقة، فإن لم تبح له وتستنجد به الآن فمتى ستفعل؟! وهكذا ذهبت بخطاها إليه، في مواجهة مترددة منها لمشاعر داهمتها طويلًا نحوه. استقبل «نایر» نداءها بفضول غير ملحوظ: ماذا تريدين يا «ضحى»؟

قالت بقوة ناشدتها أن تتحلى بها: أريد أن أطلعك على شاب في حياتي.

قطب حاجبيه بعنف فأضافت بابتسامة مهزوزة: بالأحرى شاب يريد أن يكون في حياتي.

بعينين حادتين واجهها فاستطردت بعتاب: «ناير»، لم يحدث بيلنا أي حوارولم نرتب لأي خطط مستقبلية، اطمئن، لم أتعدَّ أي حدود معه، إنه شاب أعرفه من نشاط جامعي قديم، وقد التقى بي مؤخرًا بعدما تسلم عمله بالنيابة العامة وأبدى مشاعره نحوي، وها نحن أولاء.. قبل أي إجابة مني إليه أطلعك على الأمر.

شبح ابتسامة مطمئنة لاح على وجهه وهو يسألها بشقاوة هادئة: هل تخبريني بما حدث معكِ لأنه حدث ومن واجبك أن تطلعيني عليه، أم لأنكِ موافقة؟

ابلسمت بخجل لوهلة مغمغمة بتردد: «ناير»..

ثم أردفت بجدية: أنا لم أعطه أي فرصة ليطلعني على نواياه بشأني لكني واثقة به، إنه شاب جيد وأريدك أن تتحاور معه لتتأكد وتؤكد لي حسن ظني به.

واستطردت بحشرجة دامعة: أريدك أن تطمئنني.

- «ضحى»! ماذا بكِ؟!

تهاوت بعض دموع من المخزون الهائل لها من مشاعرها نحو شقيقها فاستماتت حزنًا: هل يمكنك أن تحتضني؟!

تشابكت يداها على الفور حول عنقه، وارتعش جسدها المذعور بين

obeikandi.com

ذراعيه لبعض الوقت حتى هدأ إلا من قليل من الرجفة، رهبة تملكتها فسكنت تمامًا، ليست معتادة بعد على هذه الدرجة من القرب منه. أحاط رأسها المحموم بكفه اليمنى، واستكانت الكف الأخرى على ظهرها المشدود، وبعد كثير من الصمت تساءل بحنان عذب: ماذا بكِ يا حبيبتي؟

بلعت غصة مقهورة وقالت بطعم الدموع على شفتيها: لطالما كنت بحاجة لأن أكون هكذا بين ذراعيك. «نایر»، أنا أفتقدك طوال الوقت وأنت لا تشعر بي، أعلم أنك رجل ولا يمكنك أن تتفهم شعوري، و...

- بل أفهمك يا «ضحى»، أفهم تمامًا، لكنني دائمًا أستحي منكِ، وربما هذا ما يبعدني عن احتوائك بهذا الشكل.

ابتعدت عن أحضانه متسائلة بحيرة دامعة: ماذا تعني؟

طالعها بعينين تائهتين: لا يفارقني قهري من استسلامي لعمي وتركه يفعل بنا ما يشاء. يغضبني كثيرًا أني لم أستطع منع أذاه عنكِ وعن أمي، يحزنني بحق أني لم أتمكن من حمايتكما، لم يسعني فعل شيء لكما أو لنفسي، خشيت وتراجعت فحكمت على ثورتك على ملكيته لنا بالفشل الذريع، فلا يعقل إن تخاذلتُ أنا عن الوقوف بوجهه أن تفعليها أنتِ.

- أتظننا نحملك هكذا ذنب؟! أتظننا لا ندري أن يديك كانتا مقيدتان، وأنه لوكان بإمكانك أن تفعل شيئًا ما ترددت؟! يكفي أن تحملت وصبرت على ذاك البلاء.

لم يلقِ بالًا لقناعتها التي تجرده من ذنبه، عقد حاجبيه في تفكير مطول

في ماضيه، بدهاليزه القديمة حقيقة بداخله، كان بعضها مخبأ عنه هو شخصيًا، حتى وقع عليه حينما أصلح خطأه بحق «سلمى»، وأدرك كم كان سهلًا عليه أن يفعل، ليس مستحيلًا كما حسبه، فلِمَ كان عليه أن يقربه في المقام الأول! ما حرمه منه عمه على قيد حياته وأورثه إياه بعد مماته عاث به فسادًا، لا، لم يبذر ماله تعويضًا وإنما بذر الموروث من حقه في الاختيار الذي جُرِّم عليه في حياة عمه، فانبرى يمارس ذاك الحق بعنفوان حرمان مكبوت لسنوات طوال، أو هكذا خيل له، فلقلة حيلة لا زالت تلازمه منذ الصغر وعدم اعتياد آلفه مع الكبر، كل ما استطاع فعله أن تجنى على «سلمى»، مرتين!

في المرة الأولى، أراد أن يختار شيئًا ليس مفروضًا عليه، فوقتما خطبها لم يكن اختياره لها بكامل إرادته حتى مع نمو حبه لها! كان له مجرد زواج أقارب تقليدي متعارف عليه ومقبول من الكثيرين، لكن ليس بمقبول من رجل يود بكل طاقته الخروج على المتعارف عليه حتى وإن أراده! كان يريد أن يختار ما لا يوجهه إليه سواه، وربما لم يرتح باله إلا عندما استشعر اختياره بنفسه لها، حين خلعت خاتمها وعزمت على فراقه سابقًا حالما شعرت بتردده في استمراره معها.

أما في المرة الثانية، إخلاصه لزوجته كان محتم عليه، وقد اعتقد قبلًا أنه عاجز عن اختياره، غفل عن أن أي امرئ عاقل مسؤول عن أفعاله، باستطاعته أن يقدم عليها أو يحجم عنها، وإلا فلمَ هناك جنة ونار؟! ثم بات يدرك أنه بنفسه وبكامل إرادته لم يختره برغم حبه لها، دون وعي حقيقي منه وتمرد خفي على المفروض، ودعوى أنه حر فيما يختار

ويمكنه فعل ما يشاء وله كل الحق في ذلك!!

زفر حانقًا أمام اضطراب شقيقته وتمتم بابتسامة زائغة يصرف عنها همه الذي جرها إليه: لا عليكِ يا «ضحى»، سأحاول أن أقدم لكِ ما تريدينه يا حبيبتي، لا تترددي يومًا عندما تكونين بحاجة إلي، وأنا بدوري سأفعل ما بوسعي لطمأنتك كما ترغبين.. قدر المستطاع يا «ضحى».

وقطف وجنتها بين أصابعه مردفًا باهتمام: ولتحددي لي موعدًا مع ذلك الشاب، اتفقنا.

- «نایر»، لا تحزن أرجوك، أنا آسفة.

ربت على ظهرها بحنان: لا عليكِ يا حبيبتي، أنتِ لم تفعلي شيئًا.

- قل لي إذن، ماذا يمكنني فعله لك؟!

غمغم بوجوم: صدقيني يا غاليتي لا يمكنك.

بأعماقه متاهة لا يستطيع اجتيازها، فما بالها بإرشادها إلى طريق الخروج منها وهو لا يزال عالقًا داخلها!

لا تيأس يا «نایر»، لعل بإمكاني أن أفعل شيئًا. أبقته على انتظارها ريثما خلعت من على حائط غرفتها لوحة متقنة مرسومة بفرشاته في قديم الزمان، طفلة صغيرة بين ذراعي والدها، ذهبت بها إليه وأرته إياها مراهنة على شغفه: أتذكر هذه؟

لمعت عيناه وتلمسها بحنين واضح: أين وجدتها؟

- أعلقها على حائط غرفتي منذ زمن، ألم تلحظها!

نفى برأسه فقالت: إنها جميلة، لطالما آنستني.

طالعها غير مصدق، فأردفت بترغيب: أتوق لرؤية ما فرشاتك بقادرة على فعله الآن.

- لم أمس فرشاة منذ زمن لم أعد أذكره.

- يتوجب عليك أن تفعل، أنت تهوى الرسم، ولولا عمي لا يعلم أحد الآن كم مِن الناس كانت حوائطهم لتكون عارضة للوحات تحمل توقيعك!

- أنتِ تبالغين.

- لا يمكنك أن تكون متيقنًا من هذا، أنا واثقة في فنك، وأبي كان يشجعك عليه ويتنبأ لك بمستقبل باهر فيه، لم لا تجرب حتى وتغير واقعك بآخر تحبه بحق؟ أليست فرصة على الأقل أن تكيل لعمك ما منعك عنه ولا شيء الآن يحول بينك واختيارك له سوى نفسك!

لم لا؟! حلم مدفون في جوف ماضٍ لم يكن بقادر على اختياره فيه، فلِمَ يذعن الآن في حاضر لم يعد حتى من منعه عنه موجود على قيده وصارت لديه كل القدرة على الاختيار؟! سيأخذ إجازة من عمله أو حتى يستقيل، ما يجبره على المضي فيما لا يحب؟! حياته لن تتوقف على راتبه، ما بقي من إرثه سيتكفل بدخل ومصدر رزق مناسب حتى يشبع شغفه ويستغله لصالحه ويحيله عملًا وحياة. أيقظت شقيقته ماردًا من سبات طويل، فلم يعد يطيق صبرًا على صحوة تغيير لن تقف عند هذا الحد!

***

- تمنيت أن تكون فتاة.

حدق «نایر» في زوجته التي افترشت سريرًا معدنيًا ضيقًا بجناح الولادة حال خروجها من غرفة العمليات بعد وضعها وليدها الأول، وتمتم بحيرة لتبرمها الواهن، ناقلًا بصره بينها وطفلهما المتلفح بالأبيض:

-لمَ؟

كشفت «سلمى» عن عتاب خافت لا يتطرق إلى مسامع الآخرين في الجناح: حتى تتعظ مما قد يجول ببالك عما يمكن أن يحدث لها على يد رجل يشبهك، فلا تفكر يومًا في الإقدام عليه مرة أخرى.

- حبيبتي!! ألا تملين!

- أخشى أن تعود يومًا إليه.

قبل جبينها المتعرق من الألم وهمس: اطمئني.

- ما زال عليَّ أن ألد فتاة حتى يجبرك خوفك من حقيقة «كما تدين تدان» على تنشئة ابنك جيدًا.

ابتسم بمراوغة وغمغم باقتضاب مرح وهو يمسح على شعر طفله الناعم: لا تقلقي.

تقدمت «كوثر» مداعبة المولود الصغير: يا له من صبي وسيم حفيدي الحبيب!

فيما طبعت «ضحى» على وجه المولود قبلات عنيفة تليق بعمة حديثة العهد، بينما اتجه «نایر» إلى والدته مقبلًا يدها بامتنان، كأنما يُبلِغها أن رسالتها في بث الحياة فيه بأنفاسها وحبها له قد بلغت إليه كاملة رغم

حاجز منيع وضعه بينهما حرمها أن ترى ذاك فيه قبلًا، وحان الدور عليه ليتدارك معها ومع صغيره ما تسبب فيه من أذى لنفسه ولغيره. ترقرقت دمعات مطمئنات في عيني «كوثر» وهي ترقب فرحة ابنتها وتربت على كف ابنها بأمل أفاق من خيبته وارتياح آن لها أن يكتنفها.

****

كانت قصتها معه عادية بتفاصيل غير عادية، فلم يكن غريبًا أن يُغرم صديقان ببعضهما، لكن كان غريبًا على فتاة تلاحق الحب بأسنانها أن تغفل عنه بينما كان من البداية أمام ناظريها! وكان غريبًا أن تتعلم الفتاة من رجل كيف تحب غيره، فتقع في حبه هو!

كانت الدقائق الفاصلة بين موعد خروج «علي» من سراي النيابة العامة مقر عمله وانتظار «ضحى» له على الدرج الخارجي تبدو طويلة وكأنها لا تنتهي، فقد بدأت في العد العكسي منذ اللحظة الأولى التي خطت فيها على الدرج الرخامي. راحت تعد ما يفصلها عن اعترافها إليه الذي فضلت أن يكون وجهًا لوجه بدون تأخير، فاختصرت المسافة والزمن وأعلنت وقت خروجه من عمله موعدًا بينهما، حتى توقفت الأرقام بين شفتيها عندما لمحت منكبيه العريضين يعدلان من وضع السترة الكحلية عليهما. تعلقت عيناها بيده المكتنزة التي كانت تدعك جبينه المرهق وعينيه الآسرتين المتهدلتين بأسى تظن نفسها متهمة به. التهمت ساقاه الدرجات الأولى حتى تخاذلتا عن سرعتهما حالما اصطدمت عيناه بوجودها، تهادت خطواته إليها فأسرعت تقف أمام ابتعاده عنها، واستجدت قربه: هل يمكن أن نتحدث قليلًا؟

نظر إليها بحيرة متأزمة فأشارت إلى سيارته القريبة برجاء: ربما في سيارتك، لا يمكننا الوقوف هنا طويلًا.

بدا أنه استجاب على الرغم منه وهو يقود خطواتها إلى سيارته التي فتح بابها فاعتلت مقعدها الأمامي، وهمست بلوم ما أن أخذ مقعده إلى جوارها: لقد رحلت عني ببساطة يا «علي».

- لم يكن أمامي خيار آخر.

- كيف أمكنك أن تفعلها؟!

- لا أفهمك، هل تلومينني؟!

أومأت، فقال ضاغطًا على حروفه بتهكم حانق: من منا يلوم الآخر؟!

- قلت لي إنك لن تخذلني يومًا.

- من فضلك لا تحمليني أكثر من طاقتي، بقائي معكِ لن يكون له سوى معنى واحد، وأنا لن أستجدي منكِ الحب.

تطلعت إلى عمق حدقتيه بجرأة: لكني أحبك فعلاً يا علي،

رفع رأسه إليها بدهشة، فاومأت إليه بما يظنه مستطردة بحيوية: كنت أعرف أن هناك شيء ناقص في علاقتنا لا يدعني أعترف بها، لم أكن أدري ماهية هذا الشيء، فقد تعلقت مخاوفي بمشاعري الوليدة، لكني نفضتها عنها عندما أدركت أن غيابك عن حياتي هو خوفي الأكبر، وحينها توصلت إلى ماهية النقص يا «علي»، وعرفت أنه كان ينقصني تبين صدق حبي لك بعد كل الكذب الذي مارسته على نفسي باحتراف. غيابك عني كان فترة اختبار لقلبي الذي ظننته شاغرًا منك لأفاجأ أنه

ممتلئ بك.

تبعثرت ملامحه على وجهه، انطفأت تارة واشتعلت تارة أخرى، وجم للحظات ثم داهمت عيناه مشاعر جلية. لقد تلامس قلباهما دومًا دون أن يحتكا تمامًا ببعضهما، كان يفصل بين الفعلين مسافة، عبرتها في ذات اللحظة التي تجاوز فيها مرسى انفصالهما، التصق قلبها بقلبه وقتما مر إلى جواره في لحظة فراق!

غمغم بنظرة هائمة اضطرم معها قلبها: حقًا؟!

اومأت وحركت كتفها بدلال. مَنْ غيرها وقع مضرجًا بالهوى بعد قاب قوسين أو أدنى من فراق؟!

ابتسم بخفة في حين تنهدت ببطء قائلة: يبدو أنه كان لابد أن نفترق حتى أكتشف كم أحبك حد الخوف من الاعتراف.

اكفهروجهه فجأة وانقلبت ملامحه وهويقاطعها صائحًا بنزق متشدد: -يحبذ أن تكوني واثقة بحق من حبك لي.

وأمام دهشتها لوح بكفه بحدة مضيفًا بتحذير: الحب ليس طلبًا محددًا مسبقًا، فلا تُسقطي عليَّ إخفقاتك السابقة وتعلقين خيبات أملك على علاقتنا، لست شخصًا أسطوريًا كما تطالبين حبيبك أن يكون.

شهقت نفسًا عميقًا اختزنته داخلها وأخرجته رويدًا رويدًا، قائلة على مهل: رغمًا عن أنفك، أنت الشخص الأسطوري الذي تمنيت حبيبي أن يكونه، وإن كنت قد تخطيت خيالي أيضًا، فجئت منقذًا لي كما راودني

الحلم، غير أنك أنقذتني مما لم يكن في حسباني أصلًا!

واستطردت بعتاب حقيقي مبطن في ثنايا مرحها: فقط لو تخفف قليلًا من حدتك!

أطلق سراح تهيدة منتصرة وأغمض عيناه لثوانٍ بتلذذ، غاص بضيقهما بعدها بين أهدابها المرهفة وصولًا إلى عمق البندقيتين المأخوذتين به: كم أحبِك يا صغيرتي.

مطت شفتيها المكتنزتين بحمرة امتعاض طفولي: لست صغيرة، أنا أنثى.

ناظرته بإغراء في مقابل بسمة محبة منه ونظرات متهدجة. هي أنثى حدودها الحب، فهل يجد سببًا يمنع قلبها من أسره بعد أن تعدى تلك الحدود؟! هز رأسه منتشيًا كأنما يقر بانعدام الأسباب ويرحب بإلقاء القبض عليه، هذا الرجل قادر على أن يحميها من كل شيء وأولهم نفسها، كأنما هي جزء منه، ضلعه!

obeikandl.com

بتكتب رواية أو قصص أو مقال ..
بالفصحى , بالعامية أو حتى بالأنجليزى ..
بتحب تكتب , أو تعرف حد بيحب يكتب , كلمنا ..
هنعمل كل اللى نقدر عليه عشان نساعدك تحقق حلمك وتكون كاتب معروف ..
لأن فى كيان , للإبداع مكان ..

اتصل بينا على :
محمول: 01005248794 – 01001872290 – أرضي: 0235688678
www.kayanpublishing.com

وابعتلنا على :
info@kayanpublishing.com

وتابعنا :
كيان للنشر والتوزيع
www .Facebook.com/kayan.publish
Twitter.com/kayanpublishing
www.pinterest.com/kayanpubishing
instagram.com/kayan_publishing

obeikandi.com